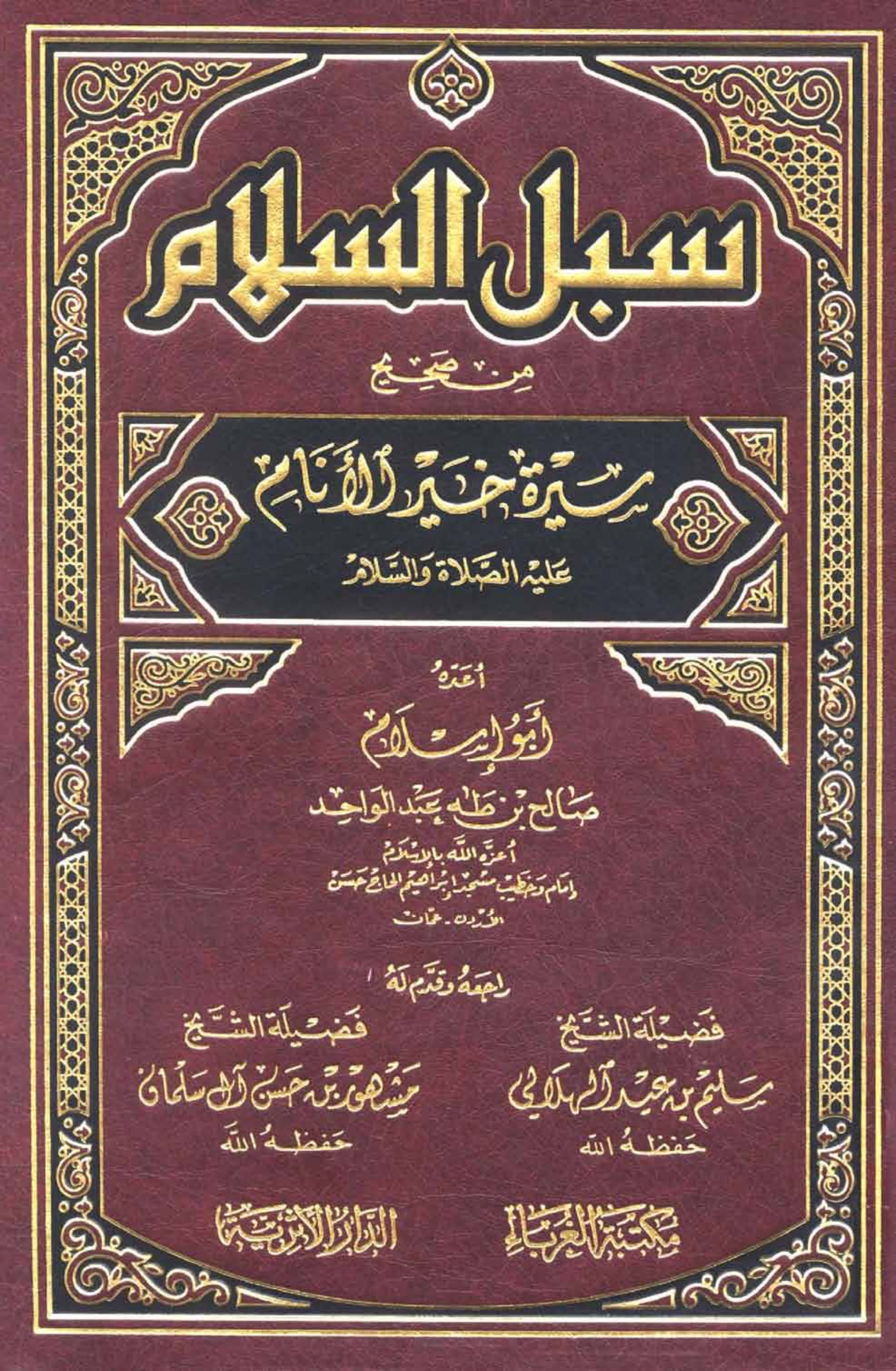

سبل السلام
من صحيح
سيرة خير الأنام
عليه الصلاة والسلام
أعده
أبو إسلام
صالح بن طه عبد الواحد
أعزه الله بالإسلام
إمام وخطيب مسجد إبراهيم الحاج حسن
الأردن - عمان
راجعه وقدم له
فضيلة الشيخ
سليم بن عيد الهلالي
حفظه الله
فضيلة الشيخ
مشهور بن حسن آل سلمان
حفظه الله
مكتبة الغرباء
الدار الأثرية



عليه الصلاة والسلام

أعدّه

أبو إسلام

صالح بن طه عبد الواحد

أعزّه الله بالإسلام

إمام وخطيب مسجد إبراهيم الحاج حسن

الأردن - عمّان

راجعه وقدّم له

فضيلة الشيخ

سليم بن عيد الهلالي

حفظه الله

فضيلة الشيخ

مشهور بن حسن آل سلمان

حفظه الله

مكتبة الغرباء

الدار الأثرية


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية

ربيع الأول ١٤٢٨هـ

مكتبة الغرباء

الأردن - عمان - هاتف: ٤٧٨٩٣٩٩

الدار الأثرية

عمان - الأردن - تلفاكس: ٠٠٩٦٢ / ٦٥٦٥٨٠٤٥

خلوي: ٠٠٩٦٢/٧٩٥٩٤٣٤٥٦ - ص.ب: ٩٢٥٥٩٥ - الرمز البريدي: ١١١٩٠

الرمز الإلكتروني: alatharya1423@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى

ثمار دراسة السيرة النبوية

إن الحمدَ لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالةٍ في النار.

أيها الاخوة **عباد الله**! موعدنا في هذا اليوم - إن شاء الله تعالى - مع سلسلة جديدة من المواعظ بعنوان:

محمد رسول الله والذين معه

وقفات تربوية مع سيرة رسول الله ﷺ، وأصحابه الكرام -رضي الله عنهم- فيها دروس وعظات وعبر.

عباد الله! وهذا العنوان أخذناه من كتاب ربنا من قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح:٢٩].

عباد الله! وهذه الآية الكريمة هي الآية الأخيرة من (سورة الفتح) التي قال الله فيها لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾، وهذا اليوم الذي نبدأ فيه هذه السلسلة من المواعظ: هو اليوم الأول من السنة الهجرية لعام ألفٍ وأربع مئة وثلاثة وعشرين (١٤٢٣هـ)، وهذا يوم يذكرنا بهجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ليقيم دولة الإسلام في المدينة، والتي فتح من خلالها قلوب العباد والبلاد؛ فبهذه المناسبة -نسأل الله -تبارك وتعالى- فهو الجدير بالإجابة- أن يجعل هذه السلسلة من المواعظ سبباً لهجرة المسلمين إلى ربهم ليعبدوه وحده، ولا يشركوا به شيئاً، وإلى سنة رسولهم ليتبعوه وحده ويبتعدوا عن البدع والخرافات، وأن يعودوا إلى منهج الصحابة -رضي الله عنهم- وأن يتركوا السبل القصيرة التي على كل سبيل منها شيطان يدعُ الناس إليه، وأن يكون ذلك سبباً للفتح المبين ولنصر المسلمين على أعداء الدين إنه ولي ذلك والقادر عليه.

عباد الله! في هذه الآية الكريمة: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ يثني ربنا جل وعلا على رسوله ﷺ وعلى الصحابة الكرام، ففي قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾: يخبرنا ربنا جل وعلا عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب، وهو خاتم الرسل والأنبياء فلا نبي بعده ولا رسول بعده.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ ثناء من الله تعالى على صحابة رسول الله ﷺ في تعاملهم مع الكفار بالشدة، ومع المؤمنين بالرحمة والعطف، فالكافر الذي هو عدو لله ولرسوله ﷺ يُعَامَلُ بشدةٍ وغلظةٍ، والمؤمن الذي رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً يُعَامَلُ بالعطف والرحمة والمحبة والحنان.

كيف لا؛ والله -عز وجل- يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٌ﴾.

عباد الله! الإخوة رابطة قوية؛ تربط المؤمنين بعضهم ببعض.

ويبين ﷺ شدة هذه الرابطة.

فيقول ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه[1].

ويقول ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[2].

فإذا نظرنا يا عباد الله! إلى أحوال المسلمين الآن، فإنه ينطبق علينا العكس تماماً إلا من رحم ربي، رحماء مع الكفار أشداء فيما بيننا و«إنا لله وإنا إليه راجعون».

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (رقم ٤٨١)، ومسلم (رقم ٢٥٨٥).
(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (رقم ٦٠١١)، ومسلم (رقم ٢٥٨٦).

عباد الله! وفي قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾.

بعد أن بين الله -تبارك وتعالى- كيف يتعامل الصحابة مع الخلق، يخبرنا عنهم كيف يتعاملون مع الخالق؛ فهم يتقربون إلى الله -عز وجل- بالأعمال الصالحة تراهم ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ وفي موضع آخر ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾.

ماذا يريدون بهذه العبادة؟ ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ يريدون بعبادتهم وجه الله، يريدون بعبادتهم رضا الله والجنة، إيمان صادق، أعمال صالحة، إخلاص لله -عز وجل-. فظهر ذلك على وجوههم قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ انظر إلى رجل في صلاة الفجر بات لله ساجداً وقائماً ترى النور يعلو وجهه، وانظر إلى رجل ترك الصلاة وأكل الربا وبات على معصية الله ترى على وجهه السواد والغبرة، ثم يخبر ربنا جل وعلا أن مثل الصحابة هذا موجود في التوراة قبل تحريفها ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ انظر إلى النبات كيف يبدأ صغيراً ثم يكبر، ثم يخرج شطأه -أي فراخه- ثم يثمر ويعجب الزراع حينذاك.

فالصحابة بدأوا قلة ثم كثروا ثم قامت لهم قائمة، ثم كانت لهم دولة فغاظوا بذلك الكفار وفتحوا الدنيا من مشرقها إلى مغربها. ولذلك وعدهم الله تعالى بالمغفرة والأجر العظيم.

فقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

عباد الله! وهذا سؤال:

ما هي الفائدة من دراسة سيرة النبي ﷺ، وسيرة أصحابه الكرام -رضي الله عنهم-؟

عباد الله! الفوائد من دراسة السيرة النبوية وسيرة الصحابة -رضي الله عنهم- كثيرة وكثيرة جداً، ومنها:

الفائدة الأولى: معرفة أسباب نزول كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وهذا مما يعين على فهمهما والاستنباط منهما أو معايشة أحداثهما.

فمثلاً: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ قالوا: نزلت في صهيب الرومي ﷺ عندما أراد أن يهاجر من مكة إلى المدينة، فاتبعه نفر من قريش فقالوا له: أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك عندنا، فبلغت ما بلغت، ثم تنطلق بنفسك ومالك؟! والله لا يكون ذلك، فنزل عن راحلته وانتثل ما في كنانته ثم قال: يا معشر قريش لقد علمتم أني من أرماكم رجالاً، وأيم الله لا تصلون إلي حتى أرمي بكل سهم معي في كنانتي، ثم أضربكم بسيفي ما بقي من يدي منه شي فافعلوا ما شئتم، فإن شئتم دللتكم على مالي وخليتم سبيلي قالوا: نعم، ففعل.

فلما قدم على النبي ﷺ قال: «ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع»، ونزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾[1].

---

(١) حديث صحيح أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢٢٨) والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٣٩٨) وقال عقبه: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» وانظر «أسباب النزول» للواحدي (ص٣٩)، و«فقه السيرة» (ص١٦٦) وتعليق شيخنا الألباني -رحمه الله- عليه.

وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١١١].

الفائدة الثانية: معرفة الطريق الذي يوصل إلى رضا الله والجنة ويتمثل فيما يلي:

أولاً: في عبادة الله وحده والابتعاد عن الشرك.

ثانياً: في اتباع النبي وحده والابتعاد عن البدع والخرافات.

ثالثاً: في سلوك منهج الصحابة الكرام والابتعاد عن سبل الشيطان.

عباد الله! والصحابة -رضي الله عنهم- ضربوا لنا مثلاً أعلى في عبادتهم لله، وفي اتباعهم للنبي ﷺ، وقد جاءت أدلة في الكتاب والسنة تأمر المسلمين أن يسلكوا منهج الصحابة؛ لأنهم قوم رضي الله عنهم ورضوا عنه. قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء:١١٥].

ويقول ﷺ: «وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار، إلا ملة واحدة» قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[1].

---

(١) «صحيح الجامع» (٢٥١٩).

ويقول ﷺ: «.. وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي -أي طريقتي- وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ»[1].

عباد الله! فعندما ندرس سيرة النبي ﷺ وأصحابه يتبين لنا الطريق الذي يوصل إلى رضا الله والجنة.

الفائدة الثالثة: يعرف المسلمون من أين ينطلقون وكيف يبدؤون.

فالرسول ﷺ بُعث في الناس وهم في ضلال مبين يعبدون الأصنام ويأكلون الميتة، ويأتون الفواحش، ويقطعون الأرحام، والقوي يأكل الضعيف، ويشربون الخمر. من أين بدأ النبي ﷺ دعوته لهذا المجتمع الذي يتقلب في الضلال المبين؟ هل بدأ بالمواجهة المسلحة فأعلنها حرباً وتدميراً وإرهاباً للكفار في مكة؟

الجواب: لا.

هل بدأ بدخول البرلمانات النيابية والوصول إلى المناصب العليا في البلاد لتوصيل الإسلام لهم؟ الجواب: لا.

هل بدأ ﷺ برفع راية الجهاد أولاً لتحرير الأرض من يد الفرس والروم؟ الجواب: لا.

هل بدأ بثورة إصلاحية لتصحيح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية؟

الجواب: لا.

ولكنه ﷺ بدأ بدعوة الناس أولاً إلى عقيدة التوحيد؛ إلى «لا إله إلا الله»؛ وهذه هي دعوة الأنبياء كلهم قبله.

---

(١) «صحيح الترمذي» (رقم ٢١٥٧) «صحيح ابن ماجه» (٤٢)، «رياض الصالحين» (رقم ١٦١، ١٧٥، ٧٠٧) تحقيق الألباني.

كلُّ نبيٍّ قال لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل:٣٦].

أمة الإسلام! انظروا معي إلى الساحة الإسلامية في هذه الأيام:

فريق من المسلمين ظنوا أن المواجهة المسلحة مع الباطل هي الطريق الصحيح؛ فبدأوا بالقتل والاغتيالات والتفجيرات للمسلم وغير المسلم، ومنهم من كَفَّرَ أباه وأمه، واستحل دمه، ومع ذلك فقد وصلوا إلى طريق مسدود وضاعت الثمار والجهود.

وفريق آخر ظنَّ أن الطريق الوحيد لقيام الدولة الإسلامية هو الدخول في البرلمانات ومجالس الأمة، والوصول إلى المناصب العالية في الدولة ومن خلالها يخدمون الإسلام، ومنهم مَنْ وصل إلى هذه المناصب وما وجدنا أنهم قدموا خدمة للإسلام والمسلمين، إلا أنهم قدموا خدمة لحزبهم؛ من جمع الأموال والوصول إلى المناصب.

فما هو الطريق؟

الطريق هو طريق النبي ﷺ؛ دعوةُ الناس إلى العقيدة الصحيحة، فكم من المسلمين يشرك بالله؟ وكم من المسلمين يطوف بالقبور؟ وكم من المسلمين يدعو غير الله؟ وكم من المسلمين يذبح لغير الله؟ فلا بد أن نبدأ بدعوة الناس إلى العقيدة الصحيحة أولاً.

فإن عادت الأمة إلى ربها وإلى سنة نبيها وإلى منهج الصحابة -رضي الله عنهم- فهم بذلك قد غيروا من أنفسهم، ومن سنن الله -تبارك وتعالى-

التي لا تتبدل ولا تتغير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾.

عباد الله! لا بد أن يبدأ التغير منا، كما أخبر النبي ﷺ فقال: «إذا تبايعتم بالعينة»، -وهو نوع من أنواع الربا- «وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد في سبيل الله سلط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[(١)].

وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد:٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور:٥٥].

الفائدة الرابعة: معرفة أسباب النصر وأسباب الهزيمة

إذا درسنا السيرة النبوية، وسيرة أصحاب النبي ﷺ عرفنا أسباب النصر، وأسباب الهزيمة.

فمن أسباب النصر:

- الثقة بالله عز وجل.
- التوكل عليه وحده.
- التضرع إليه.
- الأخذ بالأسباب الموصلة إلى النصر مع عدم الثقة بالأسباب.
- الإيمان بأن النصر من عند الله.

(١) «السلسلة الصحيحة» (رقم ١١)، «صحيح الجامع» (٤١٦).

وبالمثال يتضح المقال: في غزوة بدر يقول الله -عز وجل-: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝﴾ [الأنفال:٩-١٠].

قلوب طاهرة من الشرك يطلبون المدد من الله -عز وجل- وحده.

عباد الله! كم من المسلمين الآن إذا اشتدت بهم الأمور يطلب المدد من أصحاب القبور؟ وهذه العقيدة فاسدةٌ عند أهل الضلاَّل يقولون: إذا اشتدت الأمور فعليكم بأصحاب القبور -أي: استغيثوا بأصحاب القبور-، أما الصحابة -رضي الله عنهم- فإنهم طلبوا المدد من الله يوم بدر. ولذلك امتن الله -تبارك وتعالى- على المؤمنين بهذا النصر في يوم بدر، فقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾ [آل عمران:١٢٣].

عباد الله! وفي يوم الأحزاب

يقول الله -عز وجل- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝﴾ [الأحزاب:٩-١٢].

عباد الله! انظروا إلى الصحابة ماذا قالوا:

يقول الله -عز وجل-: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ إلى أن قال رب العزة: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب:٢٢-٢٥].

عباد الله! ومن أسباب الهزيمة:

- حب الدنيا.
- مخالفة الأوامر الشرعية.

ويظهر ذلك يوم أحد، فقد بدأت المعركة بنصر كبير للمسلمين، وخالف الرماة أمر رسول الله ونزلوا من على الجبل فتحول النصر إلى هزيمة فلما تعجب الصحابة لما أصابهم أنزل الله -تبارك وتعالى-: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران:١٦٥].

أنتم السبب، الله أكبر، مخالفة واحدة كان ما كان من تحويل النصر إلى هزيمة؟! نعم، فكيف بنا يا أمة الإسلام؟ وقد فسدت العقيدة، وترك الكثيرون الصلاة، وأكلنا الربا، وتبرجت النساء، وتركنا صلاة الجماعة، إلا من رحم ربي.

عباد الله! وفي يوم حنين، التفتوا إلى الكثرة، وأعجبتهم كثرتهم؛ فكانت الهزيمة في بداية المعركة ولكن الله سلَّم.

ولذلك قال الله -عز وجل-: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة:٢٥-٢٧].

الفائدة الخامسة: دراسة سيرة النبي ﷺ وأصحابه الكرام؛ زادٌ نافع لكل مسلم.

فالدعاة إلى الله -عز وجل- يتعلمون كيف يدعون الناس إلى عبادة الله؟

والقائد يتعلم من سيرة النبي ﷺ وأصحابه كيف تكون القيادة؟

والجندي يتعلم من سيرة النبي ﷺ وأصحابه كيف تكون الجندية؟

والمربي يتعلم من سيرة النبي ﷺ وأصحابه كيف تكون التربية؟

فالرسول ﷺ وأصحابه الكرام ضربوا لنا مثلاً أعلى في ذلك، ولذلك أمرنا الله -عز وجل- أن نتأسى برسول الله ﷺ في كل شيء، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١].

وأمرنا الله -عز وجل- أن نطيعه في كل أمر، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ﴾ [المائدة:٩٢] وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ﴾ [النساء:٨٠] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ﴾ [النساء:٥٩].

وأخبرنا ربنا -جل وعلا- أن في طاعة النبي ﷺ الهداية إلى كل خير فقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور:٥٤].

وحذر ربنا -جل وعلا- المؤمنين من مخالفة أمره فقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

وأثنى الله -عز وجل- على صحابة رسوله ﷺ وعلى من تبعهم بإحسان قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠].

الفائدة السادسة: أن نتعلم من السيرة أخلاق النبي ﷺ فالله -عز وجل- وصفه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

فماذا كان خلقه ﷺ؟

سئلت عائشة -رضي الله عنها- عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»[1].

الفائدة السابعة: نتعلم من السيرة المعجزات التي أيد الله بها نبيه محمداً ﷺ.

فمثلاً عندما طلب الكفار آية على صدقة أنه رسول أشار بيده إلى القمر فانشق نصفين، قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر:١]، ومع ذلك ما زاد الكفار إلا طغياناً كبيراً.

وقد وضع النبي ﷺ يده في الإناء ففاض الماء من بين أصابعه إلى غير ذلك من المعجزات التي نتكلم عنها في وقتها سائلين المولى في علاه أن ينفعنا بدراسة هذه السيرة للنبي ﷺ وأصحابه الكرام وهذه المواعظ تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: دراسة سيرة النبي ﷺ وهذا الذي نبدأ به من الجمعة

---

(١) رواه مسلم (رقم ٧٤٦)، وذكره النووي في «رياض الصالحين» (رقم ١٨٥٦ -تحقيق الألباني).

القادمة -إن شاء الله تعالى-.

والقسم الثاني[1]: دراسة سيرة الصحابة ونبدأ بها -إن شاء الله تعالى- إذا انتهينا من الكلام عن سيرة رسول الله ﷺ.

اللهم رد المسلمين إلى دينهم رداً جميلاً.

(١) وهذا سيكون في كتاب مستقل غير هذا سميته: «رجالٌ صدقوا».

الخطبة الثانية

صفات النبي ﷺ ونسبه

أيها الإخوة عباد الله! يقول الله -عز وجل-: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ [الفتح:٢٩].

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ

وحديثنا في هذا اللقاء سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: رسولنا ﷺ أحب إلينا من كل شيء.

العنصر الثاني: رسولنا ﷺ أشرف الناس نسباً.

العنصر الثالث: رسولنا ﷺ أحسن الناس خُلُقاً وخَلْقاً.

العنصر الرابع: أسمائه ﷺ كما جاءت في الكتاب والسنة.

العنصر الأول: رسولنا ﷺ أحب إلينا من كل شيء.

لأنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»[1].

---

(١) رواه البخاري (رقم ١٥)، ومسلم (رقم ٤٤).

فمحبة النبي ﷺ من ديننا ومن عقيدتنا.

قال عمر ﷺ: يا رسول الله: لأنت أحبَّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال عمر للنبي ﷺ: فإنك الآن والله لأنت أحب إليَّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»(١).

فيا عباد الله! محبتنا للنبي ﷺ عقيدة وإيمان، لأن الله -تبارك وتعالى- أخرجنا به من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى التوحيد.

ونبينا ﷺ أحرص علينا من أنفسنا، قال ربنا -جل وعلا-: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨].

ولذلك فإن الله -عز وجل- في كتابه يتوعد ويُفسق الذين يحبون الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن أكثر من حبهم لله ولرسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة:٢٤].

---

(١) رواه البخاري (رقم ٦٦٣٢).

وهذه المحبة يا عباد الله! تتمثل في اتباعه ﷺ وفي التمسك بسنته وفي نشرها بين الناس.

العنصر الثاني: رسولنا ﷺ أشرف الناس نسباً

فالأنبياء والرسل هم أشرف الناس نسباً، وأفضلهم خلُقاً وخلْقاً، وذلك لأن الله -تبارك وتعالى- اصطفاهم وأرسلهم برسالته إلى الناس، فإن الله -تبارك وتعالى- يقول: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

ولما سأل هِرقل ملك الروم أبا سفيان بن حرب عن نسب النبي ﷺ فقال: «كيف نسبه فيكم؟» فقال أبوسفيان: هو فينا ذو نسب.

ثم قال هرقل: «سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها»[(١)].

يعني في أكرمها أحساباً، وأكثرها قبيلة -صلوات الله عليهم أجمعين-.

عباد الله! ورسولنا محمد ﷺ هو أولى الأنبياء بكل فضيلة، فهو سيد ولد آدم وفخرهم في الدنيا والآخرة، تعالوا بنا لنستمع إلى رسول الله ﷺ وهو يخبرنا عن نسبه الشريف: يقول ﷺ: «إنَّ الله -عز وجل- اصطفى بني كنانة من بني إسماعيل واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[(٢)].

يقول العباس ﷺ بلغ النبي ﷺ بعض ما يقول الناس فصعد المنبر، فقال: «مَنْ أنا؟» قالوا: أنت رسول الله، فقال ﷺ: «أنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، إن الله -تعالى- خلق الخلق فجعلني في خيرهم، ثم جعلهم فرقتين

---

(١) رواه البخاري (رقم ٧)، ومسلم (رقم ١٧٧٣).

(٢) رواه مسلم (رقم ٢٢٧٦).

فجعلني من خيرهم فرقة ثم جعلهم قبائل، فجعلني في خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً، فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً، وأنا خيركم نسباً»(١).

ويقول ﷺ: «بُعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه»(٢).

ويقول ﷺ: «خرجت من نكاح، ولم أخرج عن سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، ولم يُصبني من سفاح الجاهلية شيء»(٣).

ويقول ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»(٤).

عباد الله! رسولنا ﷺ هو أشرف الناس نسباً فهو: أبوالقاسم محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرَّة ابن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ابن مُدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان»(٥).

وعدنان بلا شك من ولد إسماعيل الذبيح عليه السلام وإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

العنصر الثالث: رسولنا ﷺ أحسن الناس خُلُقاً وخَلْقاً:

ويكفيه شهادة في خُلُقِه أن الله -تبارك وتعالى- قال فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ

(١) «صحيح الجامع» (١٤٨٥)، «صحيح السيرة النبوية» (ص١١).
(٢) رواه البخاري (رقم ٣٥٥٧).
(٣) «صحيح الجامع» (٣٢٢٠).
(٤) «صحيح السيرة النبوية» للألباني (ص١٢).
(٥) «صحيح البخاري».

خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ [القلم:٤]، فمهما تكلمنا عن أخلاق النبي ﷺ فلا نعطيه حقه، ولما سئلت عائشة -رضي الله عنها- عن خُلق رسول الله ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»(١).

عباد الله! «ومن دراسة سيرته وقراءة الأحاديث النبوية في صفاته الخُلُقية تُطالعنا صور التواضع المقترن بالمهابة، والحياء المقترن بالشجاعة، والكرم الصادق البعيد عن حب الظهور، والأمانة المشهورة بين الناس، والصدق في القول والعمل، والزهد في الدنيا عند إقبالها، وعدم التطلع إليها عند إدبارها، والإخلاص لله في كل ما يصدر عنه، مع فصاحة اللسان وثبات الجنان، وقوة العقل، وحسن الفهم، والرحمة للكبير والصغير، ولين الجانب ورقة المشاعر وحب الصفح والعفو عن المسيء، والبعد عن الغلظة والجفاء والقسوة، والصبر في مواطن الشدة والجرأة في قول الحق»(٢).

يقول أنس ﵁: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً»(٣).

ويقول أيضاً ﵁: «ما مسستُ ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت رائحة قطُّ أطيب من رائحة رسول الله ﷺ، ولقد خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفٍّ قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟»(٤).

---

(١) رواه مسلم (رقم ٧٤٦) وقد مضى.

(٢) «السيرة النبوية الصحيحة»، أكرم ضياء العمري (ص ٨٩).

(٣) رواه مسلم (رقم ٢٣٠١) ومتفق عليه من حديث البراء بنحوه، أخرجه البخاري (رقم ٣٥٤٩)، ومسلم (رقم ٢٣٣٧).

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري (رقم ٣٥٦١)، ومسلم (رقم ٢٣٣٠).

وتقول عائشة -رضي الله عنها-: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً، كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله تعالى»(١).

وتقول -رضي الله عنها-: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى، فينتقم لله تعالى»(٢).

أما صفاته ﷺ الخَلْقية فقل في ذلك ما شئت ويكفيه أن أعداءَهُ لم يجدوا في خلقته عيباً واحداً يعيبونه به، فكان ﷺ من أحسن الناس خُلُقاً وخَلْقاً.

عباد الله! تعالوا بنا لنستمع إلى أصحابه رضي الله عنهم وهم يصفون لنا رسول الله ﷺ:

يقول أنس ﷺ في وصف رسول الله ﷺ: «كان رَبْعةً من القوم ليس بالطويل ولا بالقصير، أزهر اللون ليس بأبيض أمهق ولا آدم، ليس بجعد قطط ولا سبطَ رجلٍ، أُنزل عليه وهو ابن أربعين، فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه، وبالمدينة عشر سنين، وقُبض وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء»(٣).

ويقول البراء ﷺ: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهُ خَلْقاً، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير»(٤).

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (رقم ٣٥٦٠)، ومسلم (رقم ٢٣٢٧).

(٢) رواه مسلم (رقم ٢٣٢٨).

(٣) رواه البخاري (رقم ٣٥٤٧)، ومسلم (رقم ٢٣٤٧) واللفظ للبخاري.

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري (رقم ٣٥٤٨)، ومسلم (رقم ٢٣٣٧).

وسئل البراء: أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف؟ قال: لا، بل مثل القمر»[١].

ويقول كعب بن مالك ﷺ وهو يُحدث عن تخلُفه عن غزوة تبوك: «فلما سلمتُ على رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعةُ قمر وكنا نعرف ذلك منه»[٢].

ويقول أبوسعيد الخدري ﷺ: «كان النبي ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها»[٣].

ويقول علي ﷺ: «لم يكن النبي ﷺ بالطويل ولا بالقصير، شثن الكفين والقدمين، ضخم الرأس، ضخم الكراديس، طويل المسرُبة، إذا مشى تكفأ تكفؤاً، كأنما ينحط من صبب، لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ»[٤].

العنصر الرابع: أسمائه ﷺ:

يخبرنا ﷺ فيقول: «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر، الذي يحشر الناس على قدميَّ -أي على أثري- وأنا العاقب والعاقب: الذي ليس بعده نبي»[٥].

ويقول أبوموسى الأشعري ﷺ: «كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه

---

(١) رواه البخاري (رقم ٣٥٥٢).

(٢) رواه البخاري (رقم ٣٥٥٦).

(٣) رواه البخاري (رقم ٣٥٦٢)، ومسلم (رقم ٢٣٢٠).

(٤) «مختصر الشمائل» (رقم:٤) للألباني.

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري (رقم ٣٥٣٢)، ومسلم (رقم ٢٣٥٤) وتفسير العاقب عنده وحده.

أسماءً فقال: أنا محمد، وأحمد، والمقفيِّ والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة»[١].

وقال البيهقي: وزاد بعض العلماء فقال: سماه الله في القرآن رسولاً، نبياً، أمياً، شاهداً، مبشراً، نذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً، ورؤوفاً، رحيماً، ومذكراً، وجعله رحمة، ونعمة وهادياً»[٢].

ومن أسمائه ﷺ: «المذكر، والرحمة، والنعمة، والهادي، والشهيد، والأمين، والمزمل، والمدثر»

ومن أسمائه أيضاً: «المختار، والمصطفى، والشفيع، والمشفع، والصادق المصدوق»[٣].

عباد الله! ما هي أحوال الناس في مكة قبل مولده ﷺ؟ وما هي الأحداث العظام التي حدثت قبل مولده ﷺ؟

هذا ما نعرفه في الجمعة القادمة -إن شاء الله تعالى- إن كان في العمر بقية.

اللهم رد المسلمين إلى دينهم رداً جميلاً.

---

(١) رواه مسلم (رقم ٢٣٥٥).

(٢) «صحيح السيرة النبوية» (ص٩) للألباني.

(٣) «فتح الباري» (٦/ ٦٤٣-٦٤٤ تحت رقم ٣٥٣٣).

الخطبة الثالثة

الأحداث العظام التي سبقت ميلاد النبي ﷺ

عباد الله! يقول الله -عز وجل-: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ۝٢٩﴾ [الفتح:٢٩]؟

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة الحبيب محمد ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: أحوال مكة قبل بعثة النبي ﷺ.

العنصر الثاني: الأحداث العظام التي سبقت ميلاد النبي ﷺ

العنصر الثالث: دروس وعظاتٌ وعبر.

العنصر الأول: أحوال مكة قبل مولد النبي ﷺ وقبل بعثته.

الناس في مكة قبل بعثة النبي ﷺ كانوا في ضلال مبين؛ يتقلبون في ظلمات الشرك والجهل.

والله -تبارك وتعالى- أخبرنا بأحوال الناس قبل بعثة النبي ﷺ فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة:٢].

ورسولنا ﷺ يخبرنا بأحوال الناس قبل بعثته فيقول ﷺ: «ألا إن ربي أمرني أن أعلِّمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وإنَّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب.. الحديث»[١].

وهاهو الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب ﷺ يصور لنا أحوال الناس في مكة قبل بعثة النبي ﷺ، فيقول للنجاشي: «أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحُسن الجوار.. »[٢].

عباد الله! فالناس في حاجة إلى أن يرسل الله -تبارك وتعالى- إليهم رسولاً يخرجهم من هذه الظلمات التي يتقلبون فيها.

العنصر الثاني: الأحداث العظام التي سبقت ميلاد النبي ﷺ

أولى هذه الأحداث: قصة حفر عبدالمطلب لزمزم، والذي يخبرنا بهذه

---

(١) رواه مسلم (رقم ٢٨٦٥).

(٢) «فقه السيرة» (ص٣٤) للغزالي، تحقيق شيخنا الألباني -رحمه الله-.

القصة هو الصحابي الجليل علي بن أبي طالب ﷺ فيقول: (قال عبدالمطلب: إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت فقال: احفر طيبة، قال: قلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر برَّة. قال: فقلت: وما برَّة؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغدُ رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال: احفر المضنونة، قال: فقلت: وما المضنونة؟ قال: ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه؟ فجاءني فقال: احفر زمزم قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف أبداً -أي لا ينقطع ماؤها- ولا تُذم، تسقى الحجيج الأعظم وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل، فلما بُين له شأنها، ودل على موضعها، وعرف أنه قد صدق، غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبدالمطلب، ليس له يومئذ ولد غيره، فحفر فيها، فلما بدا لعبد المطلب الطيُّ كبَّر، فعرفتْ قريش أنه قد أدرك حاجته فقاموا إليه، فقالوا: يا عبدالمطلب إنها بئرُ أبينا إسماعيل وإن لنا فيها حقاً، فأشركنا معك فيها، قال: ما أنا بفاعل إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم؛ فقالوا له: فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد. قال: نعم، قال: وكانت بأشراف الشام، فركب عبدالمطلب ومعه نفر من بني أبيه من بني عبد مناف وركب من كل قبيلة نفر من قريش.

قال: والأرض إذ ذاك مفاوز، قال: فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام فني ماء عبدالمطلب وأصحابه، فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش، فأبوا عليهم، فقالوا: إنا بمفازة، ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أَصابكم، فلما رأى عبدالمطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه وأصحابه، قال: ماذا ترون؟ قالوا: ما

رأْينا إلا تبعٌ لرأيك، فمُرنا بما شئت.

قال: فإني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما بكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ثم واروه، حتى يكون آخركم رجلاً واحداً، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركبٍ جميعاً، قالوا: نِعم ما أَمرتْ به، فقام كلٌ واحدٍ منهم فحفر حفرته، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً؛ ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت؛ لا نضرب في الأرض، ولا نبتغي لأنفسنا لعجز، فعسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد، ارتحلوا، فارتحلوا. حتى إذا فرغوا ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون، تقدم عبدالمطلب إلى راحلته فركبها، فلما انبعثت به، انفجرت من تحت خفها عينٌ من ماء عذب، فكبَّر عبدالمطلب وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه، واستقوا حتى ملأوا أسقيتهم، ثم دعا القبائل من قريش، فقال: هلمّ إلى الماء، فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا، فجاءوا فشربوا واستقوا ثم قالوا: قد والله قضى لك علينا يا عبدالمطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً، فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبينها[١].

عباد الله! حدث عظيم وما منكم إلا وقد شرب من هذا البئر، لا ينقطع أبداً مهما أخذ منه، فهو يتدفق بأمر الله سبحانه وتعالى يسقي الحجيج.

عباد الله! ومن الأحداث التي حدثت قبل مولد النبي ﷺ.

---

(١) انظر «معازي ابن إسحاق» (ص٣)، «سيرة ابن هشام» (١/ ١٧٩-١٨١)، «دلائل النبوة» (١/ ٩٣) للبيهقي، «وقفات تربوية» «السيرة النبوية الصحيحة».

قصة نذر عبدالمطلب بأن ينحر أحد أبنائه.

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: «.. كان عبدالمطلب بن هاشم نذر إن توافى له عشرة رهط -أي أعطاه الله عشرة أولاد- أن ينحر أحدهم، فلما توافى له عشرةٌ، أقرع بينهم أيهم ينحرُ، فطارت القرعة على عبدالله بن عبدالمطلب والد رسول الله ﷺ وكان أحب الناس إلى عبدالمطلب، فقال عبدالمطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل، ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة على المائة من الإبل»[1].

عباد الله! والحادث يوحي بما خطهُ القدر الإلهي من ميلاد النبي ﷺ من أبيه عبدالله بن عبدالمطلب، فقد حفظ اللهُ حياة عبد الله بما صرف عبدالمطلب عن نحره.

وتزوج عبدالله بن عبدالمطلب من آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وحملت آمنة برسول الله ﷺ.

عباد الله! ومن الأحداث العظام التي سبقت مولد النبي ﷺ، قصة أصحاب الفيل، وهذه القصة مشهورة تعرفونها وقد ثبتت في الكتاب والسنة: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾﴾ [سورة الفيل].

قال ابن كثير -رحمه الله-: هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين كانوا قد عزموا على هدم

---

(١) «السيرة النبوية الصحيحة» لأكرم ضياء العمري (ص٩٣).

الكعبة ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله وأرغم آنافهم وخيب سعيهم وأضل عملهم، وردهم بشرٍّ خيبة، وكانوا قوماً نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأصنام، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال. ولكن الله لم ينصر قريشاً على الحبشة لخيرتهم عليهم بل صيانة للبيت العتيق الذي شرفه الله وعظمه ووقره ببعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ[1].

عباد الله! وقد جاءت الأحاديث عن رسول الله ﷺ تشير إلى قصة الفيل فمنها.

قال ﷺ: «فضل الله قريشاً بسبع خصال:

١-فضلهم بأن عبدوا الله سنين لا يعبده إلا قرشيٌّ.

٢-وفضلهم بأن نصرهم يوم الفيل وهم مشركون.

٣-وفضلهم بأن نزلت فيهم سورة من القرآن لم يُدخل فيهم غيرهم (لإيلاف قريش)

٤-وفضلهم بأن فيهم النبوة.

٥-والخلافة.

٦-والحجابة.

٧-والسقاية»[2].

---

(١) «تفسير ابن كثير».

(٢) «السلسلة الصحيحة» (رقم ١٩٤٤).

الشاهد: أنه نصرهم سبحانه وتعالى على أصحاب الفيل وهم مشركون.

ولما خرج النبي ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حَل حَل -كلمة تقال للناقة إذا تركت السير -فألحتْ- أي تمادت على عدم القيام وهو من الإلحاحِ فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء -أي حرنت- فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بِخُلق، ولكن حبسها حابسُ الفيل»[1].

ولما فتح الله -عز وجل- على رسوله مكة قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين»[2]، وفي ذلك إشارة إلى قصة أصحاب الفيل.

العنصر الثالث: دروس وعظات وعبر.

عباد الله! نقول على سبيل الاختصار:

أولاً: الكعبة هي بيت الله وهي أول بيت وضع للناس، من حاول أن يعتدي عليها أهلكه الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٥﴾ [الحج:٢٥].

ولذلك نقول لأعداء الإسلام ولكل من يحاول أو تسول له نفسه أن

---

(١) رواه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١١٢)، ومسلم (رقم ١٣٥٥).

يفكر أن يعتدي على مقدسات المسلمين أو على بيت الله؛ فإن الله -تبارك وتعالى- له بالمرصاد.

ثانياً: الكعبة هي قبلة المسلمين والنبي ﷺ هو إمام المتقين.

فانظروا عباد الله! كيف حفظ الله -تبارك وتعالى- الكعبة من أصحاب الفيل لأنها ستكون بعد بعثة النبي ﷺ هي القبلة التي يتوجه إليها المسلمون في صلاتهم فحفظها تبارك وتعالى.

النبي الكريم هو الذي يقود البشرية إلى سعادة الدنيا والآخرة ولذلك إذا أراد الله شيئاً هيأ له الأسباب، فمن الذي حفظ عبدالمطلب وهو في الصحراء أن يموت عطشاً إنه هو الله لأنه سيخرج من هذا الرجل عبدالله وهو والد النبي ﷺ .

ومن الذي حفظ عبدالله من النحر والذبح إنه هو الله لأنه سيخرج من هذا الرجل رسول الله ﷺ الذي سعادة البشرية تتوقف بإرساله، والذي يُخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، فاعتبروا يا أولي الأبصار، وتشرفوا بأنكم تنتموا إلى هذا الدين العظيم، وأنكم من أتباع سيد ولد آدم وهو محمد ﷺ.

عباد الله! ها هو رسولنا ﷺ في بطن أمه في حفظ الله ورعايته، في أي عام ولد؟ وكيف ولد؟ وأين ولد؟ وكيف تربى؟ وأين تربى؟ وما هي الآيات الساطعات التي ظهرت عندما وضعته أمه، هذا الذي نعرفه في الجمع القادمة -إن شاء الله تعالى- إن كان في العمر بقية.

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

الخطبة الرابعة

الآيات الجسام التي ظهرت ليلة مولده ﷺ

أيها الإخوة عباد الله! يقول الله -عز وجل-: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح:٢٩].

وموعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة الحبيب محمد ﷺ.

وفي هذا اللقاء رسولنا ﷺ يخبرنا عن نفسه:

جاء نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا له: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك؟ قال: «نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى عليهما السلام، ورأتْ أمي حين حملت بي؛ أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام»[1].

فمع هذا الحديث، نعيش وإياكم هذا اليوم.

عباد الله! في قوله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم».

تعالوا بنا لنستمع إلى إبراهيم عليه السلام -هناك عند الكعبة- وهو يدعو بهذه الدعوة.

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (١٥٤٥).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٧-١٢٩].

دعا إبراهيم عليه السلام، ومرت الأيام والأعوام وقد استجاب الله -تعالى- دعوته، وبعث في الأميين -أي: في العرب- رسولاً منهم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة:٢].

عباد الله! وفي قوله ﷺ: «وبشرى عيسى»، أي: وأنا بشرى عيسى عليه السلام، فها هو عيسى عليه السلام يبشر أمته برسولنا ﷺ، والله تبارك وتعالى يخبرنا بذلك في كتابه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

وأهل الكتاب من اليهود والنصارى يعلمون ذلك، وكانوا ينتظرون أن يخرج النبي منهم فلما خرج من العرب حسدوهم على ذلك وكفروا به، فإنهم يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم، فلما جاءهم رسولنا ﷺ بالبينات؛ قالوا هذا سحر مبين.

عباد الله! ويقول ﷺ: «ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نورٌ أضاء له قصور الشام».

عباد الله! لما نجا عبدالله بن عبدالمطلب من الذبح وفداه عبدالمطلب بمائة

من الإبل زوجه من أشرف نساء مكة نسباً، وهي آمنة بنت وهب، ولما حملت آمنة برسول الله ﷺ، سافر عبدالله بن عبدالمطلب للتجارة، فأدركته منيته وهو راجع من سفره بالمدينة فدفن بها عند أخواله «بني عدي بن النجار» ولم ير الرسول ﷺ أباه.

عباد الله! ولد ﷺ يتيماً يوم الاثنين من شهر ربيع الأول

قال أعرابي: يا رسول الله، ما تقول في صوم يوم الاثنين؟ فقال ﷺ: «ذاك يوم ولدت فيه، وأنزل عليَّ فيه»[(١)].

وكان مولده عليه الصلاة والسلام عام الفيل وهو المجمع عليه.

عن قيس بن مخرمة قال: «ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل»[(٢)].

عباد الله! أما الآيات التي ظهرت ليلة مولده عليه الصلاة والسلام:

عن حسان بن ثابت ﷺ قال: والله، إني لغلام يفعةٌ -أي: إذا شبَّ ولم يبلغ-، ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل كلَّ ما سمعت، إذ سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمةٍ بـ(يثرب): يا معشر يهود! حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك مالك؟ قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به»[(٣)].

ترقب بدقة من اليهود من قبل أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد أن ولد رسول الله ﷺ، وبعد أن بعث ﷺ واليهود يحسدون العرب على ما منّ الله تبارك وتعالى عليهم ببعثة هذا الرسول الكريم.

---

(١) رواه مسلم (رقم ١١٦٢).

فائدة: وفي هذا بيان للاحتفال الشرعي بمولده وهو صوم يوم الاثنين، وليس كما يفعل المبتدعة من الاحتفال السنوي بمولده وما يكون فيه من مخالفات شرعية.

(٢) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٣).

(٣) قال الشيخ الألباني في «صحيح السيرة النبوية» (ص١٤): «إسناده حسن».

وعن أسامة بن زيد -رضي الله عنه- قال: قال زيد بن عمرو بن نفيل، قال لي حبر من أحبار الشام: «قد خرج في بلدك نبي، أو هو خارج، قد خرج نجمه، فارجع فصدقه واتبعه»[١].

عباد الله! ومن الآيات التي ظهرت عند ولادته ﷺ، أن أمه رأت نوراً خرج منها أضاء لها قصور الشام، كما قال ﷺ: «ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام»[٢].

قال ابن رجب -رحمه الله-: «وخروج هذا النور عند وضعه إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض وأزال به ظلمة الشرك منها، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾ [المائدة:١٥-١٦]. وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [الأعراف:١٥٧][٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝﴾ [الصف:٨-٩].

---

(١) إسناده حسن قاله الشيخ الألباني -رحمه الله- في «صحيح السيرة النبوية» (ص١٤).
(٢) مضى تخريجه (ص٣٦).
(٣) «لطائف المعارف» (٨٩).

عباد الله! وفي قوله ﷺ: «أضاء له قصور الشام».

قال ابن كثير -رحمه الله-: وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله وبها ينزل عيسى ابن مريم ليكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويحكم في الناس بشريعة الإسلام، ولهذا جاء في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»(١).

والشام هي أرض فلسطين والأردن وسوريا ولبنان وجزء من العراق، وهذه أرض مباركة قد بارك الله فيها في كتابه الكريم في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء:١].

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ [الأنبياء:٧١].

الموضع الثالث: قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ﴾ [الأنبياء:٨١].

قال ابن جرير الطبري: الأرض التي باركنا فيها، يعني الشام.

---

(١) وفي «صحيح البخاري» (رقم ٣٦٤١): (وهم بالشام) من قول معاذ ﷺ، وانظر «صحيح مسلم» (١٩٢٠)، «تفسير ابن كثير» (١/ ١٨٤).

عباد الله! وجاءت الأحاديث النبوية الكثيرة تخبر عن فضائل الشام.

يقول ﷺ: «طوبى لأهل الشام، طوبى لأهل الشام، طوبى لأهل الشام قالوا: يا رسول الله وبم ذلك؟ قال ﷺ: «تلك ملائكة الله باسطوا أجنحتها على الشام»[1].

وقال ﷺ: ستُجندون أجناداً، جند بالشام، وجند بالعراق وجند باليمن» فقام رجل فقال: خر لي يا رسول الله! فقال: «عليكم بالشام.. فإن الله -عز وجل- قد تكفل لي بالشام وأهله».

قال ربيعة: فسمعت أبا إدريس يحدث بهذا الحديث. يقول: «ومن تكفل الله به فلا ضيعه عليه»[2].

وقال ﷺ: «إني رأيت عمود الكتاب، انتزع من تحت وسادتي فنُظرت فإذا هو نور ساطع عُمدَ به إلى الشام، ألا إن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام»[3].

وقال ﷺ: «إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة»[4].

نسأل الله العظيم أن يجعلنا وإياكم من الطائفة المنصورة.

عباد الله! قد سمعتم عن الآيات التي أخبرنا الله فيها أنه قد بارك في بلاد الشام وقد سمعتم عن الأحاديث التي قد جاءت تتكلم عن فضل الشام، وهاهم اليهود يدنسون بلاد الشام فما من تبرج ولا شرك ولا فساد إلا

---

(١) «فضائل الشام» للربعي تحقيق شيخنا الألباني (ص١٢).

(٢) «فضائل الشام» للربعي تحقيق شيخنا الألباني (ص١٣).

(٣) «فضائل الشام» للربعي تحقيق شيخنا الألباني (ص١٤).

(٤) «فضائل الشام» للربعي تحقيق شيخنا الألباني (ص١٩).

ووراءه اليهود.

عباد الله! إن الله لا ينصر قوم حتى ينصروه في أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج:٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد:٧].

أما آن الأوان يا أمة الإسلام عامة، ويا أهل الشام خاصة، أن نعود إلى الله؟ أظن أنه قد آن الأوان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد:١١].

اللهم أعز الإسلام والمسلمين.

الخطبة الخامسة

ميلاده ﷺ ونشأته

أيها الإخوة عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ.

وحديثنا في هذا اللقاء سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: ميلاد المصطفى ﷺ ونشأته.

العنصر الثاني: رسولنا ﷺ في مهمة تجارية إلى بلاد الشام.

العنصر الثالث: الله -عز وجل- يحفظ رسوله ﷺ في شبابه من أقذار الجاهلية.

العنصر الرابع: دروس وعظات وعبر.

العنصر الأول: ميلاد المصطفى ﷺ ونشأته.

ولد ﷺ يتيماً في يوم الإثنين من شهر ربيع الأول وذلك عام الفيل، وأول من أرضعته ثويبة أَمَة عمه أبي لهب[1].

ثم استُرضع ﷺ في بني سعد بن بكر، وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي ليكون أنجب للولد.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥١٠١)، ومسلم (رقم ١٤٤٩)، وانظر «صحيح السيرة النبوية» (ص١٥) لشيخنا الألباني -رحمه الله-.

فجاءت نسوةٌ من بني سعد بن بكر يطلبن أطفالاً يرضعنهم فكان ﷺ من نصيب حليمة السعدية.

وهناك في بادية بني سعد بن بكر حصلت له ﷺ حادثة شق الصدر.

عباد الله! تعالوا بنا لنستمع إلى رسول الله ﷺ وهو يخبرنا عن ذلك.

جاء نفر من الصحابة -رضي الله عنهم- إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله! أخبرنا عن نفسك. قال: «نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأتْ أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينما أنا مع أخٍ لي خلف بيوتنا نرعى بَهماً لنا، إذ أتاني رجلان -عليهما ثياب بيض- بطست من ذهب، مملوء ثلجاً، ثم أخذاني فشقا بطني، واستخرجا قلبي فشقاه، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زِنه بعشرة من أمته. فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بمئة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم ثم قال: زنه بألف من أمته. فوزنني بهم فوزنتهم، فقال: دعه عنك فوالله لو وزنته بأمته لوزنها»[1].

وعن أنس بن مالك ﷺ: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، واستخرج منه علقة [سوداء] فقال: هذا حظ الشيطان. ثم غسله في طَسْت من ذهب بماء زمزم، ثمّ لأمَه، ثم أعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمّه -يعني ظئره- فقالوا: إن محمداً قد قتل. فاستقبلوه وهو منتقع اللون.

---

(١) صحيح، «صحيح السيرة النبوية» الألباني (١٦).

قال أنس: وقد كنت أرى ذلك المخيط في صدره[١].

بعد هذه الحادثة أشفقت مرضعته عليه فأعادته إلى أمه، وعاش ﷺ عند أمه ومرت الأيام والسنين وأخذته أمه وذهبت به إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه؛ بني عدي بن النجار وبينما هي عائدة أدركتها منيتها في الطريق، فماتت بالأبواء -قرية بين مكة والمدينة- ودفنت هناك.

عباد الله! وعاد الرسول ﷺ وقد نزل من بطن أمه يتيماً لم ير أباه، وهاهو قد فقد أمه، ثم عاد إلى جده عبدالمطلب وكفله جده، ورق له رقةً لم تعهد له في ولده، ومرت الأعوام ثم توفي عبدالمطلب وكان عمر النبي ﷺ ثماني سنوات فكفله شقيق أبيه أبوطالب وكان به رحيماً وكان أبوطالب مُقلاً في الرزق، فعمل النبي ﷺ برعي الغنم؛ مساعدةً منه لعمه.

فقال ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم»، فقال أصحابه: وأنت، فقال: «نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[٢].

وسئل ﷺ: أكنت ترعى الغنم؟ قال: «نعم وهل من نبي إلا رعاها»[٣].

ثم بعد ذلك اشتغل رسول الله ﷺ بالتجارة.

العنصر الثاني: رسولنا ﷺ في مهمة تجارية إلى بلاد الشام.

عن أبي موسى الأشعري قال: «خرج أبوطالب إلى الشام ومعه رسول

(١) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٨).
(٢) رواه البخاري (رقم ٢٢٦٢).
(٣) رواه البخاري (رقم ٣٤٠٦)، ومسلم (٢٠٥٠).

الله ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب -يعني: بحيرى- هبطوا فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج ولا يلتفت إليهم. قال: فنزل وهم يحلون رحالهم، فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبي ﷺ فقال: هذا سيد العالمين، وهذا رسول رب العالمين. يبعثه الله رحمةً للعالمين.

فقال له أشياخ من قريش: وما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً، ولا يسجدون إلا لنبي وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه، ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاهم به -وكان هو في رعية الإبل- فقال: أرسلوا إليه. فأقبل وغمامة تظله، فلما دنا من القوم قال: انظروا إليه عليه غمامة! فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، قال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه.

قال: فبينما هو قائم عليهم وهو ينشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم، إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه، فالتفت، فإذا هو بسبعة نفر من الروم قد أقبلوا، قال: فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه ناس، وإنا أخبرنا خبره إلى طريقك هذه.

قال: فهل خلفكم أحدٌ هو خير منكم؟ قالوا: لا، إنما أخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه؛ هل يستطيع أحدٌ من الناس رده؟ فقالوا: لا. قال: فبايعوا وأقاموا معه عنده قال: فقال الراهب:

أنشدكم الله أيكم وليه؟

قالوا: أبوطالب. فلم يزل يناشده حتى ردّه.

... وزوّده الراهب من الكعك والزيت»(١).

العنصر الثالث: الله -عز وجل- يحفظ رسوله ﷺ في شبابه من أقذار الجاهلية.

حادثة شق الصدر هي تطهير لرسولنا ﷺ من حظ الشيطان ولذلك لم يتلوث رسول الله ﷺ في شبابه بأقذار الجاهلية.

ومن الأمثلة على ذلك:

أولاً: صانه الله -عز وجل- عن شرك الجاهلية، وعبادة الأصنام.

عن زيد بن حارثة قال: كان صنم من نحاس -يقال له: (إساف) و(نائلة). يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺوطفت معه، فلما مررت مسحت به، فقال رسول الله ﷺ: «لا تمسه» قال زيد: فطفنا، فقلت في نفسي: لأمسنه حتى أنظر ما يكون فمسحته، فقال رسول الله ﷺ: «ألم تنه؟!» قال زيد: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب، ما استلم صنماً قط حتى أكرمه الله -تعالى- بالذي أكرمه وأنزل عليه»(٢).

وقال ﷺ لخديجة: أي خديجة، والله لا أعبدُ اللات والعزى»(٣).

---

(١) صحيح، انظر «صحيح الترمذي» (٣٨٦٢)، «فقه السيرة» تحقيق الألباني، «صحيح السيرة النبوية» (ص٢٩-٣١) الألباني.

(٢) قال الألباني: إسناده حسن. انظر «صحيح السيرة النبوية» (ص٣٢).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٢٥): «رجاله رجال الصحيح».

ثانياً: حفظ الله -تعالى- رسوله ﷺ من أن يأكل الذي ذُبِحَ على النصب -أي: التي يذبحونها لغير الله-.

فكان ﷺ لا يأكل ما ذبح على النصب، ووافقه في ذلك زيد بن عمرو ابن نفيل.

عن عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ لقى زيد بن عمرو ابن نفيل بأسفل (بلدح) -واد قبل مكة أو جبل بطريق جده- قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي، فَقُدِّمتْ إلى النبي ﷺ سُفرةٌ، فأبى أن يأكل منها. ثم قال زيد: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه. وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله، إنكاراً لذلك وإعظاماً له»[١].

ثالثاً: حفظ الله -تعالى- رسوله ﷺ من أن تبدو عورته أو يظهر عرياناً.

عن جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما- قال: لما بُنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال العباس لرسول الله ﷺ: اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة. ففعل، فخرّ إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق. فقال: إزاري إزاري فشُدَّ عليه إزاره وفي لفظ قال: «فحله فجعله على منكبيه فسقط مغشياً عليه فما رؤي بعد ذلك عرياناً ﷺ»[٢].

رابعاً: وفق الله رسوله ﷺ للوقوف بعرفة قبل البعثة؛ مخالفة لما ابتدع

---

(١) رواه البخاري (٣٨٢٦).

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري في «صحيحه» (رقم ٣٦٤)، ومسلم (رقم ٣٤٠).

قومه من رأي الحُمس - والأحمسُ الشديد على دينه- وكانت قريش تسمى الحُمُسْ وكان الشيطان قد استهواهم فقال لهم: إنكم إذا عظمتم غير حَرَمِكُم استخف الناس بحرمكم، فكانوا لا يقفون بعرفة يوم عرفة، وكان سائر الناس تقف بعرفة، وكانت شريعة محمد ﷺ بعد ذلك الوقوف بعرفة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة:١٩٩].

وعن محمد بن جبير عن أبيه جبير بن مطعم قال: أضللت بعيراً لي، فذهبت أطلبه يوم عرفة، فرأيت النبي ﷺ واقفاً بعرفة فقلت: هذا والله من الحمس فما شأنه ههنا»[(١)].

فكان رسول الله ﷺ يقف بـ(عرفات) قبل أن يوحى إليه، وهذا توفيق من الله تعالى له.

العنصر الرابع: دروسٌ وعظات وعبر.

أولاً: في قوله ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم».

وفي ذلك إشارة على أن الرجال لا يقعدون عالة على الناس بل يعملون ليأكلوا من عمل أيديهم، فالأنبياء يعملون في رعي الغنم ليكتسبوا مالاً يعيشون منه ولم يجلسوا متواكلين عالة على القوم.

وفيه إشارة على الإحسان إلى الحيوان.

وفيه إشارة أن الذين يرعون الغنم ويحافظون عليها، ويصبرون عليها ويرحمونها؛ يستطيعون بعد ذلك أن يرعوا الأمم والشعوب، ولذلك ما من

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (رقم ١٦٦٤)، ومسلم (رقم ١٢٢٠).

نبي إلا وقد رعى الغنم في بداية حياته، لأن من وفق في رعي الغنم وفق في رعاية الأمم والشعوب.

وعليه فإنه عندما بعث رسولنا ﷺ رعى الأمة وحافظ عليها، وأخذ بأيد الأمة ناصحاً أميناً يقودها إلى جنة عرضها السموات والأرض.

ثانياً: وفي قول الراهب بحيرى لأبي طالب: إني أخاف على هذا النبي من اليهود والروم؛ دليل على عداوة اليهود والنصارى للنبي ﷺ قبل بعثته وبعد بعثته، وقد أخبرنا الله بعداوتهم في كتابه فقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠] وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة:٢١٧].

فأهل الكتاب عامة واليهود خاصة يبغضون رسول الله ﷺ والمسلمين ويعملون بالليل والنهار للقضاء على الإسلام والمسلمين، وكما سيمر معنا في الحديث عن السيرة المحاولات الكثيرة التي حاولتها اليهود ليتخلصوا من رسول الله ﷺ وعلى سبيل المثال:

يقول أبوهريرة ﷺ: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم. فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا إليَّ من كان هاهنا من اليهود»، فجُمعوا له. فقال لهم رسول الله ﷺ: «إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيَّ عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم: فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم» قالوا: أبونا فلان.

فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم، بل أبوكم فلان» فقالوا: صدقت وبررت،

فقال: «هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟». فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟». فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها. فقال ﷺ: «اخسئوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً. ثم قال لهم: «هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم. فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟» فقالوا: نعم فقال: «ما حملكم على ذلك؟» فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك»[1]

قال تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ﴾ [المائدة:٨٢].

اللهم رد المسلمين إلى دينك رداً جميلاً.

(١) رواه البخاري (رقم ٣١٦٩، ٥٧٧٧).

الخطبة السادسة

الأحداث الجسام قبل بعثة النبي ﷺ

أيها الإخوة **عباد الله!** موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون حول الأحداث الجسام التي كانت قبل بعثة المصطفى ﷺ.

عباد الله! وسنقتصر في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- على ثلاثة أحداث فقط.

الحدث الأول: شهوده ﷺ حلف الفضول.

الحدث الثاني: زواجه ﷺ من خديجة -رضي الله عنها-.

الحدث الثالث: بناء الكعبة وقضية التحكيم.

عباد الله! أما شهوده ﷺ حلف الفضول فقد قال ﷺ: «شهدت مع عمومتي حلف المطيبين، فما أحبه أن أنكثه، وأن لي حمر النعم»[(١)].

وقال ﷺ: «ما شهدت حلفاً لقريش إلا حلف المطيبين وما أحب أن لي حمر النعم وأني كنت نقضته»[(٢)].

عباد الله! والمراد بحلف المطيبين في الأحاديث هو حلف الفضول، وهذا الحلف كان في دار عبدالله بن جدعان، فاجتمعوا وتعاهدوا ألا يجدوا بمكة

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (١٩٠٠)، «صحيح السيرة النبوية» للألباني (ص٣٥).

(٢) «صحيح السيرة النبوية» للألباني (ص٣٥).

مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها إلا قاموا معه، وكانوا على الظالم حتى يردوا عليه مظلمته.

فهو تحالف على التناصر قبل الإسلام والأخذ للمظلوم من الظالم.

الله أكبر: في الجاهلية قبل الإسلام الناس لا يحبون الظلم ويقفون في وجه الظالم، فما بالنا في هذا القرن قرن الحضارة والتقدم -زعموا- لا أرى أحداً يقف في وجه الظالم، ويقول له اتق الله، ولا أحد يقف مع المظلوم، ولكن نقول لا غرابة في ذلك فالكفار ملة واحدة اجتمعوا على إبادة الإسلام والمسلمين، ولكن لن يصلوا أبداً إلى ما أرادوا، فالأمة الإسلامية إن رجعت إلى دينها استطاعت أن تسير بهذا العالم إلى سعادة الدنيا والآخرة، أما يوم أن انصرفت الأمة عن دينها -إلا من رحم ربي- فكان ما كان.

فيا أمة الإسلام عودوا إلى دينكم، فرسولنا ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعينة[١] وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[٢].

فالنصر لا يأتِ إلا من عند الله قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

عباد الله! أما زواجه ﷺ من خديجة -رضي الله عنها- فقد كان ﷺ في بداية حياته يرعى الغنم. قال ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم» فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط»[٣]، ثم اشتغل ﷺ بعد ذلك بالتجارة.

---

(١) العينة: أن يبيع شيئاً من غيره بثمن مؤجل، ويسلمه إلى المشتري، ثم يشتريه قبل قبض الثمن بثمن أقل من ذلك القدر، يدفعه نقداً، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فهذا مع التواطؤ يبطل البيعين، لأنها حيلة».

(٢) «صحيح الجامع» (٤١٦)، «السلسلة الصحيحة» (رقم ١١)

(٣) رواه البخاري (رقم ٢٢٦٢).

عباد الله! «كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال من مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوماً تجاراً فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، فقبله رسول الله ﷺ، وخرج في مالها ذلك وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام»[١].

عباد الله! ولما رجع إلى مكة، ورأت خديجة في مالها من البركة ما لم تر قبل هذا، وأُخبرت بشمائله الكريمة وجدت ضالتها المنشودة فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها، وهذه ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوج خديجة فرضي بذلك، وكلم أعمامه فذهبوا إلى عم خديجة وخطبوها إليه وعلى إثر ذلك تم الزواج، وكان سنها إذ ذاك أربعين سنة.

وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسباً وثروة وعقلاً، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت -رضي الله عنها- وكل أولاده منها سوى إبراهيم»[٢].

عباد الله! تعالوا بنا لنتعرف على أم المؤمنين خديجة -رضي الله عنها- من خلال الأحاديث والآثار الصحيحة.

أولاً: منزلة خديجة من نساء العالمين.

قال ﷺ: «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت

---

(١) «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (١/ ٢١٢).
(٢) «وقفات تربوية» (ص٥٥).

خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امراة فرعون»[١]، وقال ﷺ: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد»[٢].

ومعنى خير نسائها: أي: أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها.

ثانياً: منزلة خديجة عند رسول الله ﷺ.

قالت عائشة -رضي الله عنها-: «ما غرت على نساء النبي ﷺ إلا على خديجة وإني لم أدركها، قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول: «أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة» قالت: فأغضبته يوماً فقلت: خديجة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني قد رزقت حبها»[٣].

وقالت عائشة -رضي الله عنها:- «ما غرت للنبي ﷺ على امرأة من نسائه ما غرت على خديجة لكثرة ذكره إياها، وما رأيتها قط»[٤]، وقالت عائشة -رضي الله عنها-: «لم يتزوج النبي ﷺ على خديجة حتى ماتت»[٥].

وقالت عائشة -رضي الله عنها-: «استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك، فقال: اللهم! هالة بنت خويلد، فغرت فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، فأبدلك الله خيراً منها»[٦]

---

(١) «صحيح الترمذي» (٣٠٥٣).
(٢) رواه البخاري (رقم ٣٤٣٢) ومسلم (رقم ٢٤٣٠).
(٣) رواه مسلم (رقم ٢٤٣٥).
(٤) رواه مسلم (رقم ٢٤٣٥).
(٥) رواه مسلم (رقم ٢٤٣٥ بعد ٧٦).
(٦) رواه البخاري (رقم ٣٨٢١) ومسلم (رقم ٢٤٣٦).

ثالثاً: منزلة خديجة في الجنة:

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط، قال: «تدرون ما هذا؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران»(١).

رابعاً: جبريل عليه السلام يقرئ خديجة السلام من ربها ويبشرها بقصر في الجنة:

عن أبي هريرة ﷺ قال: «أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب»(٢).

خامساً: خديجة -رضي الله عنها- هي التي قالت لرسول الله ﷺ عندما نزل عليه الوحي في غار حراء: «كلا والله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»(٣).

وهي -رضي الله عنها- التي آمنت به وصدقته، ووقفت معه تواسيه بنفسها وبمالها.

---

(١) صحيح رواه أحمد (٢٦٦٨).
(٢) رواه البخاري (رقم ٣٨٢٠)، ومسلم (رقم ٢٤٣٢).
(٣) رواه البخاري (رقم ٣)، ومسلم (رقم ١٦٠).

عباد الله! أما بناء الكعبة وقضية التحكيم. فكانت قبل بعثة النبي ﷺ بخمس سنوات على الراجح. فالله -عز وجل- يقول في كتابه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ﴾ [آل عمران:٩٦-٩٧].

وعن أبي ذر ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض. قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت: وكم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»(١).

فيا أمة الإسلام! كما أنكم لا تقصّرون أبداً في بيت الله الحرام، فاحذروا أن تقصِّروا في المسجد الأقصى، فالله سائلكم يوم القيامة عن تقصيركم في هذا المسجد الذي دنسته اليهود على مسمع من الجميع.

عباد الله! وأما قصة بناء البيت الحرام فهي:

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: «ولما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان جاء إبراهيم بها -أي بأم إسماعيل- وبابنها إسماعيل -وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحدٌ، وليس بها ماء، فوضعها هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفّى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (رقم ٣٣٦٦)، ومسلم (رقم ٥٢٠).

رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧] وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء، عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى -أو قال: يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً، وأخذت أم إسماعيل تنتقل من الصفا إلى المروة فعلت ذلك سبع مرات إلى أن ظهر الماء بإذن الذي يقول للشيء كن فيكون، فشربت أم إسماعيل وأرضعت ولدها فقال لها الملك -وهو جبريل عليه السلام- لا تخافوا الضيعة فإن ها هنا بيت الله، يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله»

ومرت الأيام وكبر إسماعيل عليه السلام -وتزوج وكان إبراهيم عليه السلام يذهب لزيارتهم أحياناً، ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال: يا إسماعيل! إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً. وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها.

قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾[1].

---

(١) انظر كتاب «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص٤٠-٤٢).

عباد الله! ومرت الأيام وانهدم البيت بسبب الأمطار أو بحريق أصابه، فبنته قريش وشارك النبي ﷺ في بناء الكعبة.

عن جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما- قال: «لما بُنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ والعباس ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك تقك من الحجارة فخرّ إلى الأرض وطمحت عينه إلى السماء ثم أفاق فقال: إزاري إزاري، فشد عليه إزاره».

عباد الله! قريش تبني في البيت ولما وصلوا إلى المكان الذي يوضع فيه الحجر الأسود تشاجروا من يضعه؟ فاتفقوا أن يحكم بينهم أول من يدخل من هذا الباب فدخل رسول الله ﷺ من باب بني شيبة فأمر بثوب فوضع الحجر في وسطه، وأمر كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب، فرفعوه، وأخذه رسول الله ﷺ فوضعه»[(١)].

وسألت عائشة -رضي الله عنها- رسول الله ﷺ عن الحِجْر أمن البيت هو؟ قال: «نعم» قالت: فلم لم يدخلوه في البيت؟ قال: «إن قومك قصرت بهم النفقة» قالت: فما شأن بابه مرتفعاً؟ قال: «فعل ذلك قومك لِيُدخلوا من شاؤوا، ويمنعوا من شاؤوا، ولولا أن قومك حديث عهدهم في الجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجَدْرَ -أي الحجر- في البيت، وأن ألزق بابه بالأرض»[(٢)].

اللهم زد الكعبة شرفاً وتكريماً.

---

(١) انظر «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص٤٤).

(٢) «السلسلة الصحيحة» رقم (٤٣).

الخطبة السابعة

البشارات بنبوة النبي ﷺ قبل بعثته

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ.

وحديثنا في هذا اللقاء سيكون حول البشارات التي جاءت تخبر بنبوة محمد ﷺ قبل بعثته.

أمة الإسلام! رسولنا محمد ﷺ في الملأ الأعلى، خاتم النبيين من قبل خلق آدم عليه السلام.

سئل ﷺ: متى كتبت نبياً؟ قال: «كتبت نبياً وآدم بين الروح والجسد»(١).

وسئل ﷺ: متى وجبت لك النبوة؟ قال: «بين خلق آدم ونفخ الروح فيه»(٢).

ثم جاءت البشارات من جميع الأنبياء، وفي الكتب السماوية، ومن علماء أهل الكتاب تخبر بنبوة محمد ﷺ قبل بعثته، فتعالوا بنا يا عباد الله! لنستمع إلى هذه البشارات.

أولاً: ليزداد الذين آمنوا إيماناً.

ثانياً: ليكون ذلك حافزاً لإيمان أهل الكتاب عندما يقرأون أو يسمعون

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (١٨٥٦).

(٢) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص٥٤).

التبشير ببعثته ﷺ في كتبهم وعلى لسان جميع الرسل.

أولاً: بشارات الأنبياء بنبوة محمد ﷺ.

بشرى في دعوة إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٩].

وبشرى عيسى عليه السلام، قالت تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف:٦].

وقال الصحابة -رضي الله عنهم-: يا رسول الله! أخبرنا عن نفسك قال ﷺ: «نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى عليه السلام ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام»(١).

عباد الله! فذكره ﷺ دعوة إبراهيم -عليه السلام- الذي تنسب إليه العرب، ثم بشرى عيسى الذي هو خاتم أنبياء بني إسرائيل يدل هذا على أن من بينهما من الأنبياء بشروا به أيضاً، وقد أخبرنا الله بذلك في كتابه فقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (١٥٤٥)، «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٦)، وقد مضى (ص٣٦).

ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران:٨١].

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: «ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق: لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه»(١). وفي هذا دليل يا عباد الله! أن جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بشروا برسولنا ﷺ وأمروا باتباعه»(٢).

ثانياً: بشارات الكتب السماوية بنبوة محمد ﷺ.

أخبرنا الله -عز وجل- في كتابه أن محمداً ﷺ بشر به في التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:١٥٧].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ

(١) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص٥٢).
(٢) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص٥٢).

فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح:٢٩].

ومن الأمثلة على ذلك: أن محمداً ﷺ بشر به في التوراة والإنجيل:

١. عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل؛ والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي! إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء؛ بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً»[1].

ولكن لماذا لم يؤمنوا به؟ حسداً من عند أنفسهم.

٢. دخل النبي ﷺ على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها، يعزي بها على نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجملهم، فقال رسول الله ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة؛ هل تجدني في كتابك ذا، صفتي ومخرجي؟» فقال برأسه هكذا؛ أي: لا. فقال ابنه: أي والذي أنزل التوراة؛ إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال ﷺ: «أقيموا اليهودي عن أخيكم» ثم ولي كفنه

---

(١) «صحيح البخاري» (رقم٢١٢٥)، «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص٧٧).

والصلاة عليه[1].

الشاهد: أن هذا الفتى في اللحظات الأخيرة قال: إي والله إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك ولكن كتموا ذلك حسداً وبغياً.

٣. وعن عوف بن مالك الأشجعي قال: انطلق النبي ﷺ يوماً وأنا معه، حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيد لهم، فكرهوا دخولنا عليهم فقال ﷺ لهم: «يا معشر اليهود! أروني اثني عشر رجلاً يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ يحط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليهم»، قال: فاسكتوا ما أجابه منهم أحدٌ! ثم رد عليهم، فلم يجبه منهم أحد فقال ﷺ: «أبيتم! فوالله، إني لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا النبي المصطفى، آمنتم أو كذبتم» ثم انصرف وأنا معه، حتى إذا كدنا أن نخرج، فإذا رجل من خلفنا يقول: كما أنت يا محمد! فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله؛ ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله منك ولا أفقه منك، ولا من أبيك قبلك، ولا من جدك قبل أبيك. قال: فإني أشهد له بالله أنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة. فقالوا: كذبت! ثم ردوا عليه قوله، وقالوا فيه شراً، فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم، لن يقبل قولكم، أما آنفاً فتثنون عليه من الخير ما أثنيتم، وأما إذ آمن فكذبتموه وقلتم فيه ما قلتم، فلن يقبل قولكم»، قال: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله ﷺ، وأنا،

---

(١) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص٧٣).

وعبدالله بن سلام وأنزل الله تعالى فيه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الأحقاف:١٠][1].

الشاهد يا عباد الله! أن عبدالله بن سلام علم من التوراة أن هذه الصفات التي جاء بها محمد ﷺ موجودة عندهم في التوراة، فلما وجدها في رسول الله ﷺ آمن وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وخرج مع رسول الله ﷺ فالحمد لله على نعمة الإسلام والسنة.

ثالثاً: بشارات علماء أهل الكتاب بنبوة محمد ﷺ

الله عز وجل يخبرنا بذلك في كتابه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص:٥٢-٥٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة:١٤٦] وقال تعالى عن القسيسين والرهبان: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المائدة:٨٣-٨٤].

---

(١) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (٨٠-٨١).

ومن الأمثلة على ذلك:

١. سلمان الفارسي ﷺ أخبر في قصة إسلامه الطويلة:

أنّ راهب النصارى عندما حضرته الوفاة طلب منه سلمان أن يوصيه، فقال الراهب: أي بني والله ما أعلمه بقي أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبيٌّ يُبعث من الحرم، مهاجره بين حرتين إلى أرض سبخة ذات نخل، وإن فيه علامات لا تخفى، بين كتفيه خاتم النبوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة فإن استطعت أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل فإنه قد أظلك زمانه».

ثم قص سلمان خبر قدومه إلى المدينة واسترقاقه، ولقائه برسول الله حين الهجرة، وإعطاءه له طعاماً على أنه صدقة فلم يأكل منه الرسول، ثم إعطاءه له طعاماً على أنه هدية وأكله منه، ثم رؤيته خاتم النبوة بين كتفيه وإسلامه على أثر ذلك»[1].

٢. وقال هرقل ملك الروم: فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم إني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه»[2].

٣. وقال رجال من الأنصار: «إن مما دعانا إلى الإسلام -مع رحمة الله تعالى

---

(١) «السيرة النبوية الصحيحة» العمري (ص١٢٢)، و«صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص٧٠).

(٢) رواه البخاري (٧).

وهداه لنا- لما كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك أصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن؛ نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسول الله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة:٨٩][1].

٤. قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة قال لي: هل تدري عمّ كان إسلام ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعيد، وأسد بن عبيد؟ -نفر من بني هدل إخوة بني قريظة؛ كانوا معهم في جاهليتهم، ثم كانوا سادتهم في الإسلام- قال: قلت: لا والله. قال: فإن رجلاً من اليهود من أرض الشام يقال له: ابن الهيِّبان قدم علينا قبل الإسلام بسنين، فحلّ بين أظهرنا، لا والله؛ ما رأينا رجلاً قط لا يصلي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا، فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا له: اخرج يا ابن الهيبان! فاستسق لنا. فيقول: لا والله؛ حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة.

---

(١) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص٥٧).

فنقول: كم؟ فيقول: صاعاً من تمر، أو مدين من شعير. قال: فنخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستسقى لنا، فوالله؛ ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ويسقى. قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث.

قال: ثم حضرته الوفاة عندنا، فلما عرف أنه ميت قال: يا معشر يهود! ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قال: قلنا: أنت أعلم. قال: فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكف[1] خروج نبي قد أظلكم زمانه، هذه البلدة مهاجرة، فكنت أرجو أن يبعث فاتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا تسبقن إليه يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء وسبي الذراري ممن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه.

فلما بعث رسول الله ﷺ، وحاصر بني قريظة؛ قال هؤلاء الفتية -وكانوا شباباً أحداثاً-: يا بني قريظة! والله، إنه للنبي الذي عهد إليكم فيه ابن الهيبان. قالوا: ليس به. قالوا: بلى والله؛ إنه لهو بصفته. فنزلوا فأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم[2].

عباد الله! أخبار وأدلة كثيرة تبشر برسولنا ﷺ، أردنا أن نذكر بها قبل أن نتكلم عن مرحلة بدء الوحي والبعثة التي يُبعث فيها النبي ﷺ، لتزدادوا إيماناً مع إيمانكم، ولتعلموا أن دينكم هو الحق، وأن رسولكم هو الحق، فتتمسكوا بدينكم وبسنة نبيكم، ولتثبتوا عند الفتن.

---

(١) أي: أتوقع وأنتظر.

(٢) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (٦٠-٦١).

فيا عباد الله! احمدوا الله أن جعلكم من المسلمين، فعزتكم في دينكم، وإن طلبتم العزة بغير الإسلام أذلكم الله.

فقد قال عمر ﷺ: كنا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام فلو ابتغينا العزة بغير الإسلام أذلنا الله.

اللهم رد المسلمين إلى دينهم رداً جميلاً.

الخطبة الثامنة

إشراق شمس النبوة

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ.

وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن إشراق شمس النبوة؛ عن مرحلة بدء الوحي.

أمة الإسلام! رسولنا ﷺ يقترب سنه من الأربعين سنة، وكان ﷺ قبل البعثة يسلم عليه الحجر والشجر والجبال.

عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسَلِّم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»[١].

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: «كنا مع رسول الله ﷺ بمكة، فخرج في بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا جبل إلا قال: السلام عليك يا رسول الله!».

وفي رواية: «لقد رأيتني أدخل معه الوادي، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليكم يا رسول الله! وأنا أسمعه»[٢].

عباد الله! رسولنا ﷺ قبل البعثة كان يحب الخلاء والعزلة والانفراد عن قومه؛ لما يراهم عليه من الضلال المبين من عبادة الأوثان والسجود للأصنام وقويت محبته للخلوة عند اقتراب نزول الوحي، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح كل ذلك مقدمات النبوة.

---

(١) رواه مسلم (رقم ٢٢٧٧).

(٢) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص٩٥).

عباد الله! بعث رسول الله ﷺ وعمره أربعون سنة.

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين»[١].

ونزل الوحي على رسولنا ﷺ أول ما نزل يوم الإثنين، فقد سئل ﷺ عن صوم يوم الإثنين فقال: «ذاك يوم ولدت فيه، ويوم أنزل عليّ فيه»[٢].

والمشهور أنه ﷺ بعث في شهر رمضان، واستدل ابن إسحاق على ذلك بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]. وقال ﷺ: «أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لستٍ مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»[٣].

فيا **عباد الله!** رسولنا ﷺ نزل الوحي عليه عندما بلغ أربعين سنة، وكان ذلك في يوم الإثنين من شهر رمضان، والوحي الذي ينزل على رسولنا ﷺ هو الوحي الذي كان ينزل على جميع الأنبياء السابقين.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣].

---

(١) رواه البخاري (٣٩٠٢)، ومسلم (رقم ٢٣٥١).
(٢) رواه مسلم (رقم ١١٦٢).
(٣) «السلسلة الصحيحة» (١٥٧٥).

أمة الإسلام! رسولنا ﷺ هناك في غار حراء يعبد ربه ويخلو وحده.

عباد الله! تعالوا بنا لنستمع إلى قصة بدء الوحي.

عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار (حراء)، فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ قال: ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق:١-٥]. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد -رضي الله عنها- فقال: «زملوني زملوني». فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة -وأخبرها الخبر- «لقد خشيت على نفسي» فقالت خديجة: كلا، أبشر؛ فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت على ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى -ابن عم خديجة- وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل

بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي.

فقالت له خديجة: يا ابن عم! اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي! ماذا ترى! فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس -وهو جبريل عليه السلام- الذي كان ينزل على موسى؛ يا ليتني فيها جذعاً -أي شاباً- ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجي هم؟» فقال: نعم؛ لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي»[1].

عباد الله! أما الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من هذا الحديث فهي كثيرة؛ نقول على سبيل المثال:

أولاً: في الحديث فضل اعتزال أهل الشرك والسوء والمعاصي.

قال -تعالى- حاكياً عن إبراهيم عليه السلام ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم:٤٨-٤٩]، وقال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ﴾ [الدخان:٢١]. وقال ربنا -جل وعلا- لرسوله ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ﴾ [الأنعام:٦٨].

(١) رواه البخاري (رقم ٣، ٤٩٥٣)، انظر «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص٨٥-٨٦).

فعلى المسلم أن يعتزل أهل الشرك والفسوق والعصيان لأنه إن جلس معهم سيتأثر بهم، ولذلك كان لقمان الحكيم يقول لابنه: يا بني! اختر المجالس على عينك، فإن وجدت قوماً يذكرون الله فاجلس معهم، فإن كنت عالماً نفعك علمك، وإن كنت جاهلاً علموك، ولعل الله أن يطلع عليهم برحمة فتصيبك معهم، وإن وجدت قوماً لا يذكرون الله فلا تجلس معهم فإن كنت عالماً لم ينفعك علمك، وإن كنت جاهلاً زادوك غياً ولعل الله أن يطلع عليهم بنقمة فتصيبك معهم.

وقال ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنمٌ يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن»[١].

وسئل ﷺ أيُّ الناس أفضل؟

قال: «مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله» قيل ثم من؟ قال: «رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه»، وفي رواية: «يتقي الله، ويدع الناس من شره»[٢].

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: قلت يا رسول الله! ما النجاة؟ قال ﷺ: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»[٣].

عباد الله! ومن فوائد العزلة.

أولاً: الفراغ للعبادة والفكر، والاستئناس بمناجاة الله -تعالى- عن مناجاة الخلق.

---

(١) رواه البخاري (رقم ١٩).

(٢) متفق عليه رواه البخاري (رقم ٢٧٨٦، ٦٤٩٤)، ومسلم (رقم ١٨٨٨).

(٣) «رياض الصالحين» للنووي رقم (١٥٢٨) تخريج الألباني.

ثانياً: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة وهي أربعة:

أحدها: الغيبة.

ثانيها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثالثها: الرياء.

ورابعها: مسارقة الطبع لما يشاهد من أخلاق الناس وأعمالهم.

ثالثاً: الخلاص من الفتن والخصومات، وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها.

رابعاً: الخلاص من شر الناس من الغيبة وسوء الظن بك والتهمة عليك.

خامساً: أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عنهم.

سادساً: الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقاء ومقاساة أخلاقهم[١].

ثانياً: في الحديث فضل أم المؤمنين خديجة -رضي الله عنها- فهي التي ضربت لنا مثلاً أعلى في الزوجة الصالحة. وكيف أنها مثال للزوجة الصالحة التي تعين زوجها على العبادة، حيث كانت تجهز له الزاد فيأخذه ﷺ ويذهب إلى غار حراء فإن انتهى عاد إليها وتزود مرة أخرى.

وهي التي رفعت عنه الهم والخوف عندما رجع إليها بعد أن نزل عليه الوحي وقال: يا خديجة إني خشيت على نفسي، فقالت له: كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً.

(١) انظر: مقدمة «العزلة» لابن أبي الدنيا، تحقيق الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان.

وهي التي أخذت بزوجها وذهبت إلى ورقة بن نوفل حتى تفرج عن رسول الله ﷺ كربه وتطمئن قلبه أن ما نزل به هو الخير، وهكذا تكون الزوجة الصالحة تعين زوجها على طاعة الله، فإن رجع من عمله مهموماً حزيناً تخفف عنه الهم والحزن.

ثالثاً: في الحديث فضل العلم، وأن الإسلام يدعو إلى العلم من أول لحظة، ففي أول آية نزلت من القرآن على رسول الله ﷺ تحث على العلم وطلب العلم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق:١-٥]، فيجب على المسلم أن يتعلم دينه من الكتاب والسنة، بفهم سلف الأمة؛ لأنه بالعلم الشرعي يميز بين الإيمان والكفر، وبين الشرك والتوحيد، وبين السنة والبدعة، وبين الحلال والحرام.

رابعاً: في الحديث فضل ورقة بن نوفل.

قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا ورقة، فإني رأيت له جنةً أو جنتين»[(١)].

وسئل رسول الله ﷺ عن ورقة بن نوفل فقال: «قد رأيته؛ فرأيت عليه ثياب بياض، أبصرته في بطنان[(٢)] الجنة وعليه السندس»[(٣)].

خامساً: في الحديث بيان سنة من سنن الأمم مع من يدعوهم إلى الله -عز

---

(١) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص٩٤).

(٢) أي في وسط الجنة.

(٣) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص٩٤).

وجل-، وهي التكذيب والإخراج والقتل، وهذا يؤخذ من قول ورقة: ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك.

فقال رسول الله ﷺ «أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت أحدٌ بمثل ما جئت به إلا عودي».

فهذا نوح عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو قومه إلى التوحيد فقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥٩﴾ [الأعراف:٥٩]، فماذا قال له قومه؟ قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٦٠﴾ [الأعراف:٦٠] فاتهموه بالضلال. وقالوا: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ۝٢٥﴾ [المؤمنون:٢٥] فاتهموه بالجنون وقالوا: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ۝١١٦﴾ [الشعراء:١١٦] فهددوه بالرجم.

وهذا إبراهيم عليه السلام قال لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١٦﴾ [العنكبوت:١٦]، فماذا قالوا له؟ قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٢٤﴾ [العنكبوت:٢٤].

وهذا لوط عليه السلام، نهى قومه عن الفاحشة فماذا قالوا له: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾ [النمل:٥٦].

وقالوا لرسولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء:١٦٧].

وهذا شعيب عليه السلام يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٨٥]، فماذا قالوا له: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف:٨٨].

عباد الله! فهذه سنة من سنن الأمم الكافرة مع رسلهم ومع الدعاة في كل زمان ومكان.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [إبراهيم:١٣] وقال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ:٣٤-٣٥].

إنها السنن فها هم الكفار في كل زمان ومكان؛ إن وجدوا قوماً يدعون الناس إلى الإسلام الحق وقفوا في وجوههم وكذبوهم، وقاتلوهم وأخرجوهم من بلادهم، فلا تتعجبوا من ذلك يا عباد الله! فهي معركة بين الحق والباطل، ولكن أخبرنا الله -عز وجل- بأن العاقبة للمتقين، وأن النصر للصالحين، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ

رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ [غافر:٥١].

اللهم رد المسلمين إلى دينك رداً جميلاً.

الخطبة التاسعة

مرحلة الدعوة إلى الله

المرحلة الأولى: الدعوة إلى الله سراً

أيها الإخوة **عباد الله!** موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن المرحلة الأولى من مراحل الدعوة إلى الله تعالى ألا وهي المرحلة السرية في مكة.

عباد الله! في الجمعة الماضية تبين لنا أن الوحي نزل على رسولنا ﷺ بغار حراء وقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق:١-٥].

ولما ذهب رسولنا ﷺ إلى ورقة بن نوفل وقص عليه الخبر قال له ورقة: هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى، ثم قال له ورقة: ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، قال ﷺ: «أو مخرجي هم؟!» قال ورقة: نعم، لم يأت أحدٌ بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي»[١].

«وفتر الوحي»: أي تأخر مدةً من الزمان، ولا يعلم على وجه التحديد كم دامت مدة انقطاع الوحي ولكن يبدو أنها لم تدم طويلاً، فقد روى ابن سعد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- ما يفيد أنها كانت أياماً[٢].

---

(١) رواه البخاري (رقم ٣).
(٢) «فتح الباري» (١/ ٢٧)، (١٢/ ٣٦٠).

عباد الله! وتأخر الوحي عن رسول الله ﷺ ليذهب عنه ما كان وجده من الروع وليحصل له التشوق إلى العود[١]، فلما حصل له ذلك، وأخذ يترقب مجيء الوحي، جاءه جبريل للمرة الثانية، فعن جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي قال: «بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بـ(حراء) جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر:١-٥]، فحمى الوحي وتتابع»[٢]، أي حمى الوحي وتتابع في النزول على رسول الله ﷺ.

عباد الله! بالوحي الأول: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢..﴾ ثبتت النبوة لرسولنا ﷺ.

وبالوحي الثاني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢..﴾ ثبتت الرسالة لرسولنا ﷺ.

أي: بالوحي الأول كان نبياً، وبالثاني كان رسولاً.

عباد الله! وقبل أن نتكلم عن المرحلة الأولى من مراحل الدعوة إلى الله تعالى ألا وهي المرحلة السرية، تعالوا بنا لنتعرف على أقسام الوحي، ومراتب الوحي الذي هو مصدر الرسالة ومدد الدعوة.

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤).

فالله -عز وجل- قال لرسوله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة:٦٧]، والذي نزل إلى رسولنا ﷺ -ليبلغه إلى الناس- هو الوحي الذي جاءه من الله -تبارك وتعالى- بواسطة جبريل عليه السلام.

قال ابن القيّم -رحمه الله- وهو يذكر مراتب الوحي:

أحدها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه كما قال النبي ﷺ: «إن روح القدس[1] نفث في روعي[2] أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته»[3].

الثالثة: أنه كان يتمثل له الملك رجلاً، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً، كما في حديث جبريل عليه السلام، عندما سأل النبي ﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، وكان في صورة رجل، فلما ولى قال ﷺ: «يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

---

(١) أي جبريل عليه السلام.

(٢) أي في نفسي.

(٣) صحيح بشواهده، انظر «صحيح الجامع» (٢٠٨١).

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس. وكان أشده عليه، فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض -إذا كان راكبها- ولقد جاءه الوحي مرة كذلك، وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضُّها[1].

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه. وهذا وقع له مرتين، كما ذكر الله ذلك في سورة النجم.

السادسة: ما أوحاه الله -وهو فوق السماوات- ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران عليه السلام.

عباد الله! نزل الوحي على رسولنا ﷺ في المرة الثانية يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ [المدثر:١-٥]، وفي هذه الآيات يأمر ربنا -جل وعلا- رسوله ﷺ أن يقوم بدعوة الناس إلى الله -عز وجل-.

عباد الله! أسئلة تدور في الذهن الآن.

من أين يبدأ رسول الله ﷺ دعوته؟

وكيف يبدأ رسول الله ﷺ دعوته؟

---

(١) انظر الأدلة في «زاد المعاد» (ص٧٩، ٨٠).

وإلام يدعو رسول الله ﷺ الناس؟

هل يبدأ رسول الله ﷺ دعوته بقلب نظام الحكم في مكة، ثم بعد ذلك يدعو الناس إلى الله تعالى؟

أم يبدأ بالبحث عن الوصول إلى المناصب العليا في مكة ثم يقوم من خلالها بدعوة الناس إلى الله تعالى؟ أم أنه يحاول أن يسيطر على اقتصاد مكة ليستطيع من خلاله أن يدعو الناس إلى الله تعالى؟

هل يبدأ رسول الله ﷺ بدعوة الناس لتحرير الأرض من الفرس والروم؟ أم يبدأ بدعوة الناس لتحسين الأوضاع الاقتصادية؟ أم يبدأ بتحريض الناس على ولاة الأمر؟

عباد الله! الجواب:

بدأ رسول الله ﷺ دعوته بالتوحيد، والتحذير من الشرك، كما بدأ الأنبياء قبله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وما من نبي أرسل إلى قومه إلا قال لهم: [يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره]، فبدأ رسولنا ﷺ بدعوة الناس إلى التوحيد، ويحذرهم من الشرك، ويذكرهم بيوم القيامة، ويبين لهم أن في هذا اليوم يبعث الله الخلائق ليحاسبهم على أعمالهم ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾.

وأخذ رسول الله ﷺ يُزكي أصحابه بدعوتهم إلى كل خير قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة:٢].

عباد الله! بدأ رسول الله ﷺ يدعو الناس سراً إلى عبادة الله وحده، وترك

عبادة الأوثان، فدعا إلى عبادة الله؛ القريب والبعيد، والأحرار والعبيد، فآمن به حينئذ كل لبيب نجيب سعيد، واستمر على مخالفته وعصيانه كل جبار عنيد، فكان أول من بادر إلى التصديق من الرجال الأحرار أبوبكر الصديق، ومن الغلمان علي بن أبي طالب، ومن النساء خديجة بنت خويلد زوجته عليه السلام، ومن الموالي مولاه زيد بن حارثه رضي الله عنهم أجمعين.

عباد الله! أخذ رسول الله ﷺ يدعو الناس في مكة إلى الله سراً، لا يصطدم بكفار مكة ولا يتدخل في آلهتهم.

وهذه أمثلة على ذلك:

فهذا عمرو بن عبسة السلمي يخبرنا عن إسلامه فيقول:

«كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً جُرءاء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: أنا نبي. فقلت: وما نبي؟ قال: أرسلني الله. فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء، قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: حرٌ وعبدٌ. قال: ومعه يومئذ أبوبكر وبلال ممن آمن به فقلت: إني متبعك. قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس!! ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني، قال فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكنت في أهلي، فجعلت أتخبر الأخبار وأسأل الناس حين قدم المدينة، حتى قدم علي نفر من أهل يثرب، من أهل المدينة، فقلت: ما فعل الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراع، وقد أراد قومه قتله، فلم يستطيعوا ذلك، فقدمت

المدينة، فدخلت عليه...»[١].

الشاهد يا عباد الله! أن الرسول ﷺ كان في المرحلة الأولى يدعو الناس سراً.

عباد الله! وهذا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يخبرنا عن إسلامه فيقول:

«كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة، فأتى علي رسول الله ﷺ وأبوبكر، وقد فرا من المشركين فقال -أو فقالا-: عندك يا غلام لبن تسقينا؟ قلت: إني مؤتمن ولست بساقيكما.

فقال: هل عندك من جذعةٍ لم ينز عليها الفحل بعد؟ قلت: نعم فأتيتهما بها، فاعتقلها أبوبكر وأخذ رسول الله ﷺ الضرع ودعا فحفل الضرع، وأتاه أبوبكر بصخرة منقعرة، فحلب ثم شرب هو وأبوبكر ثم سقياني. ثم قال للضرع: اقلص فقلص. فلما كان بعد أتيت رسول الله ﷺ. قلت: علمني من هذا القول الطيب -يعني القرآن- فقال رسول الله ﷺ: «إنك غلام معلم»، فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد»[٢].

عباد الله! المرحلة الأولى في مكة في الدعوة إلى الله كانت سرية والسبب في ذلك؛ أن كفار مكة كانوا لا يسمحون لأحد أن يعتدي على آلهتهم، وأن يأتي بدين غير الذي هم عليه، ولذلك بدأ النبي ﷺ بالدعوة سراً.

ولكن في الجمعة القادمة -إن شاء الله- سيتبين لكم أن الله -تبارك وتعالى- يأمر رسوله أن يصدع بالدعوة فيدخل في المرحلة الجهرية.

فكثير من الجماعات التي سلكت طريقاً غير طريق المصطفى ﷺ يبدأون

---

(١) رواه مسلم (رقم ٨٣٢).
(٢) قال الألباني: إسناده حسن «صحيح السيرة النبوية» (ص١٢٤).

دعوتهم المنحرفة سراً ويظنون أنهم بذلك يتأسون برسول الله ﷺ.

نقول لهم: لا، أنتم تعيشون في مجتمع مسلم تستطيعون أن تقولوا «لا إله إلا الله» وتحافظون على الصلاة، وتعلموا الناس دينهم، وتدعون الناس إلى التوحيد لا يمنعكم أحد من ذلك.

عباد الله! ومن الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ مما سمعنا:

١-في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ أنه على الدعاة المخلصين أن يقوموا لهذا الدين فالله سبحانه وتعالى يقول لرسولنا ﷺ: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾.

فعلى الدعاة أن يدعو الناس إلى عبادة الله وإلى عقيدة التوحيد كما بدأ رسول الله ﷺ فكثير من الناس يصلي وهو يشرك بالله، وكثير من الناس يصلي وهو يذهب إلى السحرة والمشعوذين، وكثير من الناس يصلي وهو يخاف ويعتقد أن السحرة والمشعوذين يضرون وينفعون وهذا شرك.

٢-على الدعاة إلى الله أن يكونوا قدوة أمام الناس، فيعملوا بهذا العلم، ويتأسوا برسول الله ﷺ، فحرام على الداعي إلى الله أن يضع آلات اللهو في بيته، وحرام على الداعي إلى الله أن يضع أمواله في البنوك ليرابي بها، وحرام على الداعي إلى الله أن يقول ما لا يفعل.

٣-على الدعاة المخلصين أن يقوموا لهذا الدين ولا يطلبون أجراً من الناس، فأجرهم على الله وأجرهم عند الله، وأن يبدأوا بالعقيدة والتوحيد كما بدأ النبي ﷺ.

اللهم رد المسلمين إلى دينك رداً جميلاً.

الخطبة العاشرة

مرحلة الدعوة إلى الله

المرحلة الثانية: الدعوة إلى الله جهراً

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء، سيكون عن المرحلة الثانية من مراحل الدعوة إلى الله تعالى؛ ألا وهي المرحلة الجهرية.

عباد الله! رسول الله ﷺ في مكة يدعو الناس سراً، وبقي على ذلك حتى أمره الله أن يجهر بدعوته.

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء:٢١٤] صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي -لبطون قريش- حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً، لينظر ما هو، فجاء أبولهب وقريش، فقال النبي ﷺ: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً فقال ﷺ: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبولهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾[1].

والتب هو: الهلاك والخسران.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (رقم ٤٧٧٠)، ومسلم (رقم ٢٠٨).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء:٢١٤] دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا، فعم وخص. فقال: «يا بني كعب بن لؤي! أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني مرة بن كعب! أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبدالمطلب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة! أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، قام رسول الله ﷺ على الصفا فقال: «يا فاطمة بنت محمد! يا صفية بنت عبدالمطلب! يا بني عبدالمطلب! لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم»[2].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء:٢١٤]، يا معشر قريش! اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبدالمطلب! لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبدالمطلب! لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت رسول الله! سليني بما شئت، لا أُغني عنك من الله شيئاً»[3].

فهذه دعوة جهرية من رسول الله ﷺ للجميع أن يؤمنوا بالله تبارك وتعالى وحده.

---

(١) رواه مسلم (رقم ٢٠٤).

(٢) رواه مسلم (٢٠٥).

(٣) رواه البخاري (رقم ٢٧٥٣) ومسلم (٢٠٦).

ومضى رسول الله ﷺ يبلغ رسالة ربه جهراً، وأخذ ﷺ يدعو الناس إلى عبادة الله في كل مكان، ويبدأ يجهر بصلاته وقراءة القرآن أمام الكفار، وأخذ الضعفاء والمساكين يؤمنون بالله -عز وجل-، ويتبعون رسول الله ﷺ على هذا الدين الذي بعثه الله به، وأخذوا يزدادون يوماً بعد يوم.

عباد الله! وممن أسلم في مرحلة الدعوة الجهرية في مكة أبو ذر الغفاري رضي الله عنه.

ويؤخذ من الروايات الصحيحة أن أبا ذر رضي الله عنه كان منكراً لحال الجاهلية، يأبى عبادة الأصنام، وينكر على من يشرك بالله وكان يصلي لله قبل إسلامه بثلاث سنوات دون أن يخص قبلة بعينها بالتوجه، ويبدو أنه كان متأثراً بالأحناف، ولما سمع بالنبي ﷺ قدم إلى مكة، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه الليل، فاضطجع فرآه علي رضي الله عنه فعرف أنه غريب، فاستضافه ولم يسأله عن شيء، ثم غادره صباحاً إلى المسجد الحرام فمكث حتى أمسى، فرآه علي فاستضافه لليلة ثانية وحدث مثل ذلك في الليلة الثالثة، ثم سأله عن سبب قدومه فلما استوثق منه أبوذر، أخبره بأنه يريد مقابلة رسول الله ﷺ فقال له علي: «فإنه حق وهو رسول الله، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني، فتبعه، وقابل الرسول ﷺ واستمع إلى قوله فأسلم، فقال له النبي ﷺ «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري» فقال: والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وثار القوم فضربوه حتى أضجعوه»، فأتى العباس بن عبدالمطلب فحذرهم من انتقام غفار، والتعرض لتجارتهم التي تمر بديارهم إلى الشام فأنقذه منهم»[1].

---

(١) متفق عليه رواه البخاري (رقم ٣٥٢٢)، ومسلم (رقم ٢٤٧٤).

عباد الله! اجتمع كفار مكة من أجل التشاور في كيفية صرف الناس عن هذا الدين الجديد، وفي كيفية صرف محمد ﷺ نفسه عن هذه الدعوة الجديدة، فزينت لهم شياطين الإنس والجن أساليب كثيرة منها:

السخرية والاستهزاء والتحقير والتضحيك بالنبي ﷺ وأصحابه، القصد بذلك تخذيل المسلمين وتوهين قواهم المعنوية وصد الناس عن الدين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنبياء:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الفرقان:٤١-٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾، فالله -عز وجل- يعاقب الكفار بجنس ما فعلوا يوم القيامة فقال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين:٢٩-٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ

تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون:١٠٣-١١١].

ومنها: إثارة الشكوك والشبهات حول النبي ﷺ نفسه ليصدوا الناس عن هذا الدين، فتارة يتهمون رسول الله ﷺ بالجنون، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر:٦]. وقال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ [القلم:٥١]. فرد الله عليهم هذه الفرية. فقال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير:٢٢]. وقال تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم:١-٢].

وتارة يتهمونه بالسحر والكذب والشعر والكهانة، قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ [ص:٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِى فِى ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان:٧- ٨]، فرد الله عليهم هذه الافتراءات بقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٌ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ [الحاقة:٣٨-٥١].

عباد الله! أخذ كفار مكة يتهمون رسول الله ﷺ بالاتهامات الكاذبة ليصدوا الناس عن الإيمان به، وجاء رجل إلى مكة فسمعهم يقولون عن محمد ﷺ إنه مجنون، فذهب إلى رسول الله ﷺ ليرقيه، فلما جلس عند النبي ﷺ وسمع كلامه آمن به واتبعه.

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «قدم ضماد مكة -وكان من أزد شنوءة- وكان يرقي[١] من هذه الريح[٢]، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمداً مجنون. فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي قال: فلقيه؛ فقال: يا محمد! إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء. فهل لك[٣]؟

فقال رسول الله ﷺ: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله أما بعد:»

فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء. فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء. ولقد بلغهن ناعوس البحر[٤].

فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه.

(١) من الرقية وهي العوذة التي يرقي بها صاحب الآفة.
(٢) المراد بالريح، هنا، الجنون ومس الجن.
(٣) أي فهل لك رغبة في رقيتي، وهل تميل إليها.
(٤) أي وسطه ولجته.

فقال رسول الله ﷺ: «وعلى قومك» قال: وعلى قومي، فبعث رسول الله ﷺ سرية فمروا بقومه. فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟

فقال رجل من القوم: أصبت منهم مطهرة.

فقال: ردوها. فإن هؤلاء قوم ضماد»[1].

انظروا عباد الله! أرادوا أن يصدوا الناس عن رسول الله باتهامه أنه مجنون، فكان ذلك سبب أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً.

عباد الله! أما الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ مما سمعنا فهي كثيرة منها:

أولاً: لا مجال للسرية والكتمان والخفاء في الدعوة إلى الله تعالى، وذلك بعد أن أنزل الله -عز وجل- على رسوله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر:٩٤]، فالله -عز وجل- أظهر دينه وأعلى كلمته وعرف الإسلام، وأرسيت قواعده ومبادئه، وعرفها القاصي والداني، وسمع بها القريب والبعيد، فلا مجال للسرية، ولا مجال للكتمان، ولا مجال للخفاء.

وكان السلف الصالح -رضوان الله عليهم- ينكرون السرية ويعيبونها وأهلها الذين يسرون بدعوتهم ويدعون الناس بين الجدران في ظلام الليل، فديننا ليس فيه شيء للخواص وشيء للعوام، إنما الإسلام يدعو الناس

---

(١) رواه مسلم (رقم ٨٦٨).

جميعاً أن يكونوا عباداً لله، فمن دعاك إلى العقيدة الصحيحة فأجبه، ومن دعاك إلى درس علم في بيت الله فأجبه، ومن دعاك إلى اجتماع في ظلمة الليل، وأخبرك أن هذا خاص لا يجوز أن تنقله إلى العوام؛ فلا تجبه، فإنه حزبي مبتدع.

عن عمر بن عبدالعزيز ﷺ قال: «إذا رأيت قوماً يتناجون بأمر دون العامة فهم على تأسيس الضلالة».

ولما مدح أبوالفرج ابن الجوزي السنة وأهلها وذم البدعة وأهلها قال: «فبان بما ذكرنا أن المبتدعة هم الذين يقولون شيئاً لا يعرف من قبل ولا مستند له ولهذا أسروه وكتموه، وأما أهل السنة فقولهم مشهور وطريقتهم ظاهرة ولهم العاقبة بإذن الله تعالى»(١).

كيف لا والله -عز وجل- يقول في كتابه لرسوله ﷺ ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

والنبي ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»(٢).

ثانياً: أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، فالرسول ﷺ يقول لأقرب الناس له: «يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً»(٣)، فالنسب

---

(١) «تلبيس إبليس» (ص١٧-١٨).

(٢) رواه مسلم (رقم ١٩٢٠).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٧٥٣)، ومسلم (رقم ٢٠٦).

والقرابة لا ينفعان صاحبها يوم القيامة؟ والله -عز وجل- يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾ [المؤمنون:١٠١].

وقال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣﴾ [الممتحنة:٣]. وقال تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ٣٨ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ٤١﴾ [النجم:٣٦-٤١].

وبين لنا ربنا جل وعلا أن الصلات والأنساب والأرحام لا تنفع أصحابها يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم:١٠-١١].

لكن يستثنى من ذلك قرابة ونسب المسلمين، لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى:٢٣] وقوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ [الطور:٢١] ولقوله ﷺ: «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي»[1].

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (٢٠٣٦)، «صحيح الجامع» (رقم ٤٥٦٤).

ثالثاً: المكر السيء لا يحيق إلا بأهله، فالكفار في مكة مكروا برسول الله ﷺ، واتهموه بالجنون ليصدوا الناس عن سبيل الله، فلما قدم ضماد رضي الله عنه إلى مكة قالوا له: إن محمداً مجنون؛ فذهب إليه ليرقيه؛ فلما سمع من النبي ﷺ آمن به واتبعه.

وفي هذا الزمان قد مكر الكفار بالإسلام والمسلمين، يريدون أن يشوهوا صورة الإسلام بوسائل الإعلام، ولكن كان عكس ما أرادوا فلله الحمد والمنة، الناس في هذا الزمان قد أقبلوا على الصلاة أكثر من ذي قبل، وقد أقبل طلاب العلم على دروس العلم، وقد دخل الناس في دين الله أكثر من قبل، ذلك حتى تعلم أيها المسلم أن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله، فهم يمكرون ويكيدون وأنت يا ربنا ماذا تفعل ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝﴾ [الطارق:١٦-١٧]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝﴾ [الصف:٨-٩].

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

الخطبة الحادية عشرة

أسلوب جديد من أساليب كفار مكة

في الصد عن دين الله، ألا وهو أذية قريش لرسول الله ﷺ

أيها الإخوة عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن أسلوب جديد من أساليب كفار مكة في الصد عن دين الله ألا وهو أذية قريش لرسول الله ﷺ.

عباد الله! رسولنا في مكة يدعو الناس إلى دين الله، ويقول لهم: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، والناس يدخلون دين الله، واجتمع كفار مكة للتشاور في كيفية صرف الناس عن هذا الدين الجديد، وفي كيفية صرف محمد ﷺ عن دعوته الجديدة، فزينت لهم شياطين الإنس والجن أساليب منها:

- الاستهزاء والسخرية والتحقير والتضحيك بالرسول ﷺ وأصحابه ولكنهم فشلوا في ذلك.

- ومنها إلقاء الشبهات والشكوك والتهم على رسول الله ﷺ؛ ليصدوا الناس عن الإيمان به، ولكنهم فشلوا في ذلك أيضاً.

فانتقل كفار مكة إلى أسلوب جديد للصد عن دين الله، ألا وهو الاعتداء على رسول الله ﷺ بالقول والفعل والسب والقتل والتخويف، ولذلك قال ﷺ: «لقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد، ولقد أخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت عليّ ثالثةٌ وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد، إلا ما وارى

إبط بلال»(١).

عباد الله! ومن أذية قريش لرسول الله ﷺ بالقول: ما رواه ربيعة بن عباد من بني الديل -وكان جاهلياً فأسلم- قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية في سوق (ذي المجاز) وهو يقول: «يا أيها الناس! قولوا: (لا إله إلا الله) تفلحوا»، والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه، أحول، ذو غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب فسألت عنه؟ فقالوا: هذا عمه أبولهب(٢).

وفي رواية أخرى قال: رأيت رسول الله ﷺ بـ (ذي المجاز) يتبع الناس في منازلهم، يدعوهم إلى الله، ووراءه رجل أحول، تقد وجنتاه، وهو يقول: يا أيها الناس! لا يغرنكم هذا عن دينكم ودين آبائكم، قلت: من هذا؟ قيل: هذا أبولهب(٣).

مثال آخر!

عن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنها- قالت: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾؛ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولةٌ، وفي يدها فهر -أي حجر- وهي تقول: مذمماً أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا، والنبي ﷺ جالس في المسجد ومعه أبوبكر، فلما رآها أبوبكر قال: يا رسول الله! قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك. فقال رسول الله ﷺ: «إنها لن تراني» وقرأ قرآناً، فاعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ

---

(١) «صحيح ابن ماجه» (١٢٣).

(٢) إسناده جيد. انظر «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٤٢-١٤٣).

(٣) إسناده حسن. انظر «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٤٣).

ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء:٤٥]، فوقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر! إني أخبرت أن صاحبك هجاني، فقال: لا ورب هذا البيت، ما هجاك، فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سيدها[١]، وقال ﷺ: «ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم؟!» قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «يشتمون مذمماً، وأنا محمد، ويلعنون مذمماً، وأنا محمد»[٢].

عباد الله! كفار مكة يؤذون رسول الله ﷺ بألسنتهم فهذا يقول: إنه ساحر، وهذا يقول: إنه كاهن، وهذا يقول: إنه كذّاب، وهذا يقول إنه شاعر، والنبي ﷺ يضيق صدره بما يقولون، ويحزن على ما يسمع منهم، وعلى كفرهم وإعراضهم، ولكن الله -عز وجل- ربط على قلبه، فكان الوحي ينزل عليه يواسيه ويعزيه ويسدده ويثبته، ويؤكد له أن العاقبة له:

قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام:٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر:٩٧-٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم

---

(١) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٥٣٣).

مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور:٢٩-٣١]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات:٥٢-٥٥]، فأخبر الله -عز وجل- رسوله ﷺ أن هذا الذي تسمعه من كفار مكة؛ هو الذي تقوله الأمم المكذبة لرسلها من قبل، ولذلك يقول الله -عز وجل- لرسوله ﷺ مواسياً: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [المزمل:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

وعن جندب بن سفيان قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءته امرأة فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى:١-٣][1].

عباد الله! كفار مكة يؤذون رسول الله ﷺ بألسنتهم، ورسول الله ﷺ يبلغ دين الله، ويدعو الناس إلى عبادة الله، ويقول للناس «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، والناس يقبلون على هذا الدين، ويتبعون رسول الله ﷺ فاجتمعت قريش مرةً أخرى للتشاور في كيفية صرف محمد ﷺ عن دعوته، فقرروا أن ينتقلوا من أسلوب الشتم والسب إلى أسلوب أشد، وهو البطش والتعذيب والفتك بالنبي ﷺ، ولذلك قال ﷺ «لقد أخفت في الله وما يخاف

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (رقم ٤٩٥٠)، ومسلم (رقم ١٧٩٧).

أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد»[١].

عباد الله! ومن صور هذا الاعتداء:

عن ابن مسعود ﷺ قال: بينما رسول الله ﷺ يصلى عند البيت وأبوجهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزورٌ بالأمس، فقال أبوجهل: أيكم يقوم إلى سلا[٢] جزور بني فلان فيأخذه فيأتي فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ ساجدٌ ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة فجاءت -وهي جويرية- فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته رفع صوته، ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً، ثم قال: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش» فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته، ثم قال: «اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد».

قال ابن مسعود: فلقد رأيتهم صرعى (أي قتلى يوم بدر) ثم سحبوا إلى القليب؛ قليب بدر»[٣].

---

(١) «صحيح ابن ماجه» (رقم ١٢٣).

(٢) هو الذي يخرج مع ولد الناقة كالمشيمة لولد المرأة.

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٤٠)، ومسلم (رقم ١٧٩٤)، واللفظ لمسلم عدا ذكر عمارة بن الوليد.

ثم قال ﷺ: «واتبع أصحاب القليب لعنة»[١]، وقام عليهم يناديهم: «يا فلان! يا فلان! لقد وجدتُ ما وعدني ربي حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً». قال أصحابه: يا رسول الله أتخاطب أقواماً قد جُيِّفوا. فقال ﷺ: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، إلا أنهم لا يملكون جواباً».

أسمعهم الله -عز وجل- توبيخ رسول الله ﷺ[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبوجهل: هل يُعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ -أي يسجد ويلصق وجهه بالتراب- فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى! لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرنَّ وجهه في التراب.

فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي. زعم ليطأ على رقبته فما فجئهم -أي بغتهم- فيه إلا وهو ينكص على عقبيه -أي: رجع يمشي إلى ورائه- ويتقي بيديه، فقيل له: ما لك؟

فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة.

فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً».

فأنزل الله -عز وجل-: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ

(١) رواه البخاري (رقم ٢٤٠).
(٢) رواه مسلم (رقم ٢٨٧٣).

وَٱقۡتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق:٦-١٩][١].

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: مر أبوجهل بالنبي ﷺ وهو يصلي، فقال: ألم أنهك أن تصلي يا محمد! فانتهره النبي ﷺ، فقال له أبوجهل: لم تنهرني يا محمد! فوالله لقد علمت ما بها أحدٌ أكثر نادياً مني. فقال جبريل: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [العلق:١٧-١٨]. فقال ابن عباس: والله؛ لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب[٢].

عباد الله! إيذاء واعتداء من كفار مكة على رسول الله ﷺ، ويا ليت الأمر توقف عند ذلك ولكنهم قرروا أن يقتلوا رسول الله ﷺ.

عن عروة بن الزبير أنه قال: قلت لعبدالله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً. فأقبل أبوبكر رضي الله عنه فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله ﷺ وقال: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ [غافر:٢٨][٣].

عباد الله! وحزن النبي ﷺ حزناً شديداً؛ لما يفعله كفار مكة من الاعتداءات عليه وعلى أصحابه، فما كان الله ليتركه حزيناً بل أراه من الآيات وخوارق العادات ما ربط على قلبه وثبته.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ ذات يوم وهو جالس حزيناً، قد خضب بالدماء؛ ضربه بعض أهل مكة، فقال له:

---

(١) رواه مسلم (رقم ٢٧٩٧).

(٢) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٤٤).

(٣) رواه البخاري (رقم ٤٨١٥).

مالك؟ فقال له: «فعل بي هؤلاء وفعلوا». فقال جبريل عليه السلام «أتحب أن أريك آية؟ قال: «نعم» قال: فنظر إلى شجرة من وراء الوادي، فقال: ادع بتلك الشجرة فدعاها، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه. فقال: مرها فلترجع. فأمرها فرجعت إلى مكانها. فقال رسول الله ﷺ: «حسبي»[1].

ومضى رسول الله ﷺ يبلغ رسالة ربه، ويدعو الناس إلى دين الله صابراً محتسباً، واقفاً عند أمر ربه ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الزخرف:٨٩].

عباد الله! رسولنا ﷺ على خلق عظيم كما شهد له ربه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾، فقد كان كفار مكة يعتدون عليه بالسب والشتم والضرب، ومع ذلك كان لا ينتقم لنفسه أبداً، بل جاءه ملك الجبال وقال له: يا محمد لقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك، فإن شئت أطبقت عليهم الأخشبين (أي الجبلين) فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً»[2].

رسول كريم، إنها أخلاق النبوة، ويجب على الدعاة أن يتأسوا برسول الله ﷺ في الصبر على أذى الكفار، وأن يمضوا في الدعوة إلى هذا الدين العظيم.

عباد الله! تعالوا بنا لننظر إلى هذا الخلق العظيم من رسول الله ﷺ وكفار مكة يجمعون عليه الإيذاء بالقول والفعل، ومع ذلك فهو يعفو ويصفح.

عن عروة قال: قلت لعبدالله بن عمرو بن العاصي: ما أكثر ما رأيت

---

(١) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٣٨).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٢٣١)، ومسلم (رقم ١٧٩٥).

قريشاً أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهره من عداوته؟

فقال: لقد رأيتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط؛ سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، وصرنا منه على أمر عظيم.

قال: فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفاً بالبيت، فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، فمضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفتها في وجهه، فمضى، فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فقال: أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح»، فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم من رجل إلا وكأنما على رأسه طائر وقع حتى إن أشدهم فيه وصاةً قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف أبا القاسم! راشداً، فوالله ما كنت جهولاً. فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان في الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا بدأكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول: كذا وكذا؟ لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله ﷺ: «نعم، أنا الذي أقول ذلك».

ولقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع ردائه، وقام أبوبكر يبكي دونه ويقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر:٢٨]؟! ثم انصرفوا عنه[١].

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قلت: يا رسول الله! هل أتى

---

(١) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٤٨).

عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟

فقال ﷺ: «لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيته منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا سحابةٌ قد أظلتني، فنظرت فيها فإذا جبريل عليه السلام فناداني فقال: يا محمد إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك. فما شئت؛ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين (أي الجبلين)!

فقال ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً»[1].

الله أكبر، إنها أخلاق النبوة، إنه العفو والصفح، فهكذا يا دعاة الإسلام تعلموا الصبر، وأقبلوا على الله -عز وجل-، وادعوا الناس إلى هذا الدين بالحكمة والموعظة الحسنة، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران:١٥٩-١٦٠].

اللهم رد المسلمين إلى دينك رداً جميلاً.

---

(١) متفق عليه تقدم قريباً.

الخطبة الثانية عشرة

أذية قريش لأصحاب رسول الله ﷺ

أيها الإخوة **عباد الله!** موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ.

وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن أسلوب جديد من أساليب الصد عن دين الله ألا وهو أذية قريش لأصحاب رسول الله ﷺ.

عباد الله! رسولنا ﷺ في مكة يدعو الناس جهراً إلى (لا إله إلا الله) وإلى عبادة الله، ويحذرهم من الشرك، وكفار مكة يعملون بالليل والنهار؛ ليصدوا الناس عن هذا الدين الجديد، فهم ينتقلون من أسلوب إلى أسلوب؛ لمنع الناس من الدخول في هذا الدين الجديد.

عباد الله! بيّنا في الجمعة الماضية كيف اعتدوا على رسول الله ﷺ ليصدوه عن دعوته الجديدة ولكنهم فشلوا في ذلك.

وها هم ينتقلون إلى أسلوب جديد ألا وهو الاعتداء على أصحاب رسول الله ﷺ ليصدوهم عن هذا الدين الجديد.

عباد الله! تعالوا بنا لنستمع إلى صور من الاعتداءات على أصحاب رسول الله ﷺ في مكة.

أولاً: عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كان أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبوبكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبوبكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، وألبسوهم أدرع الحديد،

وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا؛ إلا بلالاً؛ فإنه هانت عليه نفسه في الله تعالى، وهان على قومه، فأخذوه، فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب (مكة) وهو يقول: أحد أحد»[١].

ثانياً: عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ مر بعمار وأهله وهم يعذبون، فقال: «أبشروا آل عمار وآل ياسر فإن موعدكم الجنة»[٢].

عباد الله! وفي عمار بن ياسر ﷺ ومن مثله أنزل الله -عز وجل-: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل:١٠٦]، فهؤلاء كانوا معذورين بما حصل لهم من الإهانة والعذاب البليغ[٣].

ثالثاً: وعن عبدالرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً، فمرّ به رجل، فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ، والله، لوددنا أنا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت، فاستغضب، فجعلت أعجب! ما قال إلا خيراً! ثم أقبل إليه فقال: ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيبه الله عنه، لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه!؟ والله؛ لقد حضر رسول الله ﷺ أقوامٌ أكبهم الله على مناخرهم في جهنم، لم يجيبوه ولم يصدقوه، أولا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم، مصدِّقين لما جاء به نبيكم، قد كفيتم البلاء بغيركم؟! والله؛ لقد بعث الله

---

(١) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٥٤).
(٢) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٥٤).
(٣) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٥٥).

النبي ﷺ على أشد حال بُعث عليها فيه نبي من الأنبياء في فترة وجاهلية؛ ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل، وفرق بين الوالد وولده، حتى أن الرجل ليرى والده وولده أو أخاه كافراً، وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان- يعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار، وأنها للّتي قال الله -عز وجل- ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان:٧٤] [١].

الشاهد من كلام المقداد، أنه طلب من الرجل أن يحمد الله -عز وجل-، فإنه كان في أول الإسلام من الناس من رأى رسول الله ﷺ وشهده، ومع ذلك لم يتبع رسول الله ﷺ، ولم يجبه وأكبهم الله على مناخرهم في النار، ومن الناس من تعرض للبلاء بسبب إيمانه فيقول لهم (احمدوا الله) بأنكم لم تتعرضوا للبلاء الذي تعرضنا له في أول الإسلام.

رابعاً: وعن قيس بن أبي حازم -رحمه الله- قال: «سمعت سعيد بن زيد في مسجد الكوفة يقول: «والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي على الإسلام قبل أن يسلم عمر»[٢].

وقوله (وإن عمر لموثقي على الإسلام): أي: إن عمر ﷺ ربطه بسبب إسلامه، إهانة له، وإلزاماً بالرجوع عن الإسلام، وكان ذلك قبل إسلام عمر.

شدة.. عذاب.. ابتلاء لا يعلمه إلا الله.

---

(١) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٤٠).

(٢) رواه البخاري (رقم ٣٨٦٢).

خامساً: وعن خباب بن الأرت ﷺ قال:

«كنت قيناً(١) بـ(مكة)، فعملت للعاصي بن وائل سيفاً، فجئت أتقاضاه فقال: لا والله؛ لا أقضيك حتى تكفر بمحمد! فقلت: لا والله؛ لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث قال: فإني إذا مت ثم بعثت؛ جئني ولي ثم مال وولد فأعطيك، فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠﴾ [مريم:٧٧-٨٠](٢).

سادساً: وعن أبي ليلى الكندي قال: جاء خباب إلى عمر فقال: «ادن، فما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا عمار. فجعل خباب يريه آثاراً بظهره مما عذبه المشركون»(٣).

سابعاً: وعن خباب بن الأرت ﷺ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردةً في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيُجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله لُيتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»(٤).

عباد الله! في هذا الحديث دروس وعظات وعبر منها:

---

(١) القين: هو الحداد والصائغ (نهاية).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٩٠١)، ومسلم (رقم ٢٧٩٥).

(٣) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٥٧).

(٤) رواه البخاري (رقم ٦٩٤٣).

أولاً: الابتلاء سنة من سنن الله في هذا الكون ليميز الله الخبيث من الطيب، وليمحص الله الذين آمنوا، ويمحق الكافرين.

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٢-٣]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ۝﴾ [البقرة:٢١٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝﴾ [الأحزاب:٩-١١]، وقال تعالى: ﴿۞لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾ [آل عمران:١٨٦].

عباد الله! ومن فوائد الابتلاء تمحيص المؤمنين ومحق الكافرين ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾ [الأنفال:٤٢].

ولذلك قال تعالى للمؤمنين الصادقين: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ

ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ [آل عمران:١٣٩-١٤٢].

عباد الله! من أجل ذلك ربى النبي ﷺ أصحابه وأمته على الصبر على البلاء، فقال لخباب بن الأرت ﷺ: «قد كان من كان قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه».

تربية على الصبر على البلاء.

وكان ﷺ يمر على أصحابه وهم يعذبون فيقول لهم: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»[(١)].

الصبر وعدم الاستعجال هو طريق النصر.

ولذلك بعد أن ربى النبي ﷺ أصحابه على الصبر على البلاء؛ بأن ضرب لهم مثلاً بالمسلمين الأولين من الأمم السابقة، وما نالهم من التعذيب؛ ليكونوا أسوة لهم، وبعد أن بشرهم بأن النصر والتمكين والعاقبة لهم، حذر النبي ﷺ أصحابه من الاستعجال «لأن من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه».

ولذلك قال النبي ﷺ لخباب بن الأرت: «ولكنكم تستعجلون».

وقال ﷺ لابن عباس -رضي الله عنهما-: «واعلم أن النصر مع الصبر»[(٢)].

---

(١) صحيح، انظر تعليق الشيخ الألباني على «فقه السيرة» (ص١٠٧).

(٢) هو قطعة من حديث: «احفظ الله يحفظك»، انظر «رياض الصالحين» (رقم ٦٣) بتحقيق الشيخ الألباني -رحمه الله-.

عباد الله! وبالصبر وعدم الاستعجال أمر الله رسوله ﷺ كما أمر الأنبياء من قبله.

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف:٣٥]، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ [مريم:٨٣-٨٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [غافر:٧٧].

عباد الله! الصبر وعدم الاستعجال هو الطريق إلى النصر والتمكين في الأرض، أما الطرق العوجاء التي ابتدعها دعاة الاستعجال، فهي لا تسمن ولا تغني من جوع وهي لا تزيد المسلمين إلا ضعفاً.

س: هل يجوز للمسلم أن يطلب البلاء ويحرص عليه ويسعى إليه؟

كثير من الشباب يظنون أنهم إذا صعدوا المنابر، وإذا وقفوا في الأسواق أمام الناس، وسبوا على الحكام وعلى أولياء الأمور، وأخذوا ووضعوا في السجون، يظنون أنهم بذلك قد خدموا الدين، ودل ذلك على كمال إيمانهم.

الجواب: لا، لا يجوز للإنسان أبداً أن يسعى إلى البلاء، وأن يتعرض للبلاء، لأنه لا يدري إذا نزل به البلاء أيثبت على دينه أم لا، لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك.

لقي النبي ﷺ العدو في بعض أيامه فانتظر حتى إذا مالت الشمس قام فخطب في أصحابه فقال: «أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا»[1].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (رقم ٢٩٦٦)، ومسلم (رقم ١٧٤٢).

وعن أبي بكر ﷺ أنه قام يوماً على المنبر ثم بكى ثم قال: قام رسول الله ﷺ عام أول على هذا المنبر ثم قال: «سلوا الله العفو والعافية، فما أُعطي أحدٌ عطاءً بعد اليقين خيراً من العافية»[١].

وعن عبدالله بن عمر ﷺ قال: لم يكن رسول الله ﷺ يصبح ولا يمسي إلا ويدعو بهذه الكلمات: اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، واحفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، اللهم إني أعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»[٢].

فيا معشر الشباب! هوِّنوا على أنفسكم، ليس الاضطهاد والتعذيب شرطاً لصحة الإيمان، ولا شرطاً لكماله حتى تنشدوه وتسعوا إليه، ويقوم قائمكم بين ظهراني الناس فيسبُّ الحاكم أو يشتمه، أو يحرض الناس عليه، ويدعو الناس للخروج عليه حتى يؤخذ ويودع في السجون، ويعذب يظن أنه قد عمل شيئاً أرضى الله، لا والله، قد نُهيت عن ذلك، وما يدريك إذا تعرضت للبلاء أتصبر أم لا؟ ما يدريك إذا تعرضت للبلاء فوقع عليك أن تفتن عن دينك وترجع عن الإسلام بعد أن هُديت إليه. أما علمت أن الله تعالى قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت:١٠-١١].

والرسول ﷺ قال: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه»، قالوا: وكيف يذل

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٣٥٥٨).
(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٤٢٣٩).

نفسه يا رسول الله؟ قال: «يتعرض لما لا يطيق من البلاء»[١].

ثانياً: ومن الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من هذا الحديث العظيم -النصر للمؤمنين، والعاقبة للمتقين، والمستقبل لهذا الدين.

رسولنا ﷺ في مكة يدعو الناس إلى عبادة الله، ويحذرهم من الشرك، والصحابة الكرام -رضي الله عنهم- يعانون أشد ألوان الأذى، والرسول ﷺ يمر على أصحابه، وهم يعذبون بأيدي الكفار فيأمرهم بالصبر ويبشرهم بالجنة ويخبرهم أن النصر لهم وأن العاقبة لهم وأن المستقبل لهذا الدين.

١. قال النبي ﷺ لخباب رضي الله عنه: «والله ليتمنّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه».

ويبشرهم ﷺ وهم في هذه اللحظة يعذبون فيقول لهم: «إنكم ستفتحون مصر والشام والعراق واليمن» بل بشرهم أنكم ستفتحون الدنيا مشرقها إلى مغربها، وقد صحت الأحاديث عن رسول الله ﷺ وتحقق ما وعد به وما زال يتحقق حتى تقوم الساعة.

٢. وقال ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها»[٢].

٣. وقال ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر»[٣].

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢٢٥٤).

(٢) رواه مسلم (رقم ٢٨٨٩).

(٣) صحيح، انظر «تحذير الساجد» الألباني (ص١١٩).

وقال ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت»[1].

والله -عز وجل- بشر المؤمنين الصادقين، أن العاقبة لهم، وأن النصر لهم، وأن المستقبل للإسلام.

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر:٥١]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣]، وقال تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر:٤٥]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح:٢٨].

وقال ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسناء والدين والرفعة والنصر والتمكين في الأرض»[2].

فيا عباد الله! الصبر الصبر؛ وإياكم والاستعجال، فإنه يدمر، وإياكم ودعاة الاستعجال.

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (٥).

(٢) «صحيح الجامع» (٢٨٢٢).

الخطبة الثالثة عشرة

المفاوضات وطلب المعجزات

أيها الإخوة **عباد الله!** موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن أسلوب جديد من أساليب الصد عن دين الله؛ ألا وهو:

المفاوضات وطلب المعجزات.

عباد الله! رسولنا ﷺ في مكة يدعو الناس سراً وجهراً، ليلاً ونهاراً إلى (لا إله إلا الله) وإلى عبادة الله، ويحذرهم من الشرك بالله ومن عبادة الأوثان، وكفار مكة يتنقلون من أسلوب إلى أسلوب ليصدوا الناس عن هذا الدين الجديد، ويصدوا رسول الله ﷺ عن دعوته الجديدة، ومع ذلك الناس يدخلون في دين الله ويتبعون رسول الله ﷺ.

عباد الله! وبعد أن فشل كفار مكة في صد الناس عن دين الله بأساليب الاضطهاد والتعذيب، انتقلوا إلى أسلوب جديد ألا وهو أسلوب الترغيب والترهيب والمفاوضات وطلب المعجزات.

أولاً: أرسلوا رسلهم إلى رسول الله ﷺ ليتفاهموا معه، لعلهم أن يصلوا معه ولو إلى ما يسمى في لغة العصر بأنصاف الحلول. فهذا في ظنهم خيرٌ لهم من استمراره ﷺ في الدعوة إلى الدين الجديد.

عباد الله! أرسل كفار مكة عتبة بن ربيعة ليعرض على رسول الله ﷺ ما قد رآه حلاً للمشكلة، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها:

إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً -مساكين أهل الدنيا، ظنوا أن الدعوة تباع بالمال والمنصب، والذي يترك دعوته من أجل منصب ومال داعية فاشل راسب-، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا فلا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك -أي مساً من الجن- طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ، فقال رسول الله ﷺ: «فرغت»؟ قال: نعم.

قال: «فاسمع مني» ثم استفتح رسول الله ﷺ سورة فصلت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ [فصلت:١-٧].

حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ [فصلت:١٣]، أمسك عتبة على فيه، وناشده الرحم أن يكف عنه، ولم يخرج إلى أهله واحتبس عنهم.

فقال أبوجهل: والله يا معشر قريش! ما نرى عتبة إلا صبا إلى محمد، وأعجبه كلامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، انطلقوا بنا إليه، فأتوه، فقال أبوجهل: والله يا عتبة! ما جئنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره، فإن كان بك حاجة؛ جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن محمد فغضب،

وأقسم بالله لا يكلم محمداً أبداً، وقال: لقد علمتم أني أكثر من قريش مالاً، ولكني أتيته -وقص عليهم القصة- فأجابني بشيء والله! ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة -قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ حتى بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾»، فأمسكت بفيه، وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل عليكم العذاب»[1].

عباد الله! ظن كفار مكة أن الأنبياء طلاب دنيا، يريدون بدعوتهم الدنيا الفانية، ولذلك تقدموا إلى رسول الله ﷺ بهذه المحاولة، وهي إغراؤه بالمال، والملك والرئاسة، والسيادة، ولكنهم فشلوا في ذلك لأن النبي ﷺ لم يجبهم إلى طلبهم.

ثانياً: انتقل كفار مكة إلى محاولة ثانية ألا وهي ما يسمى بلغة العصر «تقارب الأديان»

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: «إن قريشاً وعدوا رسول الله ﷺ أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، ويطئوا عقبه (أي: يسوده) فقالوا له: هذا لك عندنا يا محمد! وكف عن شتم آلهتنا، فلا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة، فهي لك ولنا فيها صلاح، قال: «وما هي؟» قالوا: تعبد آلهتنا سنة: اللات والعزى، ونعبد إلهك سنة! فقال ﷺ: «حتى أنظر ما يأتي من عند ربي»، فجاء الوحي

---

(١) انظر «فقه السيرة» للغزالي (ص١٠٧)، «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٥٩-١٦٢).

من اللوح المحفوظ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [سورة الكافرون].

وأنزل الله -عز وجل-: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾ [الزمر:٦٤-٦٦][1].

ففشلت المحاولة الثانية.

عباد الله! فكرة التقارب بين الأديان ليست بدعة عصرية، وإنما هي قديمة أول من دعى إليها كفار مكة؛ عندما قالوا لرسول الله ﷺ: نعرض عليك خصلة واحدة، فهي لك ولنا فيها صلاح قال: «وما هي؟» قالوا: تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، الله أكبر، ما هذا الضلال؟ كيف يلتقي من يقول (لا إله إلا الله) مع من يعبد كل يوم إلهاً؟! كيف يلتقي التوحيد والشرك؟ كيف يلتقي الإيمان والكفر؟ كيف يلتقي الهدى والضلال؟!

- فنحن نقول لأصحاب هذه الفكرة.

قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤﴾ فالذي يقول بتقارب الأديان؛ جاهل لا يعرف رأسه من رجليه؛ ولا يعرف السماء من الأرض، ولا يعرف الليل من النهار.

ثالثاً: فشل كفار مكة في المحاولة الثانية فانتقلوا إلى المحاولة الثالثة، وهي

---

(١) صحيح، انظر «صحيح السيرة النبوية» الألباني (٢٠٥-٢٠٦).

أقرب ما يكون بالنفاق والحيلة والخديعة والمكر، فأخذوا يطلبون من النبي ﷺأن يأتيهم بآية -أي معجزة- تشهد بصدقه، وأظهروا له أنهم على أتم استعداد أن يتبعوه ويؤمنوا به؛ إذا اقتنعوا أنه رسول الله حقاً، وهم أرادوا من وراء ذلك تعجيز الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [الأنبياء:٥-٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [العنكبوت:٥٠-٥١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾.

فأمر الله رسوله أن يقول لهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝﴾ [الإسراء:٩٠-٩٣].

وبين لنا ربنا -جل وعلا- أنهم يطلبون الآيات ولو نزلت عليهم لا يؤمنون فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝﴾ [يونس:٩٦-٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ

ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام:١٠٩-١١١].

وأكبر دليل على ذلك أنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يريهم آية على نبوته، لم يفعلوا ذلك لكي يؤمنوا؛ وإنما فعلوا ذلك خديعة وحيلة ومكراً واستكباراً.

قال أنس ﷺ: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ آيةً فأراهم انشقاق القمر فنزلت: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ﴿٢﴾﴾ [القمر:١-٢][1].

وعن جبير بن مطعم ﷺ قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل فقالوا: سحرنا محمد»[2].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فقال لنا النبي ﷺ: «اشهدوا»[3].

ومع ذلك يطلبون من رسول الله ﷺ الآيات إعجازاً منهم لرسول الله ﷺ.

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك يصبح لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك، قال: «وتفعلوا؟» قالوا: نعم، قال:

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٨٦٧)، ومسلم (رقم ٢٨٠٢).

(٢) «صحيح الترمذي» (٢٦٢٢).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٢١).

فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لـك: إن شئـت أصبح الصفا لهم ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك أعذبه عذاباً لا أعذبه أحـداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب الرحمة والتوبة قال: «بل باب التوبـة والرحمة»[(١)].

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: «فأنزل الله -عز وجل- هـذه الآيـة: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾»[(٢)].

عباد الله! وكيف يُرجى الخير ممن قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال:٣٢].

ولم يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه»[(٣)].

رابعاً: فشل كفار مكة في المحاولة الثالثة فانتقلوا إلى محاولة رابعـةٍ ليصـدوا رسول الله ﷺ عن دعوته الجديدة، ألا وهي ذهابـهم إلى عمـه أبـي طـالب، الذي كان يحوطه وينصره ويؤيده ويمنعه، يُلحّون عليـه أن يتخلـى عـن ابـن أخيه، فأتوه فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا.

فقال: يا عقيل! انطلق فأتني بمحمد.

فانطلق عقيل بن أبي طالب فأتى بالنبي ﷺ في الظهيرة في شدة الحر فلما

---

(١) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٥٣).
(٢) «مسند الإمام أحمد» (٢٣٣٣).
(٣) «نور اليقين» (ص٧١).

أتاهم، قال له عمه: يا ابن أخي! إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم. فَحَلّقَ رسولُ الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: «ترون هذه الشمس؟» قالوا: نعم، قال: «فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منها بشعلة».

-والمعنى ما أقدر أن أترك دين الله الذي أمرني بتبليغه كما أنكم لا تقدرون أن تأتوا من الشمس بشعلة تشتعلون بها-

«فقال أبوطالب: والله! ما كذب ابن أخي قط، فارجعوا»[(١)].

عباد الله! وهكذا أيد الله سبحانه نبيه بعمه على مخالفته لدينه، ولذا قال ﷺ: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[(٢)]. فأيد الله -تبارك وتعالى- رسوله ﷺ بأبي طالب مع أنه مات على الكفر.

عباد الله! أما الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ مما سمعنا فهي:

أولاً: الداعي إلى الله لا يترك دعوته أبداً في مقابل عرض من أعراض الدنيا، فما من نبي جاء لقومه إلا قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾.

ورسولنا ﷺ عندما عرض عليه كفار مكة المال والجاه والسلطان لم يناقشهم فيها، فهي أسقط وأذل من أن تناقش، ولكنه عرض عليهم أن يؤمنوا بالله وحده فتلى عليهم القرآن.

وهذا سليمان عليه السلام بعث بكتابه إلى بلقيس ملكة سبأ يدعوها

---

(١) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٤٤).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٠٦٢)، ومسلم (رقم ١١١).

وقومها إلى الإسلام، ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل:٢٩-٣٣].

فما كان من بلقيس إلا أن تختبر ذلك الملك بهدية تبعثها إليه من جميع أصناف المال، فإن كان هذا الملك يريد الدنيا فسيقبل الهدية ويكف عنهم، وإن لم يقبلها فمعناه أنه صادق في دعوته، ولهم المبادرة إلى إجابته والدخول في ملته.

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل:٣٤-٣٧].

فكانت النتيجة أن أسلمت بلقيس وقومها مع سليمان لله رب العالمين: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل:٤٤].

فاحذروا معشر الدعاة أن تفتنوا بالمناصب والمال؛ فتتركوا الدعوة إلى الله، أو تنافقوا فتخطبون خطبة تريدون بها رضا الناس، فمن أرضى الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس.

ثانياً: المساومات والمفاوضات وإنصاف الحلول لا تقبل أبداً في أخطر قضية، ألا وهي قضية التوحيد، ولذلك عندما طلب الكفار من رسول الله ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، أنزل الله -عز وجل-: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ وقال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ فلا يجوز لإنسان أبداً أن يداهن في قضية التوحيد.

ثالثاً: أن يعلم الجميع أن أعداء الإسلام يخططون بالليل والنهار بكل الأساليب، بأساليب التعذيب والترهيب، وبأساليب الإغراء والمفاوضات، وبأنصاف الحلول كل ذلك ليصدوا الناس عن دين الله.

ولكن كما قال رب العزة: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف:٨-٩].

اللهم رد المسلمين إلى دينك رداً جميلاً.

الخطبة الرابعة عشرة

مجادلة قريش للنبي ﷺ

أيها الإخوة عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في اللقاء سيكون عن أسلوب جديد من أساليب الصد عن دين الله، ألا وهو مجادلة قريش للنبي ﷺ.

عباد الله! رسولنا ﷺ في مكة يدعو الناس سراً وجهراً، وليلاً ونهاراً إلى عبادة الله، ويحذرهم من الشرك، ومن عبادة الأصنام.

وكفار مكة ينتقلون من أسلوب إلى أسلوب؛ ليصدوا الناس عن هذا الدين العظيم، ويصدوا رسول الله ﷺ عن دعوته، وفي الجمعة الماضية تبين لنا أن كفار مكة استخدموا أسلوب المفاوضات، وأنصاف الحلول، وطلب المعجزات، ولكنهم فشلوا في هذا الأسلوب، فالناس يدخلون في الدين، ويتبعون رسول الله ﷺ، فانتقل كفار مكة إلى أسلوب جديد، ألا وهو أسلوب الجدال والمراء لدحض الحق، وصد الناس عن دين الله، والله -عز وجل- يخبرنا عن ذلك في كتابه، أن الذين يجادلون في آيات الله ويجادلون بالباطل هم الكفار.

فقال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤﴾ [غافر:٤].

وبين لنا ربنا -جل وعلا- أن جدالهم هذا بالباطل ليدحضوا به الحق. فقال تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾ [غافر:٥] وقال تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ

وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾ [الكهف:٥٦] وأخبرنا ربنا -جل وعلا- أن الذين يدفعونهم إلى هذا الجدال بالباطل هم شياطين الإنس والجن.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام:١٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [الحج:٣].

وقد وصف ربنا -جل وعلا- لنا هؤلاء أنهم يجادلون بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير، وأن الدافع لذلك هو الكبر في قلوبهم، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الحج:٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر:٥٦].

عباد الله! ومن الأمور التي جادل فيها المشركون رسول الله ﷺ.

أولاً: البعث بعد الموت

عندما دعا رسول الله ﷺ الناس في مكة إلى الإيمان بالبعث بعد الموت، أنكر المشركون ذلك، وجادلوا في عقيدة البعث فأكثروا فيها الجدل، قال تعالى عنهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [ق:٣]. وقال تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المؤمنون:٨٢].

ولم يتوقف كفار مكة على استبعاد البعث بعد الموت بل أقسموا بالله لا يبعث الله من يموت، فقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ﴾ [النحل:٣٨]، فأقسم الله لهم بنفسه على أن البعث بعد الموت حق وكائن، فقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ [مريم:٦٨].

بل وأمر ربنا -جل وعلا- رسوله ﷺ في ثلاث مواضع من القرآن أن يقسم لهم بالله على أن البعث بعد الموت كائن، فقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾ [التغابن:٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ:٣]، وقال تعالى: ﴿۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ [يونس:٥٣].

عباد الله! ومع ذلك جاء أبيّ بن خلف إلى رسول الله ﷺ بعظم بالٍ قد أرمَّ فقال: يا محمد! أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرم؟! ثم فته بيده، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «نعم؛ أنا أقول ذلك؛ يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا، ثم يدخلك النار».

وأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٨٣﴾ [يس:٧٨-٨٣][1].

ثانياً: الآلهة التي تعبد من دون الله:

قال ابن إسحاق: «وجلس رسول الله ﷺ -فيما بلغنا- يوماً مع الوليد

(١) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص٢٠١).

بن المغيرة، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحدٍ من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٨-١٠٠]، ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبدالله بن الزبعري السهمي حتى جلس. فقال الوليد بن المغيرة له: والله؛ ما قام النضر بن الحارث لابن عبدالمطلب آنفاً وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم! فقال عبدالله بن الزبعري -أما- والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً: أكل من يعبد من دون الله حصب جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد عيسى، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول ابن الزبعري، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ.. فأنزل تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء:١٠١-١٠٢]؛ أي: عيسى ابن مريم، وعزيراً، ومن عبد من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله تعالى، ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنها بنات الله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٩].

ونزل في إعجاب المشركين بقول ابن الزبعري: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓا۟ ءَأَـٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾ [الزخرف:٥٧-٥٨][1].

عباد الله! وهذا الجدل الذي سلكوه باطل، وهم يعلمون ذلك، لأنهم قوم عرب ومن لغتهم أن (ما) لما لا يعقل، فقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾: إنما أريد بذلك ما كانوا يعبدونه من الأحجار التي كانت صور أصنام، ولا يتناول ذلك الملائكة الذين زعموا أنهم يعبدونهم في هذه الصور، ولا المسيح، ولا عزيراً، ولا أحداً من الصالحين، لأن الآية لا تتناولهم لا لفظاً ولا معنى، فهم يعلمون أن ما ضربوه بعيسى ابن مريم من المثل جدل باطل؛ كما قال تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾ ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: بنبوتنا ﴿وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾؛ أي: دليلاً على تمام قدرتنا على ما نشاء، حيث خلقناه من أنثى بلا ذكر، وقد خلقنا حواء من ذكر بلا أنثى، وخلقنا آدم لا من هذا، ولا من هذا، وخلقنا سائر بني آدم من ذكر وأنثى؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم:٢١]؛ أي: أمارة ودليلاً على قدرتنا الباهرة ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ﴾ نرحم بها من نشاء[2].

عباد الله! وقال ابن عباس ﷺ، قال رسول الله ﷺ لقريش: «يا معشر

---

(١) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (١٩٧-١٩٨).

(٢) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٩٨-١٩٩).

قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم، وما يقول محمد فقالوا: يا محمد ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله! صالحاً فلئن كنت صادقاً فإن آلهتهم لكما تقولوا، فأنزل الله -عز وجل-: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧﴾ [الزخرف:٥٧][1].

عباد الله! «وهذا القياس الفاسد من قريش، من تشبيه الأنبياء المكرمين بالأصنام المعبودة غير العاقلة اقتضى الرد عليه، فقال الله تعالى مبيناً عبودية عيسى لله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾، وإنه لم يدع إلى عبادة نفسه، بل دعا إلى عبادة الله وحده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾، وسمى القرآن احتجاج قريش بالجدل: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾ وهو المراء الباطل حيث كانوا عرباً فصحاء لا يخفى عليهم أن الآية ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨﴾ هي خطاب لقريش، وهم يعبدون أصناماً لا تعقل، وليست خطاباً للنصارى، فلا يرد اعتراضهم على الآية أصلاً - هي لما لا يعقل- بدعوى استحلالها للمسيح عليه السلام»[2].

ثالثاً: الروح:

عباد الله! ومن المجادلات التي أثارها المشركون مع رسول الله ﷺ سؤالهم عن الروح.

---

(١) إسناده حسن، انظر «مسند الإمام أحمد» رقم (٢٩٧-ط المؤسسة)، وانظر «السيرة النبوية الصحيحة» أكرم ضياء العمري (١/ ١٣١).

(٢) انظر «السيرة النبوية الصحيحة» أكرم ضياء العمري (١/ ١٦٤).

عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود، أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه. فنزلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء:٨٥]. قالوا: نحن لم نؤت من العلم إلا قليلاً، وقد أوتينا التوراة ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً!! قال: فأنزل الله -عز وجل-: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف:١٠٩][1].

رابعاً: القدر

عباد الله! ومن المجادلات التي أثارها المشركون مع رسول الله ﷺ القدر، وهو إثبات ما قدرة الله وقضاه، وسبق به علمه، وكتبه على عباده فكل ما يقع لهم إنما هو مقدر في الأزل معلوم لله مرادٌ له، فنزلت الآية: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٨-٤٩][2].

عباد الله! والإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان، كما قال ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالقدر خيره وشره».

وقد جاءت الأدلة في الكتاب والسنة تخبر أن الله -عز وجل- قدّر كلَّ شيء في كتاب قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال تعالى:

---

(١) إسناده صحيح، «مسند أحمد» رقم (١٢٣٠٩-ط المؤسسة)، وانظر «السيرة النبوية الصحيحة» أكرم ضياء العمري (١/ ١٦٤).

(٢) صحيح مسلم (رقم ٢٦٥٦).

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝﴾ [الحديد:٢٢]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝﴾ [الحج:٧٠].

وقال ﷺ: «كتب الله تعالى مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء»[1].

خامساً: القرآن الكريم

عباد الله! ومن الأمور التي جادل فيها المشركون رسول الله ﷺ، القرآن الكريم؛ فقالوا عن القرآن: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝﴾.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝﴾ [الأنعام:٢٥]، وقالوا: إنما يعلمه بشر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۝﴾ [النحل:١٠٣]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝﴾ [الفرقان:٤-٥]، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يغير هذا القرآن أو يبدله.

---

(١) «صحيح الجامع» (٤٣٥٠).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس:١٥-١٧].

عباد الله! وقد أخبر الله -عز وجل- ونبه عن خطورة هذا العمل، فقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء:٧٣-٧٥]، فلما فشلوا في مجادلتهم قالوا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت:٢٦].

سادساً: نزول القرآن منجماً على رسول الله ﷺ

عباد الله! ومن الأمور التي جادل فيها المشركون رسول الله ﷺ: نزول القرآن منجماً على رسول الله ﷺ، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال المشركون: لو كان محمد كما يزعم نبياً فَلِمَ يعذبه ربه؟ ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة، ينزل عليه الآية والآيتين والسورة والسورتين، فأنزل الله على نبيه جواب ما قالوا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

[الفرقان:٣٢][1].

سابعاً: مجالسة المستضعفين والفقراء من المؤمنين.

عباد الله! ومن الأمور التي جادل فيها المشركون رسول الله ﷺ؛ جلوسهم مع الفقراء من المسلمين، في مجلس واحد، عن خباب ﵁ قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعداً في ناسٍ من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم، فأتوه فخلوا به، وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا؛ فإن وفود العرب تأتيك، فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد! فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت. قال: «نعم».

قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً.

قال: فدعا بصحيفة، ودعا علياً ليكتب -ونحن قعود في ناحية- فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام:٥٢].

ثم ذكر الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام:٥٣]. ثم قال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا

---

(١) انظر «فتح القدير» الشوكاني (٤/ ٧٥)، و«السيرة النبوية الصحيحة» أكرم ضياء العمري (١/ ١٦٦).

﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة من يده ثم دعانا، قال: فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، وهو يقول: «سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة»، وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾: ولا تجالس الأشراف ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾؛ يعني: عيينة والأقرع ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ قال: هلاكاً؛ قال: أمر عيينة والأقرع، ثم ضرب لهم مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا.

قال خباب: فكنا نقعد مع النبي ﷺ، فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها؛ قمنا وتركناه حتى يقوم»[1].

عباد الله! مجادلة بالباطل من كفار مكة، ومع ذلك فشلوا في هذه الأساليب جميعها لصد رسول الله ﷺ عن دعوته الجديدة.

اللهم رد المسلمين إلى دينك رداً جميلاً.

---

(١) «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص٢٢٢-٢٢٤).

الخطبة الخامسة عشرة

قريش تعود إلى أسلوب الخنق والتضييق والتعذيب مما جعل كثيراً من المسلمين يهاجرون إلى الحبشة فراراً بدينهم من الفتنة

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم إن -شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن أسلوب جديد من أساليب الصد عن دين الله، ألا وهو أسلوب الخنق والتضييق والتعذيب والمطاردة، مما جعل كثيراً من المسلمين في مكة يهاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم من الفتنة.

عباد الله! رسولنا ﷺ في مكة يدعو الناس سراً وجهراً، ليلاً ونهاراً إلى عبادة الله -عز وجل-، وإلى عقيدة التوحيد، ويحذرهم من الشرك ومن عبادة الأوثان.

وكفار مكة ينتقلون من أسلوب إلى أسلوب؛ ليصدوا الناس عن دين الله، ويصدوا رسول الله ﷺ عن دعوته الجديدة، ومع ذلك الناس يدخلون في دين الله، ويتبعون رسول الله ﷺ.

عباد الله! بعدما فشلت قريش في جميع الأساليب، لجأت مرةً أخرى إلى أسلوب الخنق والتضييق والاضطهاد والتعذيب للمسلمين، مما جعلهم يهاجرون إلى الحبشة فراراً بدينهم من الفتن.

تقول أم سلمة -رضي الله عنها-: «لما ضاقت (مكة)، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه ومن عمه، لا يصل إليه شيء مما يكره ومما ينال أصحابه؛ فقال لهم

رسول الله ﷺ: «إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه»[١].

عباد الله! بدأ الرحيل إلى الحبشة تسللاً في الخفاء، حتى لا تستيقظ قريش للأمر فتحبطه، ولم يبدأ كذلك على نطاق واسع، فتسلل بضعة عشر رجلاً وامرأة كان على رأسهم عثمان بن عفان ﷺ وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى انتهى إلى مسامعهم أن الاضطهاد والتعذيب والتضييق على المسلمين في مكة قد خفت وطأته، وترك الكفار المسلمين أحراراً، فعاد المسلمون من الحبشة إلى ديارهم وأرضهم وأهليهم، فبينما هم على مشارف مكة إذ تأكدوا أن الأخبار التي وصلتهم غير صحيحة، وكانت قريش قد أغاظها خروج هؤلاء النفر من بينهم دون علمهم، فلما سمعوا بعودتهم أخذوهم وساموهم سوء العذاب، إلا نفراً قليلاً منهم قد دخلوا في جوار بعض سادات قريش.

عباد الله! لما اشتد الاضطهاد والتعذيب والإيذاء بالمسلمين في مكة بعد عودة المهاجرين أشار النبي ﷺ على أصحابه بالهجرة مرة ثانية إلى الحبشة.

عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: «لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جارٍ، النجاشي، أمنَّا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه.

فلما بلغ ذلك قريشاً، ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلْدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما

---

(١) انظر «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٧٠).

يأتيه منها إليه الأدَم (أي الجلـود)، فجمعـوا لـه أدمـاً كثـيراً ولم يـتركوا مـن بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة -قبل أن يسلما- وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدموا للنجاشي هداياه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم.

قالت: فخرجا، فقدما على النجاشي، ونحن عنـده بخير دار، وعنـد خـير جارٍ فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه قد صبـا إلى بلـد الملـك منـا غلمـان سـفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم.

وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم لتردوهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا، ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلـى بـهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهم: نعم.

ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما، ثـم كلّمـاه، فقـالا لـه: أيها الملك، إنه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا ديـن قومـهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفـه نحـن ولا أنـت، وقـد بعثنـا إليك فيهم أشـراف قومـهم مـن آبائـهم، وأعمامـهم، وعشـائرهم، لـتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العـاص من أن يسمع النجاشي كلامهم.

فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلـم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليردَّاهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لا هيم الله (أي لا والله) إذاً لا أسلمهم إليهما، ولا أكاد قوماً جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك، منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما هو كائن.

فلما جاؤوه، وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم. فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الأمم؟

قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له:

أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام -قالت: فعدد عليه أمور الإسلام- فصدقناه، وآمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا،

فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

فقال له جعفر: نعم.

فقال له النجاشي: فاقرأ عليّ.

فقرأ عليه صدراً من ﴿كهيعص﴾.

قالت: فبكى، والله، النجاشي حتى أخضل (أي بلّ) لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكم أبداً ولا أكاد.

قالت أم سلمة: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لأنبئنه غداً عيبهم عنده، ثم أستأصل به خضراءهم

قالت: فقال له عبدالله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد.

قالت: ثم غدا عليه الغد، فقال له: أيها الملك: إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟

قالوا: نقول والله ما قال الله وما جاء به نبينا، كائنا في ذلك ما هو كـائن. فلما دخلوا عليه، قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟

فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء بـه نبينـا: هـو عبـدالله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

قالت: فضرب النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ منها عـوداً ثـم قـال: مـا عدا[1] عيسى ابن مريم ما قلت؛ هذا العود. فتناخرت بطارقتـه حولـه حـين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم -الآمنون- من سبكم غُرِّم، ثم من سبكم غُرِّم ثم من سبكم غرم، فما أحب أن لي دبراً ذهباً -أي جبـلاً ذهباً- وإني آذيت رجلاً منكم، ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجـة لنـا بـها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، فآخذ الرشـوة فيـه، ومـا أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه.

قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار»[2].

عباد الله! أما الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ مما سمعنا فهي:

أولاً: يجب على العبد المسلم أن يهاجر من البلد التي لم يتمكـن فيـها مـن عبادة ربه، إلى بلد آخر يتمكن فيـها مـن عبـادة ربـه، فقـد هـاجر أصحـاب رسول الله ﷺ من مكة عندما ضُيق عليهم إلى الحبشـة ليتمكنـوا مـن عبـادة ربهم، وقد هاجر رسول الله ﷺ -وهو أفضل خلق الله- مـن مكـة -وهـي أفضل بلاد الله- ليتمكن هو وأصحابه من عبادة الله -عز وجل-.

---

(١) ما تجاوز.

(٢) إسناده حسن، انظر «مسـند الإمـام أحمـد» رقـم (١٧٤٠- ط المؤسسـة) و«صحيـح السيرة النبوية» الألباني (ص١٧٠).

ثانياً: أن المؤمنين إذا اتقوا ربهم جعل لهم مخرجاً ودافع عنهم قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾.

عباد الله! فقد جعل الله للمهاجرين إلى الحبشة مخرجاً، ودافع عنهم، ونصرهم على أعدائهم.

ثالثاً: أن الكفار في كل زمان ومكان ينفقوا أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فالله -عز وجل- يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال:٣٦].

وقد تبين لكم يا عباد الله! من حديث أم سلمة -رضي الله عنها-، كيف أنفق كفار مكة أموالهم في إرسال الهدايا إلى النجاشي، وإلى بطارقته ثم كانت النتيجة حسرة عليهم.

رابعاً: أن من صدق نجا، فعندما صدق جعفر بن أبي طالب ﷺ ومن معه مع النجاشي ولم يكتموا شيئاً من عقيدتهم، فكانت العاقبة أحسن العواقب وأحمدها، ولذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٩].

وقال ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق، يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة..».

خامساً: فضل النجاشي الملك العادل الذي لم يظلم المسلمين في أرضه ودافع عنهم وحافظ عليهم، فقد قال فيه الرسول ﷺ حين مات: «مات

اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم (أصحمة))»[١].

وعن أبي هريرة ﷺ: «أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى فصف بهم وكبر أربع تكبيرات»[٢].

قالت عائشة -رضي الله عنها-: «لما مات النجاشي كان يتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور»[٣].

عباد الله! ما هو أعجب ما رأى المهاجرون إلى الحبشة في أرض الحبشة؟

هذا الذي نعرفه -إن شاء الله- تعالى في الجمعة القادمة.

---

(١) رواه البخاري (رقم ٣٨٧٧).

(٢) «أحكام الجنائز» (ص٤٥) الألباني.

(٣) قال الألباني: إسناده حسن انظر «صحيح السيرة النبوية» (ص١٨١).

الخطبة السادسة عشرة

الهجرة إلى الحبشة

وأعجب ما رأى المسلمون في أرض الحبشة

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون أيضاً عن هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة، وعن أعجب ما رأى المسلمون في أرض الحبشة.

عباد الله! في الجمعة الماضية تبين لنا أن المسلمين هاجروا من مكة إلى الحبشة فراراً بدينهم، ولأن النبي ﷺ قال لهم: «إن بالحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه».

تقول أم سلمة -رضي الله عنها-: «فخرجنا إليها أرسالاً، حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، آمنين على ديننا، ولم نخش فيها ظلماً.

تقول: فلما رأت قريش أنا قد أصبنا داراً وأمناً، غاروا منا، فاجتمعوا على أن يبعثوا إلى النجاشي فينا، ليخرجنا من بلاده وليردنا عليهم».

فبعد أن ذكرت -رضي الله عنها- المحاولة الفاشلة التي قام بها كفار مكة قالت: «ثم قال النجاشي: فوالله؛ ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، ولا أطاع الناس فيَّ؛ فأطيع الناس فيه؟! ردوا عليهما هداياهم، فلا حاجة لي بها، واخرجا من بلادي».

تقول -رضي الله عنها-: «فخرجا مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به.

تقول -رضي الله عنها-: «فأقمنا مع خير جار في خير دار»[١].

عباد الله! لما فشلت قريش في محاولتها الغادرة وهي إرجاع المهاجرين من أرض الحبشة إلى مكة، أخذوا يصبوا العذاب صباً على المسلمين في مكة ويضيقون عليهم.

«فهذا أبوبكر الصديق ﷺ حين ضاقت عليه (مكة) وأصابه فيها الأذى، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه ما رأى؛ استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فأذن له»[٢].

عباد الله! تعالوا بنا لنستمع إلى عائشة -رضي الله عنها- وهي تخبرنا الخبر، تقول -رضي الله عنها-: «لم أعقل أبويّ قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم، إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون، خرج أبوبكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى بلغ بَرْك الغماد -وهو موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن- لقيه ابن الدَّغنة -وهو سيد القارة[٣]- فقال: أين تريد يا أبا بكر؟

فقال أبوبكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي.

قال ابن الدَّغنة: إن مثلك يا أبابكر لا يَخرج ولا يُخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع، وارتحل معه ابن الدَّغنة فطاف ابن الدَّغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم: إن أبابكر لا

---

(١) انظر «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٧٠-١٧٧).
(٢) انظر «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص٢١٢).
(٣) القارة: قبيلة مشهورة، يضرب بهم المثل في قوة الرمي.

يخرج مثله ولا يُخرج، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟

فلم تكذب قريش بجوار ابن الدَّغنة، وقالوا له: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها وليقرأ ما شاء؛ ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به؛ فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

فقال ذلك ابن الدَّغنة لأبي بكر، فلبث أبوبكر كذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر؛ فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه.

وكان أبوبكر رجلاً بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدَّغنة فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانهه؛ فإن أحبَّ أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك -أي ننقض عهدك- ولسنا مقرين لأبي بكر الإستعلان.

قالت عائشة: فأتى ابن الدَّغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عاقدتك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرتُ في رجل عقدتُ له.

فقال أبوبكر: فإني أرد عليك جوارك، وأرضى بجوار الله -عز وجل-»[1].

---

(١) رواه البخاري (٣٩٠٥).

عباد الله! وهذا أبوموسى الأشعري ﷺ يخبرنا عن هجرته هو وأصحابه إلى الحبشة.

عن•أبي موسى الأشعري ﷺ قال: «بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن، فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة فوافقنا جعفر بن أبي طالب، فأقمنا معه حتى قدمنا، فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر، فقال النبي ﷺ: «لكم أنتم يا أهل السفينة هجرتان»[1].

عباد الله! قال النبي ﷺ ذلك عندما قال عمر بن الخطاب ﷺ لأصحاب السفينة: «سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم»، فلما بلغ الخبر إلى النبي ﷺ قال: «لا ما هو بأحق بي منكم وله (أي: لعمر وأصحابه) هجرةٌ واحدة ولكم يا أهل السفينة هجرتان»[2].

ولما عاد مهاجروا الحبشة إلى رسول الله ﷺ جعل يسألهم ويخبرونه بما رأوا في أرض الحبشة من أعاجيب:

فعن جابر ﷺ قال: لما رجع مهاجروا البحر إلى رسول الله ﷺ قال لهم رسول الله ﷺ: «ألا تحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟!» قال فتية منهم: بلى يا رسول الله! بينما نحن جلوس، إذ مرت عجوز من عجائز رهابينهم تحمل على رأسها قُلَّةً من ماء، فقام إليها فتىً من فتيانهم فوضع إحدى يديه بين كتفيها ثم دفعها فخرت على ركبتيها. فانكسرت قلتها، فلما ارتفعت، التفتت إليه فقالت: سوف تعلم، يا غُدر! إذا وضع الله الكرسي، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون،

---

(١) رواه البخاري (٤٢٣٠، ٤٢٣١).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٢٣٠، ٤٢٣١)، ومسلم (رقم ٢٥٠٢، ٢٥٠٣).

فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غداً.

فقال رسول الله ﷺ: «صدقت. صدقت. كيف يقدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟»[١].

عباد الله! وفي هذا الحديث فوائدٌ عظيمة منها:

أولاً: تحريم الظلم.

قال الله -تعالى- في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»[٢]، وقال ﷺ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»[٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٣].

عباد الله! الظلم عاقبته وخيمة، والله -تبارك وتعالى- يأخذ من الظالم للمظلوم يوم القيامة، فلا يدخل أحدٌ الجنة ولواحد من أهل النار عنده مظلمة، ولا يدخل أحد النار ولواحد من أهل الجنة عنده مظلمة.

قال ﷺ: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»[٤].

---

(١) «صحيح سنن ابن ماجه» (رقم ٣٢٣٩).
(٢) رواه مسلم (رقم ٢٥٧٧).
(٣) رواه مسلم (رقم ٢٥٧٨).
(٤) رواه مسلم (رقم ٢٥٨٢).

وقال ﷺ: «من اقتطع» -أي أخذ- «حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة»، فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «وإن قضيباً من أراك»[١].

وقال ﷺ: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه، أو من شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات، أخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه»[٢].

ولذلك قال ﷺ لأصحابه: «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال ﷺ: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[٣].

عباد الله! فالظالم خسران في الدنيا والآخرة.

والظالم لا يحبه الله، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

والظالم ملعون، قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨].

عباد الله! الظلم سبب لهلاك الأمم.

---

(١) رواه مسلم (رقم ١٣٧).
(٢) رواه البخاري (رقم ٦٥٣٤).
(٣) رواه مسلم (رقم ٢٥٨١).

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [الكهف:٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾، وعن أبي موسى الأشعري قال: قال ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[١].

وقال ﷺ في هذا الحديث الذي معنا «كيف يقدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم».

ابن آدم!

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا فالظلم يرجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

ثانياً: أن نصر المظلوم واجب على القادر عليه.

قال ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، فقال رجل: يا رسول الله أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال ﷺ: «تمنعه من ظلمه فذلك نصره»[٢].

وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه»[٣].

وعن البراء بن عازب ﷺ قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع، ..وذكر منها نصر المظلوم»[٤].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٦٨٦)، ومسلم (رقم ٢٥٨٣).
(٢) رواه البخاري (رقم ٦٩٥٢).
(٣) رواه مسلم (رقم ٢٥٨٠).
(٤) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٥٦٣٥)، ومسلم (رقم ٢٠٦٦).

ثالثاً: إثبات البعث، والحشر، والحساب، والجزاء:

وهذا يظهر من قول العجوز للفتى الذي ظلمها واعتدى عليها: سوف تعلم، يا غُدر! إذا وضع الله الكرسي، وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غداً».

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٨١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان:٣٣].

وقال ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا سيكلمه الله يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه، فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه، فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار، ولو بشق تمرة، ولو بكلمة طيبة»(١).

ابن آدم:

مثل وقوفك يوم العرض عريانا ... مستوحشاً قلق الأحشاء حيرانا
والنار تلهب من غيظ ومن حنق ... على العصاة ورب العرش غضبانا
إقرأ كتابك يا عبدي على مهل ... فهل ترى فيه حرفاً غير ما كان
لما قرأت ولم تنكر قراءته ... إقرار من عرف الأشياء عرفانا

---

(١) «صحيح الجامع» (٥٦٧٤).

نادى الجليل خذوه يا ملائكتي   وامضوا بعبد عصى للنار عطشانا
المجرمون غداً في النار يلتهبوا   والمؤمنون في دار الخلد سكانا

عباد الله! ومن أعاجيب ما رأى المهاجرون في أرض الحبشة ما رواه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «لما كان مرض النبي ﷺ، تذاكر بعض نسائه كنيسةً بأرض الحبشة يقال لها (مارية) وقد كانت أم سلمة وأم حبيبة قد أتتا أرض الحبشة- فذكرن من حسنها وتصاويرها. فقال النبي ﷺ: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً، فصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»(١).

عباد الله! وفي هذا الحديث فائدة عظيمة جداً، ألا وهي حرمة بناء المساجد على القبور.

عن عائشة وابن عباس -رضي الله عنهما- قالا: «لما نزل برسول الله ﷺ، طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتمَّ بها كشفها عن وجهه، فقال -وهو كذلك-: لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يُحذر مثل ما صنعوا»(٢).

وقالت عائشة -رضي الله عنها-، قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، قالت:

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٢٧)، ومسلم (رقم ٥٢٨).
(٢) رواه البخاري (رقم ٤٣٥، ٤٣٦)، ومسلم (رقم ٥٣١)، انظر «أحكام الجنائز» الألباني (ص٢٧٥).

فلولا ذاك أبرزَ قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً[١].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٢].

وقال ﷺ: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك»[٣].

وقال ﷺ: «إن من شرار الناس من تدركه الساعة، وهم أحياء، ومن يتخذ القبور مساجد»[٤].

عباد الله! من هذه الأحاديث يتبين لنا:

١-أن بناء المساجد على القبور حرام، وكبيرة من الكبائر، ومن فعل ذلك فهو من شرار الخلق عند الله يوم القيامة.

٢-أن الصلاة إلى القبور مستقبلاً لها حرام.

٣-أن السجود على القبور حرام.

فليتق الله الذين يبنون المساجد على القبور، والذين يدفنون أنفسهم وأقاربهم في المساجد التي بنوها، فإن هذا حرام وكبيرة من الكبائر، والذي

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٣٠)، ومسلم (رقم ٥٢٩)، انظر «أحكام الجنائز» الألباني (ص٢٧٦).

(٢) صحيح، انظر «أحكام الجنائز» الألباني (ص٢٧٦).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٥٣٢).

(٤) صحيح، انظر «أحكام الجنائز» الألباني (ص٢٧٨).

يفعل ذلك هو من شرار الخلق عند الله، وقد حبط عمله وغضب الله عليه ولعنه.

اللهم رد المسلمين إلى دينك رداً جميلاً.

الخطبة السابعة عشرة

إسلام حمزة بن عبدالمطلب

وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما

أيها الإخوة عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن إسلام حمزة ابن عبدالمطلب وعمر بن الخطاب -رضي الله عنهما-.

عباد الله! تبين لنا من الجُمع السابقة أن كفار مكة استخدموا جميع الأساليب لمنع الناس من الدخول في دين الله ولكنهم فشلوا في ذلك، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف:٢١]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة:٣٢-٣٣].

عباد الله! كفار مكة بالليل والنهار يحاولون أن يمنعوا الناس من الدخول في دين الله، ومع ذلك الناس في كل يوم يدخلون في دين الله ويتبعون رسول الله ﷺ، فهذا حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه... أتعرفونه؟ عمَّ رسول الله ﷺ، وأخوه من الرضاعة، قال فيه رسول الله ﷺ: «سيد الشهداء عند الله يوم القيامة؛ حمزة بن عبدالمطلب»[1].

---

(١) «صحيح الجامع» (٣٥٧٠).

يروى في سبب إسلامه ﷺ أن جارية عيَّرته بإيذاء أبي جهل لابن أخيه محمد ﷺ فتوجه إليه وغاضبه وسبه وقال له: كيف تسب محمداً وأنا على دينه، فشجه شجة منكرة، فكان إسلامه في بداية الأمر أنفة، ثم شرح الله صدره بنور اليقين، حتى صار من أفاضل المؤمنين»[١].

وعن محمد بن كعب القرظي قال: كان إسلام حمزة ﷺ حمية، وكان يخرج من الحرم فيصطاد، فإذا رجع مرَّ بمجلس قريش، وكانوا يجلسون عند الصفا والمروة، فيمر بهم فيقول: رميت كذا وكذا وصنعت كذا وكذا ثم ينطلق إلى منزله، فأقبل من رميه ذات يوم فلقيته امرأة فقالت: ماذا لقي ابن أخيك من أبي جهل، شتمه وتناوله وفعل وفعل، فقال: هل رآه أحدٌ؟ قالت: إي والله لقد رآه الناس، فأقبل حتى انتهى إلى ذلك المجلس عند الصفا والمروة، فإذا هم جلوس وأبوجهل فيهم، فاتكأ على قوسه، وقال: رميت كذا وكذا وفعلت كذا وكذا، ثم جمع يديه بالقوس فضرب بها بين أذني أبي جهل فدق سنتها، ثم قال: خذها بالقوس، وأخرى بالسيف، أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأنه جاء بالحق من عند الله قالوا: يا أبا عمارة إنه سب آلهتنا، وإن كنت أنت -وأنت أفضل منه- ما أقررناك وذاك، وما كنت يا أبا عمارة فاحشاً»[٢].

عباد الله! ثم شرح الله صدر حمزة بن عبدالمطلب ﷺ للإسلام وثبت عليه، فعلمت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه

---

(١) رواه ابن إسحاق (١/ ٣٠٤).

(٢) قال الهيثمي: رواه الطبراني مرسلاً ورجال رجال الصحيح «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٦١).

فكفوا عن بعض ما كانوا ينالوا منه»[١].

عباد الله! وهذا عمر بن الخطاب ﷺ.. أتعرفونه؟

الفاروق الذي قال فيه ﷺ: «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب»[٢] وقال عنه ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدَّثون» -أي ملهمون- «فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر»[٣]. وقال عنه ﷺ: «إني لأنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فروا من عمر»[٤].

الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ الذي قال عن نفسه: وافقت ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله! لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥]، وقلت: يا رسول الله! يدخل على نسائك البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن؟ فنزلت آية الحجاب. واجتمع نساء النبي ﷺ في الغَيْرة فقلت: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت كذلك»[٥].

أمة الإسلام! كان عمر بن الخطاب ﷺ قبل إسلامه من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وأكثرهم إيذاء وتعذيباً للمسلمين، قال سعيد بن زيد ﷺ -وهو ابن ابن عم عمر، وزوج أخته فاطمة بنت الخطاب-: «والله لقد رأيتني وإن

---

(١) «البداية والنهاية» (٣/ ٣٣).

(٢) «السلسلة الصحيحة» (٣٢٧).

(٣) رواه البخاري (رقم ٣٦٨٩) من حديث أبي هريرة، ومسلم (رقم ٢٣٩٨) من حديث عائشة.

(٤) «صحيح الجامع» (٢٤٩٢).

(٥) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٠٢)، ومسلم (رقم ٢٣٩٩).

عمر لموثقي على الإسلام قبل أن يسلم»[1].

عباد الله! كان عمر بن الخطاب رجلاً قوياً مهيباً، وكان يؤذي المسلمين ويشتد عليهم، حتى يئس بعضهم من إسلامه لما رأى من غلظته وقسوته على المسلمين، ولكن شدة عمر الظاهرة تكمن خلفها رحمة ورقة، وكان بعض المسلمين مما يرى من قسوة عمر على المسلمين كان يقول: بأنه لا يمكن أبداً أن يسلم عمر.

عن أم عبدالله بنت أبي حثمة قالتْ: «والله، إنا لنترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر بن ربيعة (تعني زوجها) في بعض حاجاتنا؛ إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علي وهو على شركه، قالت: وكنا نلقي منه من البلاء؛ أذى لنا وشدة علينا، قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبدالله؟

قلت: نعم؛ والله لنخرجن في أرض من أرض الله -إذ آذيتمونا وقهرتمونا- حتى يجعل الله لنا مخرجاً.

قالت: فقال: صَحِبَكُم الله. ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه -فيما أرى- خروجنا.

قالت: فجاء عامر (وهو زوجها) بحاجته تلك.

فقلت له: يا أباعبدالله! لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا!

قال: أطمعت في إسلامه؟

قالت: نعم.

قال: لا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب!

---

(١) رواه البخاري (رقم ٣٨٦٢).

قالت: يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام»[1].

عباد الله! ولكن الله -تبارك وتعالى- القادر على كل شيء -كما أنه يحيي الأرض بعد موتها- كذلك يحيى القلوب القاسية بعد موتها.

ولذلك لما ذكر الله في كتابه قسوة قلوب أهل الكتاب محذراً منها، عقَّب على ذلك بذكر قدرته على إحياء الأرض الميتة حتى لا ييأس أصحاب القلوب القاسية من إحيائها.

فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد:١٦-١٧].

وقد علم الله -عز وجل- أن قسوة قلب عمر قسوة عارضة لا مستحكمة، ولا دائمة، ولذلك هيأ له الأسباب للإسلام، وإذا أراد الله شيئاً هيأ له أسبابه ليكون.

عباد الله! ومن أسباب إسلام عمر بن الخطاب:

أولاً: سماعه للقرآن الكريم: فالقرآن هو كلام الله، له تأثير في القلوب.

فيروى عن عمر أنه قال: «خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش، قال: فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة:٤٠-٤١]، قلت: كاهن، قال: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

---

(١) انظر «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٨٩).

[الحاقة:٤٢]، حتى بلغ آخر السورة. قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع»[١].

عباد الله! وهذه القصة فيها ضعف، وكذلك قصته مع أخته فاطمة حين لطمها لإسلامها وضرب زوجها سعيد بن زيد، ثم اطلاعه على صحيفة فيها آيات وإسلامه فلم يثبت شيء من هذه القصص من طريق صحيحه.

ولكن الحافظ ابن حجر ذكر بأن الباعث له على دخوله في الإسلام ما سمع في بيت أخته فاطمة من القرآن.. وعدم ثبوت الروايات حديثياً لا يعني حتمية عدم وقوعها تاريخياً»[٢].

ثانياً: دعاء النبي ﷺ له:

عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم! أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب» قال: فكان أحبهما إليه عمر بن الخطاب»[٣].

عباد الله! استجاب الله -تبارك وتعالى- دعاء رسول ﷺ، فأسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فاعتز به الإسلام وفرح المسلمون بإسلامه فرحاً عظيماً، وازدادوا بإسلامه قوة ومنعة وعزة ورفعة.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر»[٤].

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٦٢): «رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله ثقات إلا شريح بن عبيد لم يدرك عمر، فالحديث ضعيف لانقطاعه».
(٢) انظر «السيرة النبوية الصحيحة» أكرم ضياء العمري (١/ ١٨٠).
(٣) انظر «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٩٣).
(٤) رواه البخاري (رقم ٣٦٨٤).

وقال أيضاً: «لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا نصلي»[(١)].

وقال أيضاً: «إن إسلامه كان نصراً» أي للإسلام والمسلمين[(٢)].

وقال ابن عباس -رضي الله عنهما- لعمر بن الخطاب حين طعن: «فلما أسلمت كان إسلامك عزاً، وأظهر الله بك الإسلام ورسول الله وأصحابه»[(٣)].

لما أسلم عمر بن الخطاب ﷺ لم يرض أن يستخفي كما يستخفي المسلمون، بل أصر على إعلان إسلامه، وإظهار دينه، والجهر بصلاته.

عباد الله! تعالوا بنا لنستمع إلى ابن عمر -رضي الله عنهما- وهو يخبرنا الخبر:

عن ابن عمر قال: «لما أسلم عمر قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي، فغدا عليه.

قال عبدالله: وغدوت أتبع أثره، وأنظر ما يفعل -وأنا غلام أعقل كل ما رأيت- حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أني أسلمت ودخلت في دين محمد ﷺ؟

قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه، واتبعه عمر واتبعته أنا، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش -وهم في أنديتهم حول الكعبة- ألا إن ابن الخطاب قد صبأ!

---

(١) «طبقات ابن سعد» (٣/ ٢٧٠) بإسناد صحيح.
(٢) «المعجم الكبير للطبراني» (٩/ ١٨١) بإسناد حسن.
(٣) «المعجم الأوسط للطبراني» (١/ ٣٣٤) بإسناد حسن.

قال: يقول عمر من خلفه: كذب، ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم.

قال: وطلح (أي أعيا) فقعد، وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاث مئة رجلٍ لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا قال: فبينما هم على ذلك؛ إذ أقبل شيخ من قريش -عليه حلة حبرة وقميص موشى- حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟

فقالوا: صبأ عمر! قال: فمه؛ رجل اختار لنفسه أمراً؛ فماذا تريدون؟! أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبكم هكذا؟! خلوا عن الرجل، قال: فوالله؛ لكأنما ثوباً كُشط عنه.

قال: فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى (المدينة): يا أبت! من الرجل الذي زجر القوم عنك بـ(مكة) يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟

قال: ذاك أي بني! العاص بن وائل السهمي[١].

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: «أول من جهر بالإسلام عمر بن الخطاب»[٢]، أسلم عمر وانتشر الخبر وازداد الكفار هماً وغماً، وازداد المسلمون فرحاً وعزة ومنعة بإسلام عمر.

عباد الله! ولم يكتف عمر ﷺ بذلك بل طلب من النبي ﷺ أن يُعلن إسلامه في كل مجلس كان يجلسه في الكفر.

---

(١) إسناده جيد قوي، انظر «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص١٩١).
(٢) رواه الطبراني، وإسناده حسن، كما في «المجمع» (٩/ ٦٣).

عن عمر ﷺ أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إني لا أدع مجلساً جلسته في الكفر إلا أعلنت فيه الإسلام، فأتى المسجد وفيه بطون قريش متحلقة، فجعل يُعلن الإسلام، ويشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

فثار المشركون، فجعلوا يضربونه ويضربهم، فلما تكاثروا خلصه رجل»[1].

عباد الله! أما الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من قصة إسلام عمر ﷺ:

أولاً: أن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل: فقد انتفع عمر بن الخطاب بدعاء النبي ﷺ.

فاحذر يا أيها المسلم أن تبخل على نفسك وعلى إخوانك بالدعاء، فالدعاء مستجاب، وليس شيء أكرم على الله -تبارك وتعالى- من الدعاء، فادع الله -تبارك وتعالى- واسأله من فضله.

ثانياً: يجوز للمسلم أن يدعو للكافر بالهداية، فقد دعا النبي ﷺ لعمر بن الخطاب بالهداية، فقال ﷺ: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب» فكان أحبهما إليه عمر بن الخطاب.

وقد دعا النبي ﷺ لأم أبي هريرة بالهداية، فعن أبي هريرة ﷺ قال: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله! إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله ثقات كما قال الهيثمي.

أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة، فقال ﷺ: «اللهم اهد أم أبي هريرة» فخرجت مستبشراً بدعوة النبي ﷺ فلما جئت فصرت إلى الباب وقرُبت منه، فإذا هو مجاف، فسمعتْ أمي خَشَفَ قدمي، فقال: مكانك يا أباهريرة، وسمعت خضخضة الماء، فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها، ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة! أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فأتيته وأنا أبكي من الفرح، فقلت: يا رسول الله! أبشر، فقد استجاب الله دعوتك، وهدى أم أبي هريرة فحمد الله وقال: «خيراً».

عباد الله! إذا كان الدعاء للكافر بالهداية جائز ومشروع، فالدعاء للمسلم العاصي بالتوبة والرجوع إلى الله من باب أولى، فإذا رأيت مسلماً عاصياً فادع الله أن يرده إلى الإسلام، وأن يعود إلى ربه، فدعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة عند الرب -تبارك وتعالى-.

ثالثاً: المسلم عزيز بإسلامه والكافر ذليل بكفره، فهذا عمر بن الخطاب اعتز بإسلامه فأعلن به بكل عزة وفخر أمام الكفار، كيف لا، وهو الذي قال: «كنا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام، فلو ابتغينا العزة بغير الإسلام أذلنا الله».

أمة القرآن: أما آن الأوان أن نعود إلى إسلامنا لنعتز به فقط، ولا نعتز بغيره، فيا عباد الله! الرجوع الرجوع إلى الإسلام فإن فيه والله العزة، وبه تنتصرون على أعدائكم.

اللهم رد المسلمين إلى دينهم رداً جميلاً.

الخطبة الثامنة عشرة

المقاطعة العامة والحصار الاقتصادي، وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها، رحلة رسول الله ﷺ إلى الطائف

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن الأحداث التالية:

أولاً: المقاطعة العامة والحصار الاقتصادي

ثانياً: وفاة أبي طالب وخديجة -رضي الله عنها-.

ثالثاً: رحلة رسول الله ﷺ إلى الطائف.

عباد الله! لما فشلت قريش في استعادة المسلمين من الحبشة، ورأت أن الناس يدخلون في دين الله، ويتبعون رسول الله ﷺ وعلى رأس هؤلاء حمزة ابن عبدالمطلب، وعمر بن الخطاب -رضي الله عنهما-، الذي ازداد المسلمون بإسلامهما فرحاً وعزة ومنعة، عزمت قريش على قتل رسول الله ﷺ.

عباد الله! وحدد النبي ﷺ المكان الذي تقاسمت فيه قريش على الكفر -يعني تحالفها على مقاطعة بني هاشم حتى يسلموا لهم رسول الله ﷺ ليقتلوه- فذكر أنه خيف بني كنانة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ من الغد يوم النحر وهو بمنى: «نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر».

يعني بذلك المُحَصَّبَ، وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبدالمطلب أو بني المطلب؛ أن لا يبايعوهم، ولا يناكحوهم حتى يسلموا إليهم

النبي ﷺ»[(١)].

عباد الله! لما رأى أبوطالب إصرار قريش على قتل النبي ﷺ، جمع بني عبد المطلب ودعاهم إلى الدخول بالنبي ﷺ في شعب أبي طالب، ودعاهم أيضاً إلى أن يمنعوا النبي ﷺ من كل من أراد قتله، فاجتمع على ذلك مؤمنهم وكافرهم، منهم من فعل ذلك حمية، ومنهم من فعل ذلك إيماناً ويقيناً.

فلما رأت قريش أن بني هاشم وبني عبدالمطلب دخلوا بالنبي ﷺ الشِّعب ليمنعوه ممن أراد قتله، اتفقوا فيما بينهم على مقاطعة عامة لبني هاشم وبني عبدالمطلب، وأجمعوا أمرهم أن لا يبايعوهم ولا يبتاعوا منهم، ولا ينكحوهم ولا ينكحوا منهم، حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ ليقتلوه، وكتبوا ذلك في صحيفة، وعلقوها في جوف الكعبة، ومضى على ذلك ثلاث سنين، فجُهد النبي ﷺ ومن معه جهداً شاقاً، وأنهكهم الجوع، وهم في ذلك صابرون محتسبون، واثقون من أن الله -تعالى- جاعل لهم من هذا الضيق فرجاً ومخرجاً.

عباد الله! فلم تمض الثلاث سنين على هذا الحصار وهذه المقاطعة حتى فرق الله كلمة المشركين، وفرق جمعهم، فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن سر هذه المقاطعة، وسبب هذا الحصار الذي فرضوه على بني هاشم وبني عبدالمطلب، ونفعه وضرره، وماذا جنوا منه وماذا استفادوا، فاجتمع رجال من قريش على نقض هذه الصحيفة الظالمة.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٥٩٠)، ومسلم (رقم ١٣١٤).

عباد الله! خرج النبي ﷺ ومن معه من الشعب، وقد أنهكهم الجوع، وأصابهم الضيق والشدة والبلاء، كل ذلك ببغي قريش وظلمها والله -عز وجل- يقول: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى:٤٠].

فرأى النبي ﷺ أن يدعو الله على قريش أن يصيبهم بمثل ما أصابهم فقال ﷺ: «اللهم سبعٌ كسبع يوسف».

أي سبع سنين جدباً، وفي رواية «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف»[1].

فأخذتهم سنة، محت كل شيء، حتى أكلوا أوراق الشجر والميتة والجيفة، وكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى الدخان من شدة الجوع، فلم يجدوا بداً من أن يأتوا رسول ﷺ ويسألونه أن يدعو الله ليفرج كربهم، فدعا لهم رسول الله ﷺ فسقوا الغيث ورفع الله ما نزل بهم.

عباد الله! إنها أخلاق النبوة

عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: لما رأى رسول الله ﷺ من الناس إدباراً قال: «اللهم! سبع كسبع يوسف» فأخذتهم سنة، حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام، فجاء أبوسفيان، وناس من أهل (مكة)، فقالوا: يا محمد! إنك تزعم أنك بُعثت رحمة، وإن قومك قد هلكوا؛ فادع الله لهم، فدعا رسول الله ﷺ فسقوا الغيث»[2].

عباد الله! وما أن خرج النبي ﷺ من الشعب حتى فاجأ المرض أباطالب

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٠٠٧)، ومسلم (رقم ٢٧٩٨).

(٢) صحيح، انظر «صحيح السيرة النبوية» الألباني (ص٢٢٧).

عم رسول الله ﷺ.

وكان أبوطالب «يحوط النبي ويغضب له»[١]، «وينصره»[٢]، وكانت قريش تحترمه.

عباد الله! أبوطالب أشرف على الموت، فأتاه النبي ﷺ يدعوه للإسلام لعله يموت عليه، ولكن الهدى هدى الله.

عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: لما حضرتْ أباطالب الوفاةُ دخل عليه النبيُّ ﷺ، فوجد عنده أبا جهل، وعبدالله بن أبي أمية، فقال له النبي ﷺ: «يا عم قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله». فقال أبوجهل وعبدالله بن أبي أمية: أي أبا طالب، أترغب عن ملة عبدالمطلب! قال: فكان آخر كلمة أن قال: على ملة عبدالمطلب. فقال رسول الله ﷺ: «لأستغفرت لك ما لم أنه عنك» فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة:١١٣-١١٤]. وأنزل الله -عز وجل- قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص:٥٦][٣].

عباد الله! وهكذا مات أبوطالب على الكفر، وخرج من الدنيا على غير لا إله إلا الله، إلا أن الله تفضل عليه بما قدم لرسول الله ﷺ، فشفَّع فيه رسول الله ﷺ فأخرجه من أسفل النار إلى أعلاها.

---

(١) رواه البخاري (رقم ٦٢٠٨).

(٢) رواه مسلم (رقم ٢٠٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٣٦٠)، ومسلم (رقم ٢٤).

عن العباس بن عبدالمطلب قال: قلت يا رسول الله! إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك؟ قال ﷺ: «نعم، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح من النار»(١).

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «أهون أهل النار عذاباً أبوطالب وهو ينتعل نعلين يغلي منهما دماغه»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: وذكر عنده عمه أبوطالب فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه»(٣).

ولكن لم يشفع له النبي ﷺ أن يخرج من النار، لأنه لا يخرج من النار من مات كافراً أبداً، وحرم الله الجنة على من مات كافراً أو مشركاً.

عباد الله! مات أبوطالب، ولم تمض إلا أيام قلائل حتى ماتت الزوجة الوفية الأمينة خديجة بنت خويلد -رضي الله عنها- فحزن عليها رسول الله ﷺ حزناً شديداً، وظل يذكرها بعد موتها بكل خير، ويثني عليها أحسن الثناء، حتى أن عائشة -رضي الله عنها- غارت منها بعد موتها ولم ترها، من كثرة ذكر الرسول ﷺ لها.

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت خديجة، وما رأيتها قط ولكن كان يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يُقطعها أعضاءً، ثم يبعثها في صدائق خديجة، وربما قلت له: كأن لم يكن

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٠٩).

(٢) رواه مسلم (رقم ٢١٢).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٨٨٥)، ومسلم (رقم ٢١٠).

في الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم بنت عمران»[٢].

جبريل عليه السلام يقرئ خديجة السلام من ربها، ويبشرها بقصر في الجنة قال أبوهريرة ﷺ: «أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب»[٣].

عباد الله! مات أبوطالب على الكفر، وماتت خديجة على الإيمان، لتعلموا يا عباد الله! أن الموت حق على الجميع على المؤمن والكافر وعلى الكبير والصغير وعلى الغني والفقير وعلى القوي والضعيف فما من أحدٍ منَّا إلا وسيأتيه الموت ويخرج من هذه الدنيا، لكن هنيئاً لمن خرج على الإيمان والعمل الصالح، وخاب وخسر من جاءته المنية وهو على الكفر ومعصية الله.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء:٣٥]. وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ [الرحمن:٢٦]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٨١٨)، ومسلم (رقم ٢٤٣٣).

(٢) صحيح رواه أحمد (٢٦٦٨).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٨٢٠)، ومسلم (رقم ٢٤٣٢).

وقال جبريل عليه السلام لرسولنا ﷺ: «يا محمد عش ما شئت فإنك ميت..».

ابن آدم!

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته — يبقى الإله ويفنى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه — والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له — والإنس والجن فيما بينها تردوا
أين الملوك التي كانت لعزتها — من كل أوب إليها وافد يفدُ
حوض هنالك مورود بلا كذب — لا بد من وروده يوماً كما وردوا

عباد الله!

نسير إلى الآجال في كل لحظة — وأيامنا تطوى وهن مراحل
ولم أر مثل الموت حقاً كأنه — إذا ما تخطته الأماني باطل
وما أقبح التفريط في زمن الصبا — فكيف به والشيب للرأس شاعل
ترحل من الدنيا بزاد من التقى — فعمرك أيام وهن قلائل

عباد الله! لما مات أبوطالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، فرأى رسول الله ﷺ أن يغير البيئة، وأن يخرج بالدعوة من مكة إلى غيرها، لعله يجدُ من القبائل والعشائر من يقبل الدعوة، ويحميه حتى يبلغ رسالة ربه، فخرج إلى الطائف ماشياً يلتمس النصرة من ثقيف، رجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله -عز وجل-، ولكنها لم تستجب له، وأغرت به صبيانها فرشقوه بالحجارة حتى أدموه، فقابل ذلك بالصبر والرضا وخرج عائداً إلى مكة، مهموماً حزيناً فبعث الله له ملك الجبال لينتقم منهم، فقابل الإساءة بالإحسان والعفو

والصبر، ولم يوافق ملك الجبال على هلاكهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧].

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قلت يا رسول الله! هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟

قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة (يعني عقبة الطائف)، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد! إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ -جبلان بمكة-، فقال له رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً»[(١)].

إنها أخلاق النبوة، إنها الرحمة، ورجع النبي ﷺ إلى مكة، وكان بيده أن يتخلص من الكفار، وأن يستريح من شرهم، وأن يمسك هو الحكم ليقوم بما يريد، ولكن ليس بهذه الطريقة جاء الأنبياء إلى هذه الأرض، إنهم جاءوا لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ولإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٢٣١)، ومسلم (رقم ١٧٩٥).

عباد الله! أما الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من هذه الأحداث فهي:

أولاً: المقاطعة العامة والحصار الاقتصادي، ومطاردة الناس في أرزاقهم؛ من أخلاق الكفرة من قديم الزمان وإلى يومنا هذا، ففي مكة فعلت قريش ذلك برسول الله ﷺ وأصحابه، وحاصروهم في شعب أبي طالب، وإلى يومنا هذا الكفار يضربون الحصار الاقتصادي، والحظر على بلاد المسلمين، نقول للكفار في كل مكان: أرزاق العباد بيد الله وليست بأيديكم، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [سبأ:٢٥] ونقول للكفار: إن الله -عز وجل- بفضله وكرمه ورحمته، لم يكل رزق العباد إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝﴾ [الذاريات:٢٢-٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝﴾ [الذاريات:٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝﴾ [هود:٦].

عباد الله! أيرزق الله الدواب والطيور وينسى الذين يقولون: لا إله إلا الله، أيرزق الله الكفرة الفجرة الذين يحاربون الله ويحاربون دينه وعباده، ويحرم الذين يعبدونه وينصرون دينه!!

قال ﷺ: «إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله»[1].

وقال ﷺ: «لو أن ابن آدم هرب من الرزق كما يهرب من الموت،

---

(١) «صحيح الجامع» (١٦٢٦).

لأدركه رزقه كما يدركه الموت»[1].

ولذلك قال ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله، لا ينال إلا بطاعته»[2].

ثانياً: الرحمة والعفو والصفح من أخلاق رسولنا ﷺ، فقد فعل الكفار ما فعلوا برسول الله ﷺ وأصحابه، ولما دعا عليهم الرسول ﷺ بسبع كسبع يوسف واستجاب الله له فيهم، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يدعو الله أن يرفع عنهم ذلك العذاب، فدعا رسول الله ﷺ ربه أن يغيثهم.

وعندما اعتدى أهل الطائف على رسول الله ﷺ ورشقوه بالحجارة حتى أدموه، وجاء ملك الجبال يطلب من رسول الله ﷺ أن يأمره أن يطبق على الكفار الجبلين، رفض رسول الله ﷺ ذلك وقال: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئاً»

إنها أخلاق النبوة.. كيف لا والله -عز وجل- يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم:٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة:١٢٨].

ثالثاً: على الدعاة أن يصبروا على دعوتهم وعلى إيذاء الناس لهم، فلا يأس ولا قنوط من إسلام الكفرة والفجرة، ولا من توبة العصاة الفسقة،

---

(١) «صحيح الجامع» (٥١١٦).

(٢) صحيح بشواهده، انظر «صحيح الجامع» (٢٠٨١).

فقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وكم من رجل خرج ليلاً ليقتل النبي ﷺ فما أصبح إلا وهو من أتباعه، فلا يجوز للداعي أن ييأس من الناس، ولا يجوز أن يقنط من الناس، فالله -عز وجل- هو الهادي، والداعي ما عليه إلا البيان، وأجره على الله.

رابعاً: جليس السوء يضر صاحبه في الحياة الدنيا، وعند الموت، ويوم القيامة، فقد تبين لكم أن جليس السوء -وهو أبوجهل- قد أضر بصاحبه عندما قال له رسول الله ﷺ: «يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله» فقال له أبوجهل: يا أباطالب، أترغب عن ملة عبدالمطلب، فخرج الرجل من الدنيا على ملة عبدالمطلب -على الكفر- وهكذا الجليس السوء.

ولكن إذا جلس الجليس الصالح عند صاحبه عند الموت قال له: (قل لا إله إلا الله) فيقولها.

والرسول ﷺ يقول: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[1].

اللهم إنا نسألك الجنة ونعوذ بك من النار.

---

(١) حسن، انظر «أحكام الجنائز» (ص٤٨).

الخطبة التاسعة عشرة

الإسراء والمعراج

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن الإسراء والمعراج.

عباد الله! الإسراء والمعراج كان مكافأة ربانية، ومواساة للرسول ﷺ بعد الحصار الظالم الذي استمر ثلاث سنوات في شعب أبي طالب، وبعد وفاة الناصر الحميم أبي طالب، والزوجة الوفية الأمينة خديجة -رضي الله عنها-، وبعد رحلة الطائف الأليمة.

فكانت هذه الرحلة الربانية، التي أكرم الله -تبارك وتعالى- فيها رسوله ﷺ؛ ليُذهب عن صدره الآلام والأحزان.

عباد الله! الإسراء: هو ذهاب الله -تبارك وتعالى- بنبيه محمد ﷺ، راكباً على البراق، من المسجد الحرام بمكة، إلى المسجد الأقصى في القدس، في جزء من الليل ثم رجوعه من ليلته.

والمعراج: هو صعود الرسول ﷺ، من المسجد الأقصى في تلك الليلة، بعد إسرائه إلى السموات العلى، ثم إلى سدرة المنتهى، ثم رجوعه إلى بيت المقدس في تلك الليلة.

عباد الله! حادث الإسراء والمعراج ثابت بالكتاب والسنة.

ففي كتاب ربنا، ذكر الله تعالى الإسراء وحكمته بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾ [الإسراء:١].

-ويستفاد من هذه الآية ما يلي-:

أولاً: بدأ الله الآية بـ(سبحان) لأن من قدر على هذا فهو مستحق للتنزيه والتقديس.

ثانياً: في ذكر العبد في هذا المقام تشريفٌ، ولذلك وصف الله رسوله بالعبودية في أشرف المقامات:

ففي مقام التنزيل قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾ [الكهف:١].

وفي مقام الدعوة قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ۝١٩﴾ [الجن:١٩].

وفي مقام التحدي قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣].

وفي مقام الإسراء قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:١].

وفي ذكر العبد في هذا المقام أيضاً تحذير أن يتخذ الإسراء وسيلة لرفع الرسول ﷺ من مقام العبودية إلى مقام الألوهية، وكان النبي ﷺ ينهى عن الإطراء والغلو حتى لا يقع الناس في الشرك، فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبدالله ورسوله»[١].

ثالثاً: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ بمكة،

---

(١) رواه البخاري (رقم ٣٤٤٥).

وسمى حراماً لحرمته وهو أول بيت وضع في الأرض، ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ بفلسطين: وسمى بالأقصى لبعده عن المسجد الحرام، وهو ثاني بيت بني لله في الأرض، سئل ﷺ: «أي بيت وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام. قيل: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قيل: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة»[1].

رابعاً: وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ فالمسجد الأقصى مبارك، والأرض التي حوله مباركة، وهي بركات دينية ودنيوية.

خامساً: وفي قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ تلك هي حكمة الإسراء، لقد رأى النبي ﷺ في رحلته؛ ما اذهب عن صدره الآلام والأحزان والروع والخوف، وليربط على قلبه وليثبت فؤاده، وليكون من المؤمنين أن الله معه ولن يتخلى عنه، وأن الله ناصره.

عباد الله! وفي كتاب ربنا ذكر الله قصة المعراج وثمرته في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ يعني جبريل ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم:١٣-١٨].

فالإسراء والمعراج ثابت في كتاب ربنا.

وكان بالروح والجسد وفي اليقظة لقوله تعالى: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ والعبد لا يكون إلا بالروح والجسد، ولقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ والبصر

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٣٦٦)، ومسلم (رقم ٥٢٠).

يكون في الجسد.

وفي قولـه ﷺ: «لما كذبتني قريش قمت في الحجر فَجَلَّى الله ليَ بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته»[١].

فلو أنه ﷺ أخبرهم بأنها رؤيا رآها لما اختبروه بالسؤال عن آياته وعلاماته.

عباد الله! والإسراء والمعراج ثابت في سنة نبينا ﷺ، فتعالوا بنا لنستمع إلى رسول الله ﷺ وهو يخبرنا خبر الإسراء والمعراج.

قال رسول الله ﷺ: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل عليه السلام، ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمةً وإيماناً، فأفرغه في صدري ثم أطبقه»[٢].

عباد الله! بعد أن فرغ جبريل عليه السلام من عملية شق الصدر وغسله ولأمه لرسول الله ﷺ بدأ الإسراء من المسجد الحرام، إلى المسجد الأقصى على البراق.

قال رسول الله ﷺ: «أتيت بالبراق -وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه- فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد، فصليت فيه تحية المسجد ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل عليه السلام: اخترت الفطرة»[٣].

عباد الله! ومن هناك من المسجد الأقصى بدأت رحلة المعراج فعُرج

---

(١) رواه البخاري (رقم ٤٧١٠).

(٢) رواه البخاري (رقم ٣٣٤٢).

(٣) رواه مسلم (رقم ١٦٢).

بالنبي ﷺ، من المسجد الأقصى، إلى السموات العلى، إلى سدرة المنتهى، إلى حيث شاء الله.

قال ﷺ: «ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا -صلوات الله عليهما- فرحبا بي ودَعَوا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل عليه السلام: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف عليه السلام وقد أعطى شطر الحسن، فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قال: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بإدريس، فرحب بي ودعا لي بخير.

قال الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم:٥٧].

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل قيل: من؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون ﷺ فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل:

من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسى عليه السلام فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. قال: ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم ﷺ، مسنداً ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشى، تغيرت فما أحدٌ من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها.

فأوحى الله إلي ما أوحى، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى ﷺ، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة في كل يوم وليلة.

قال: ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم.

قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب خفف على أمتي، فحط عني خمساً، فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمساً.

قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربي -تبارك وتعالى- وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد! إنهن خمس صلوات في كل يوم وليلة لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت

له عشراً، ومن هم بسيئه فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة، قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال رسول الله ﷺ: فقلت: قد رجعت إلي ربي حتى استحييت منه»[1].

عباد الله! وهكذا كان الإسراء والمعراج -تلك الرحلة العجيبة- تم في جزءٍ من الليل، وعاد النبي ﷺ من رحلته والناس نيام لم يشعر أحدٌ بذلك.

عباد الله! كفار مكة وخبر الإسراء والمعراج.

الذين كذبوا أن يقع وحيٌ على الأرض أتراهم يصدِّقون به في السماء؟ تعالوا بنا يا عباد الله! لنستمع إلى رسول الله ﷺ وهو يخبرنا عن حال قريش عندما وصلهم الخبر، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسري بي، وأصبحت بمكة، فظعْتُ بأمري وعرفتُ أن الناس مكذِّبيَّ»، قال: فقعد معتزلاً حزيناً، فمرَّ به عدوُّ الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمُستهزئ: هل كان من شيء؟

فقال رسول الله ﷺ: «نعم».

قال: ما هو؟ قال: «إنه أُسري بي الليلة».

قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس».

قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم».

قال: فلم يُره أنه يُكذِّبه، مخافه أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه.

---

(١) رواه مسلم (رقم ١٦٢).

قال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني؟

فقال رسول الله ﷺ: «نعم».

فقال: هيا معشر بني كعب بن لؤي. فانتفضت إليه المجالس وجاؤوا حتى جلسوا إليهما.

قال (أي أبوجهل): حدث قومك بما حدَّثتني.

فقال رسول الله ﷺ: «إني أسري بي الليلة».

قالوا: إلى أين؟

قال: «إلى بيت المقدس».

قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟!

قال: «نعم».

قال: فمن بين مُصَفِّق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب زعم!

قالوا: وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد، ورأى المسجد.

فقال رسول الله ﷺ: «فذهبت أنعتُ، فما زلت أنعتُ حتى التبس عليَّ بعض النعت».

قال: «فجيء بالمسجد وأنا أنظر حتى وضع دون دار عِقالٍ -أو عقيل- فنعتُّه، وأنا أنظر إليه».

فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب»[1].

---

(١) إسناده حسن، «مسند الإمام أحمد» رقم (٢٨١٩- ط المؤسسة)، و«فتح الباري» (٧/ ٢٣٩).

ومع ذلك ما زادهم ذلك إلا نفوراً.

عباد الله! وفي هذا الحديث معجزات للنبي ﷺ:

المعجزة الأولى: رفع الله المسجد الأقصى من بيت المقدس في فلسطين، وجاء به ووضعه في مكة أمام النبي ﷺ، ينظر إليه قريباً من دار عِقال أو عقيل.

المعجزة الثانية: أن النبي وحده هو الذي يرى المسجد الأقصى دون كل من حوله من الناس.

المعجزة الثالثة: بعد أن انتهت المهمة رد الله المسجد الأقصى مكانه حيث كان أولاً ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم:٢٠].

فهذا سليمان عليه السلام، لما طلب عرش بلقيس أن يأتيه من اليمن إلى بيت المقدس ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٣٨-٤٠].

فالله على كل شيء قدير، وإذا أراد أمراً أن يقول له كن فيكون، فالله يكرم أوليائه وأنبيائه بما شاء من الكرامات والمعجزات.

عباد الله! وكفار مكة بعد ما سمعوا من رسول الله ﷺ النعت وقالوا: «أما النعت فوالله لقد أصاب».

ما زادهم ذلك إلا نفوراً، وأبى الظالمون إلا كفوراً فانطبق عليهم قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ

أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَـٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر:٢-٥].

فإذا كان هذا حالهم يقول الله -عز وجل- لرسول الله ﷺ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ واتركهم ليوم عظيم: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر:٦-٨].

عباد الله! أبوبكر الصديق وخبر الإسراء والمعراج.

أما أبوبكر الصديق عندما وصله الخبر ماذا قال:

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: لما أُسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى؛ أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتدّ ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه؟ وسعوا بذلك إلى أبي بكر ﷺ فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال ذلك؟

قالوا: نعم.

قال: لئن كان قال ذلك؛ لقد صدق.

قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟! قال: نعم؛ إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحه؛ فلذلك سُمي أبوبكر: الصديق»[1].

أمة الإسلام! الإسراء والمعراج فيها دروس وعظات وعبر عظيمة فما هي

---

(١) «السلسلة الصحيحة» رقم (٣٠٦).

العظات والعبر التي تؤخذ من حادث الإسراء والمعراج؟

هذا ما سنعرفه في الجمعة القادمة -إن شاء الله تعالى-.

اللهم رد المسلمين إلى دينك رداً جميلاً.

الخطبة العشرون

الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من الإسراء والمعراج

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن الدروس والعظات والعبر؛ التي تؤخذ من قصة الإسراء والمعراج.

عباد الله! في الجمعة الماضية تبين لنا أنه أسري برسولنا ﷺ إلى السموات العلى، إلى سدرة المنتهى إلى حيث شاء الله -تبارك وتعالى- وقد فرض الله -تبارك وتعالى- على رسولنا ﷺ الصلاة، وقد رأى رسولنا ﷺ من آيات ربه الكبرى، ثم عاد إلى المسجد الأقصى، ثم إلى المسجد الحرام في نفس الليلة، وكان ذلك بالروح والجسد، وفي اليقظة لا في المنام، وقد تبين لنا أن الإسراء والمعراج ثابت بالكتاب والسنة.

أمة الإسلام! قصة الإسراء والمعراج فيها دروس وعظات وعبر كثيرة جداً منها:

أولاً: أهمية المسجد الأقصى في الإسلام.

عباد الله! إذا كنتم قد نسيتم المسجد الأقصى فها نحن نذكركم به؛ المسجد الأقصى هو ثاني مسجد وضع في الأرض؛ لعبادة الله وتوحيده.

سئل ﷺ: أي بيت وضع في الأرض أول؟

فقال ﷺ: «المسجد الحرام» قيل: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قيل: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون سنة»[1].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٣٦٦)، ومسلم (رقم ٥٢٠).

المسجد الأقصى رفع بناءه وجدده سليمان بن داود عليهما السلام: عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ أن سليمان بن داود عليهما السلام لما بنى بيت المقدس -أي المسجد الأقصى- (وفي رواية: لما فرغ من بناء مسجد بيت المقدس)، سأل الله -عز وجل- خلالاً ثلاثة..» الحديث[(١)].

الشاهد منه يا عباد الله! أن الذي رفع بناء المسجد الأقصى وجدده؛ هو سليمان بن داود عليهما السلام.

المسجد الأقصى هو قبلة المسلمين الأولى.

عن البراء ﷺ، أن رسول الله ﷺ صلَّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت..» الحديث[(٢)].

فكان ﷺ يقلب وجهه في السماء، يرغب، ويسأل ربه أن يحول قبلته إلى المسجد الحرام، فاستجاب الله له، قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة:١٤٤].

أمة الإسلام! المسجد الأقصى مسجد مبارك، بارك الله فيه وحوله من بركات الدنيا والدين، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ

---

(١) «صحيح سنن النسائي»، (رقم ٦٦٩)، «صحيح ابن ماجه» (رقم ١٤٠٨).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٠)، ومسلم (رقم ٥٢٥).

ﭐلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ [الإسراء:١] وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ [الأنبياء:٧١] وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾ [الأنبياء:٨١] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝١٨﴾ [سبأ:١٨].

المراد بها المسجد الأقصى.

فهذه البلاد المباركة المقصود منها، هي بيت المقدس، نسأل الله -تبارك وتعالى- أن يردها للمسلمين من أيدي اخوة القردة والخنازير.

أمة الإسلام! الصلاة في المسجد الأقصى فضلها عظيم.

عن عبدالله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ، أن سليمان بن داود عليهما السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله -عز وجل- خلالاً ثلاثة: سأل الله -عز وجل- حُكماً يُصادفُ حكمه فأُوتيه، وسأل الله -عز وجل- ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأُوتيه، وسأل الله -عز وجل- حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحدٌ لا ينهزهُ -أي يدفعه- إلا الصلاةُ فيه، أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمة (وفي رواية: فقال النبي ﷺ: «أمَّا اثنتان فقد أعطيهما وأرجو أن يكون قد أُعطي الثالثة»[١].

وعن أبي ذر ﷺ قال: تذاكرنا ونحن عند رسول الله ﷺ أيهما أفضل، أمسجد رسول الله ﷺ أم بيت المقدس؟.

---

(١) مضى قريباً.

فقال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي أفضل من أربع صلوات فيه، ولنعم المصلى هو..» الحديث[1].

فتكون الصلاة في المسجد الأقصى بمئتين وخمسين صلاة.

أمة الإسلام! أنسيتم المسجد الأقصى! هو مسرى رسول الله ﷺ، ومنه عرج به إلى السماء.

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾.

وقال ﷺ: «... ثم ربط البراق في الحلقة التي تربط فيها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت تحية المسجد ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء فيه خمر، وإناء فيه لبن فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلى السماء..» الحديث

أي عرج من المسجد الأقصى إلى السماء، وفي هذه إشارة أنه كما أن النبوة انتقلت من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل إلى رسولنا ﷺ، فهذه بشرى للنبي ﷺ وأصحابه والمسلمين إلى يوم القيامة بأن قيادة البشرية ستنتقل من أيدي بني إسرائيل، لأنهم عصوا الله وملأوا الأرض غدراً وخيانة، ستنتقل إلى الأمة الإسلامية، بقيادة رسولها ﷺ وقد فتحت الأمة الإسلامية الدنيا من مشرقها إلى مغربها، لما كانوا متمسكين بدينهم، وبسنة رسولهم لكن لما انشغلوا بالدنيا وحطامها فقد ضيعوا الدنيا والبلاد من مشرقها إلى مغربها، ولذلك، نقول إذا أردتم يا أمة الإسلام أن يعود الأقصى إليكم وتحرروا أرضكم من الكفار

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (٢٩٠٢).

فعليكم أن تعودوا إلى دينكم وأن تتمسكوا بدينكم وسنة نبيكم، إن فعلتم ذلك نصرتم الله في أنفسكم وإن نصرتم الله في أنفسكم نصركم الله على عدوكم: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝﴾.

أمة الإسلام! المسجد الأقصى من المساجد التي تشد لها الرحال.

قال ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي»[1].

وشد الرحال تكون للصلاة في هذه المساجد أو الاعتكاف فيها، أما شد الرحال إلى الأضرحة والقبور والأولياء، فهذا حرام ولا يجوز في شريعة الإسلام.

عباد الله! ومن الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من الإسراء والمعراج.

ثانياً: أهمية الصلاة في الإسلام.

أمة الإسلام! الصلاة، الصلاة، فلأهميتها فرضها الله على رسوله ﷺ هناك فوق السموات، بعد سدرة المنتهى مباشرة وبدون واسطة.

عباد الله! الصلاة هي عمود الدين الذي لا يقوم إلا به.

قال ﷺ لمعاذ ﵁: «ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده وذِرْوة سنامه» قلت: بلى يا رسول الله قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»[2]

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١١٩٧)، ومسلم (رقم ٨٢٧).

(٢) «رياض الصالحين» رقم (١٥٣٠) تحقيق الألباني.

الصلاة هي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر، قال ﷺ: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت، فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر»(١).

الصلاة هي آخر وصية وصى بها رسول الله ﷺ أمته، فقال ﷺ في أنفاسه الأخيرة: «الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم».

الصلاة هي آخر ما تبقى لنا من ديننا، يقول ﷺ: «أول ما يرفع من الناس الأمانة، وآخر ما يبقى من دينهم الصلاة، ورب مصل لا خلاق له عند الله تعالى»(٢).

الصلاة تجارة رابحة، يقول رب العزة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ [فاطر:٢٩].

الصلاة تمحو الذنوب والخطايا، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود:١١٤].

وقال ﷺ: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»(٣).

وقال ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟

قالوا: بلى يا رسول الله؟

---

(١) «رياض الصالحين» رقم (١٠٨٨) الألباني.

(٢) «صحيح الجامع» (٢٥٧٢).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٥٢٨)، ومسلم (رقم ٦٦٧).

قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذالكم الرباط»(١).

الصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

الصلاة سبب للتمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [الحج:٤١].

الصلاة سبب لنزول الرحمة على العباد، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾ [التوبة:٧١].

الصلاة سبب لدخول الجنة، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون:١-١١].

أولى هذه الصفات الذين هم في صلاتهم خاشعون، وآخر هذه الصفات، والذين هم على صلواتهم يحافظون.

---

(١) رواه مسلم (رقم ٢٥١).

أمة الإسلام! ومع ذلك فقد ضيع الكثير من الناس الصلاة.

أنسي هؤلاء الذين ضيعوا الصلاة أن من أول أسباب دخول النار ترك الصلاة، قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾ [المدثر:٤٢-٤٣].

أنسي الذين تركوا الصلاة أن بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة، قال ﷺ: «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة»[١]، وقال ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»[٢].

أمة الإسلام! اتقوا الله في الصلاة، فإنكم ستسألون عنها يوم القيامة.

عباد الله! من الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من قصة الإسراء والمعراج.

ثالثاً: التحذير من الغيبة والخوض في أعراض المسلمين، وأكل لحوم الأبرياء:

قال ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم.

فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟

قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»[٣].

عباد الله! الذين يغتابون المسلمين، ويأكلون لحوم الأبرياء في مجالسهم،

---

(١) رواه مسلم (رقم ٢٨٢).

(٢) «رياض الصالحين» رقم (١٠٨٦)، تحقيق الألباني.

(٣) «رياض الصالحين» رقم (١٥٣٤) تحقيق الألباني.

هذا عذابهم في حياة البرزخ جزاءً وفاقاً، ولا يظلم ربك أحداً، فليتق الله كل منا في لسانه، لأن اللسان إذا أُطلق في أعراض المسلمين أدخل صاحبه النار قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ۝٤٧﴾ [المدثر:٤٢-٤٧].

أي: كنا في الدنيا نخوض بألسنتنا بالباطل وأكل لحوم الأبرياء

وعن أبي هريرة ﷺ: «أن رجلاً قال: يا رسول الله إن فلانة تُذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها» -أي النافلة- «ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها، فقال ﷺ: «هي في النار».

قال رسول الله ﷺ! إن فلانة تُذكر من قلة صلاتها وصيامها وصدقتها، ولكنها لا تؤذى جيرانها بلسانها، قال ﷺ: «هي في الجنة».

وعن معاذ ﷺ قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟

قال ﷺ: «لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه» فبعد أن أخبره ودله على أبواب الخير.

قال ﷺ له: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله».

قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: «كف عليك هذا».

قلت: يا رسول الله! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟

فقال: «ثكلتك أمك، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا

حصائد ألسنتهم؟»[١].

وقال ﷺ للرجل عندما سأله: ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك؟»[٢].

وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[٣].

وقال رجل يا رسول الله! أي المسلمين أفضل، فقال ﷺ: «من سلم المسلمون من لسانه ويده»[٤].

وقد حذر النبي ﷺ الذين يأكلون لحوم الناس بألسنتهم، فقال ﷺ: يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم، تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته، يفضحه ولو في جوف بيته»[٥].

فاتقوا الله يا معشر المسلمين في ألسنتكم وأمسكوها عن أعراض المسلمين، وعن الغيبة، فإنكم راجعون إلى الله وموقوفون بين يديه، وسائلكم عن ألسنتكم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء:٣٦].

عباد الله! ومن الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من قصة الإسراء والمعراج

---

(١) «رياض الصالحين» رقم (١٥٣٠) تحقيق الألباني.

(٢) «رياض الصالحين» رقم (١٥٢٨) الألباني.

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٦٠١٨)، ومسلم (رقم ٤٧).

(٤) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١١) ومسلم (رقم ٤٢).

(٥) «صحيح الجامع» (٧٨٦١).

رابعاً: التحذير من خطباء السوء الذين يقولون ما لا يفعلون، والذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، والذين يدعون الناس إلى كل شر الذين يدعون الناس إلى الشرك والبدع والخرافات، الذين يدعون الناس إلى الحزبية البغيضة التي فرقت الأمة، الذين يحرضون المسلمين على ولاة أمرهم ليفسدوا في الأرض.

قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي -رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت: يا جبريل! من هؤلاء؟

قال: هؤلاء خطباء من أمتك، يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب؛ أفلا يعقلون؟!»[1].

فهذا الخطيب الذي يقول للناس هذا حرام ثم يفعله، ويقول لهم هذا حلال ولا يفعله، خطيب السوء الذي يأمر بالبر وينسى نفسه، يأمر الناس بالحجاب وينسى امرأته وابنته، يأمر الناس أن يبتعدوا عن البنوك ويضع ماله في البنوك، يأمر الناس بالمحافظة على الصلاة وهو يضيع الصلاة، يحذر الناس من الكذب وهو يكذب، يحذر الناس من الغيبة والنميمة وهو واقع فيها هذا خطيب لا عقل له، قال رب العزة: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة:٤٤].

ونقول لهذا الخطيب:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام من الضنا ... كيما يصح به وأنت سقيم

(١) قال الشيخ الألباني رحمه الله حديث حسن انظر كتاب «الإسراء والمعراج» ص(٥٢).

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

والله سبحانه وتعالى يمقت ذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف:٢-٣].

وقد أخبر النبي ﷺ عن عذاب الذي يقول للناس ويخالف بفعله ما يقول، فقال ﷺ: «يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»(١).

أمة الإسلام! خطباء السوء «دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، وهم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا»(٢).

فاحذروهم يا عباد الله!.

فهذا حذيفة ﵁ قال: يا رسول الله: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم» قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال ﷺ: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»(٣).

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٢٦٧)، ومسلم (رقم ٢٩٨٩).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٦٠٦)، ومسلم (رقم ١٨٤٧).
(٣) متفق عليه، قطعة من الحديث الذي قبله.

فيا **أمة الإسلام!** فوالله إني لكم لناصح أمين، فإن وجدتم المنابر قد صعد إليها الخطباء الذين يدعون إلى الحزبية البغيضة، ولا هم لهم إلا أن يحرضوا الناس على ولاة الأمر، ويجعلون بلاد المسلمين بركة من الدماء، فاحذروهم، وارجعوا إلى عقيدة التوحيد وإلى منهج رسول الله ﷺ وإلى ما كان عليه الصحابة، كما قال ربنا -جل وعلا-: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠]، وكما قال النبي ﷺ: «وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلهم في النار إلا واحدة» قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: «التي تكون على ما أنا عليه اليوم وأصحابي»(١).

وقال ﷺ: «وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين عضوا عليه بالنواجذ»(٢).

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجعلني وإياكم من المتبعين لرسوله ﷺ.

---

(١) حسن بشواهد.

(٢) صحيح، أخرجه أبوداود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦).

الخطبة الحادية والعشرون

بيعة العقبة

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن بيعة العقبة الأولى والثانية.

أمة الإسلام! تكلمنا في الجمعة قبل الماضية أنه أُسري برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج برسولنا ﷺ إلى السموات العلى إلى سدرة المنتهى، إلى حيث شاء الله، وهناك فرض الله -تبارك وتعالى- على رسولنا ﷺ وعلى أمته خمس صلوات في اليوم والليلة، وقد رأى النبي ﷺ -في رحلة المعراج- من آيات ربه الكبرى، ورأى ﷺ في رحلته قوماً لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم، ورأى النبي ﷺ في رحلته قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: يا جبريل! من هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك، يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب؛ فلا يعقلون؟!»

وقد تكلمنا في الجمعة الماضية عن الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من رحلة الإسراء والمعراج

أولاً: منزلة الأقصى في الإسلام.

ثانياً: منزلة الصلاة في الإسلام.

ثالثاً: التحذير من إطلاق اللسان في أعراض المسلمين، ومن أكل لحوم الأبرياء.

رابعاً: التحذير من خطباء السوء الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون بخلاف ما يقولون، الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون.

عباد الله! رجع رسول الله ﷺ من رحلة الإسراء والمعراج قرير العين، منشرح الصدر، مطمئن القلب، عازماً على مواصلة الدعوة إلى الله، واثقاً من أن الله ناصره، ومظهر دينه. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف:٩].

عباد الله! لم يدعْ رسول الله ﷺ فرصة للاجتماع بالناس وتبليغهم الدعوة -وخاصة في موسم الحج عندما تقبل القبائل إلى مكة-، وكان مما خاطب به رسول الله ﷺ الناس في الموقف: «هل من رجل يحملني إلى قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي -عز وجل-؟!»[1].

عباد الله! «لما أراد الله إظهار دينه، وإعزاز نبيه، وإنجاز موعده له خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً، قال لهم رسول الله ﷺ: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج قال: من موالي يهود؟ قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى.

فجلسوا معه فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.. فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.

---

(١) «صحيح سنن أبي داود» (٣٩٦٠).

وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك. فسنُقدم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك!! ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم، قد آمنوا وصدقوا»[١].

عباد الله! لما رجع هؤلاء إلى المدينة ذكروا لقومهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام، وفشا فيهم ذكر رسول الله ﷺ فلم تبق دارٌ إلا دخلها الإسلام، حتى إذا استدار العام، وأقبل موسم الحج، خرج من المدينة اثنا عشر رجلاً من الذين أسلموا -فيهم الستة الذين كلمهم النبي ﷺ في الموسم السابق- وعزموا على الاجتماع برسول الله ﷺ فلقيهم رسول الله ﷺ بالعقبة -بمنى- وعقد معهم بيعة (وهي بيعة العقبة الأولى).

عن عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتون ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه، قال فبايعناه على ذلك»[٢].

عباد الله! لما عزم القوم على العودة إلى المدينة، بعث معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير ﷺ وأمره أن يُقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين.

---

(١) قال الشيخ الألباني: إسناده حسن انظر «فقه السيرة» (ص١٤٥).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٨)، ومسلم (رقم ١٧٠٩).

فقام مصعب ﷺ بمهمته خير قيام، يدعو الناس إلى عبادة الله بالحكمة والموعظة الحسنة، متذرعاً بالحلم والصبر الذي تعلمه من رسول الله ﷺ، فانتشر الإسلام في المدينة وغيرها على يديه ﷺ.

وقبل حلول موسم الحج التالي عاد مصعب بن عمير ﷺ إلى مكة، ليبشر رسول الله ﷺ بانتشار الإسلام ويخبره بحصيلة دعوته في ذلك العام.

وكأنه يقول له: يا رسول الله إن المدينة تتهيأ لاستقبالك أنت ومن معك من المسلمين.

إخوة الإسلام! ولما انتشر الإسلام في المدينة، واطمأن المسلمون المهاجرون بين إخوانهم الأنصار، وبقي رسول الله ﷺ في مكة يُلاقي عنت قريش وأذاها الذي كان يشتد على مر الأيام، قدم وفد الأنصار في موسم الحج فبايعوا بيعة العقبة الثانية. وممن حضر هذه البيعة جابر بن عبدالله الأنصاري، وهو يخبرنا الخبر: عن جابر ﷺ قال: «مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين؛ يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة، وفي المواسم بمنى؛ يقول: «من يؤويني، من ينصرني، حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة؟» حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر -كذا قال- فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش؛ لا يفتنك. ويمشي بين رحالهم، وهم يشيرون إليه بالأصابع؛ حتى بعثنا الله إليه من يثرب، فآويناه، وصدقناه، فيخرج الرجل منا، فيؤمن به، ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعاً، فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يُطرد في جبال مكة ويخاف؟ فرحل إليه منا سبعون رجلاً، حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى توافينا،

فقلنا: يا رسول الله! نبايعك؟ قال: (فذكر الحديث). قال: فقمنا إليه، فبايعناه، وأخذ بيده ابن زرارة -وهو من أصغرهم- فقال: رويداً يا أهل يثرب! فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جُبْنَة، فبينوا ذلك؛ فهو عذر لكم عند الله. قالوا: أمط عنا يا سعد! فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً، ولا نسلبها أبداً. قال: فقمنا إليه، فبايعناه، فأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة»(١).

وتمت البيعة، وبايع الأنصار رسول الله ﷺ على الطاعة والنصرة والحرب لذلك سماها عبادة بن الصامت ﷺ: بيعة الحرب، وممن حضر هذه البيعة كعب بن مالك الأنصاري ﷺ وهو أحد المبايعين في بيعة العقبة الثانية يخبرنا عما حدث في هذه البيعة.

عن كعب بن مالك ﷺ قال: «خرجنا في حجاج قومنا من المشركين..، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق.. وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا.. فقمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله، نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا.. فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتى

(١) صحيح، أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٢-٣٢٣) وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٢٦٣)، إسناده جيد، وقال الألباني في «الصحيحة» (٦٣)، إسناده صحيح على شرط مسلم.

جاءنا ومعه العباس بن عبدالمطلب -وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له- فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبدالمطلب فقال: يا معشر الخزرج! إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعه في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه..

قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت. فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم».

قال كعب: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر».

فقاطعه أبوالهيثم بن التيهان متسائلاً: «يا رسول الله إن بيننا وبين القوم حبالاً وإنا قاطعوها (يعني اليهود) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم بالدم، والهدم بالهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»

ثم قال: أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.. وقد طلب الرسول ﷺ منهم الانصراف إلى رحالهم فقال رجل منهم: والذي بَعَثَك بالحق لئن شئتَ لنميلن عن أهل منى غداً بأسيافنا؟

فقال رسول الله ﷺ: لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» فرجعوا إلى رحالهم، وفي الصباح جاءهم جمع من كبار قريش يسألونهم عما بلغهم من بيعتهم للنبي ﷺ، ودعوتهم له للهجرة فحلف المشركون من الخزرج والأوس بأنهم لم يفعلوا والمسلمون ينظرون إلى بعضهم»[1].

وهكذا مرت البيعة بسلام، وعاد الأنصار إلى المدينة ينتظرون هجرة النبي ﷺ إليهم بتلهف كبير.

عباد الله! أما الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من بيعة العقبة الأولى والثانية:

أولاً: النصر مع الصبر، كما أخبر النبي ﷺ فقال: «واعلم أن النصر مع الصبر»، فإن صبرنا نصرنا الله، فرسولنا ﷺ والمسلمون معه في مكة صبروا على إيذاء قريش، وصبروا على ما لاقوا من أعداء الدين ابتغاء مرضات الله فجعل الله لهم مخرجاً، ونصرهم الله بالأنصار، فبعد أن أغلق أهل مكة قلوبهم عن الدين فتح الله قلوب أهل المدينة لهذا الدين، وبعد أن أبى أهل مكة أن يبقوا رسول الله ﷺ ليدع لهذا الدين فقد فتح الله -تبارك وتعالى- المدينة على مصراعيها لرسول الله ﷺ، الذي يحمل هذا الدين.

فمهما ضيق الكفار على المسلمين، فوالله الذي لا إله إلا هو فإن الله تبارك وتعالى سيجعل للمؤمنين مخرجاً، إن هم عادوا إلى الله وصدقوا مع

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٦٠-٤٦٣). وقال الألباني في تحقيقه «فقه السيرة»: «وهذا سند صحيح».

الله، وعادوا إلى دينهم، وطلبوا العزة بالإسلام فإن طلبنا العزة بالإسلام أعزنا الله، وإن طلبنا العزة بغير الإسلام أذلنا الله.

كما قال الفاروق عمر ﷺ «كنا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام، فلو ابتغينا العزة بغير الإسلام أذلنا الله»

فاصبروا على البلاء، وعودوا إلى الله، واعلموا أن الله تبارك وتعالى ينصر مع الصبر، وإياكم ودعاة الاستعجال الذين يورطون الأمة في بركة من الدماء، فإن الله نهى عن الاستعجال فقال: لرسول الله ﷺ ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾، والنبي ﷺ يقول لخباب: «ولكنكم تستعجلون».

ثانياً: أن المستقبل لهذا الدين: فقد أخبر الله -تبارك وتعالى- في كتابه، وأخبر النبي ﷺ في سنته، أن المستقبل لهذا الدين، وأنه ما من مكان في هذه الدنيا تطلع عليه الشمس إلا وسيدخله الإسلام، وما من بيت شجر ولا مدر إلا وسيدخله الإسلام ولو كره الكافرون، ولو تزمجر المنافقون فالمستقبل للإسلام.

ثالثاً: أن السر في النجاح في الدعوة إلى الله هو الإخلاص.

الإخلاص هو سر النجاح، فإن أرادت الأمة أن تنجح في دعوتها لهذا الدين فعليها بالإخلاص لله تبارك وتعالى، فها هو مصعب بن عمير ﷺ كان مخلصاً ضرب لنا مثلاً أعلى في ذلك، فاستجاب لأمر رسول الله ﷺ وذهب إلى المدينة يدعو لهذا الدين بالليل والنهار، فما من بيت في المدينة إلا ودخله الإسلام بفضل الله -تبارك وتعالى-، ثم بالجهود العالية العظيمة التي بذلها

مصعب، فكان يجلس في المكان يدعو لهـذا الديـن يأتيـه الرجـل مـن المدينـة يحمل حربته يريد أن يقتله فما أن يجلس ويسمع الكلام منه ودعوتـه بـالحلم واللين إلا وهو يقوم وقد شـهد «أن لا إلـه إلا الله وأن محمـداً رسـول الله»، إنها الحكمة والحلم في الدعوة والصبر علـى النـاس، وكيـف لا وقـد تعلـم مصعب من رسول الله ﷺ.

اللهم رد المسلمين إلى دينهم رداً جميلاً.

الخطبة الثانية والعشرون

هجرة الصحابة رضي الله عنهم إلى المدينة

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاءٍ جديدٍ من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن هجرة الصحابة -رضي الله عنهم- إلى المدينة.

عباد الله! في الجمعة الماضية تكلمنا عن بيعة العقبة الأولى والثانية، وفي بيعة العقبة الثانية بايع الأنصار رسول الله ﷺ على السمع والطاعة والنصرة والحرب، فعندما قال لهم رسول الله ﷺ: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله، لا تأخذكم فيه لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم، فتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة»[١] قالوا له: «نعم والذي بعثك بالحق، لنمعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر»[٢].

وعندما قالوا له: يا رسول الله إن بيننا وبين القوم حبالاً وإنا قاطعوها (يعني اليهود) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «بل الدم بالدم، والهدم بالهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم».

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) مضى تخريجه.

عباد الله! لما تمت بيعة العقبة الثانية، وعاد القوم إلى المدينة ينتظرون هجرة النبي ﷺ وأصحابه إليهم بتلهف كبير؛ أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالهجرة إلى المدينة واللحوق بالأنصار، فخرجوا أرسالاً -أي جماعات-

عباد الله! وكانت الهجرة إلى المدينة بوحي من الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي -أي ظني- إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب»(١).

وقالت عائشة -رضي الله عنها-: قال النبي ﷺ للمسلمين: «وإني أريت دار هجرتكم، سبخة، ذات نخل بين لابتين -وهما الحرَّتان-».

فهاجر من هاجر قِبلَ المدينة، ورجع عامة من كان بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبوبكر قِبَلَ المدينة، فقال رسول الله ﷺ: «على رسلك يا أبا بكر، فإني أرجوا أن يؤذن لي»، فقال أبوبكر: أترجوا ذلك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟

قال: «نعم» فحبس أبوبكر نفسه على رسول الله ﷺ، وعلف راحلتين كانتا عنده من ورق السَّمر أربعة أشهر»(٢). وذلك استعداداً لهجرة النبي من مكة إلى المدينة.

عباد الله! عندما أذن النبي ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، طاروا إليها زرافات ووحدانا، يحثهم الشوق إلى أرض أمن وأمان، يعبدون فيها ربهم، ويجهرون بصلاتهم، ويأمنون فيها على أنفسهم وأموالهم، فلما رأت قريش

---

(١) متفق عليه رواه البخاري (رقم ٧٠٣٥)، ومسلم (رقم ٢٢٧٢).
(٢) رواه البخاري (رقم ٢٢٩٧).

الديار في مكة خلت، والمسلمين هاجروا إلى المدينة، سعت بشتى الطـرق إلى عرقلة الهجرة إلى المدينة، وإثارة المشاكل أمام المهاجرين، مرة بحجز زوجاتهم وأطفالهم، ولكنه يهاجر فـالدين عنـده أغلـى مـن كـل شـيء، ومـرةً بحجـز أموالهم ومنعهم من حملها، ومرةً بالاحتيال لإعادتهم إلى مكة، لكن شيئاً من ذلك كلـه لم يعـق موكـب الهجـرة، فالمـهاجرون كـانوا علـى أتم الاسـتعداد للانخلاع عن أموالهم وأهليهم ودنياهم كلها تلبية لداعي العقيدة.

عباد الله! وهذه أمثلة أضعها بين أيديكم لتعلموا الصعوبات الـتي كـانت أمام المسلمين عندما هاجروا من مكـة، ومـع ذلـك هـاجروا فـراراً بدينـهم وطاعة لربهم، فالدين عندهم أغلى شيء.

فهذا أبوسلمة ﷺ أخذوا منه زوجته وابنه ليمنعوه من الهجرة فلم يمنعـه ذلك من الهجرة إلى المدينة فراراً بدينـه الـذي هـو أغلـى مـن كـل شـيء، فتعالوا بنا عباد الله! لنستمع إلى أم سلمة -رضي الله عنـها- وهـي تخبرنـا الخبر، تقول أم سلمة -رضي الله عنها-: «لمـا أجمـع أبوسـلمة الخـروج إلى المدينة رَحَلَ لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبـي سـلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بعيره فلمـا رأتـه رجـال بـني المغـيرة (وهـم أصهاره) قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنـا هـذه علام نتركك تسير بها في البـلاد؟ قـالت: فـنزعوا خطـام البعـير مـن يـده فأخذوني منه قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهـط أبـي سـلمة. قـالوا: لا والله لا نـترك ابننـا عندهـا إذ نزعتموهـا مـن صاحبنـا. قـالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلـق بـه بنـو عبـد الأسـد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلـق زوجـي أبوسـلمة إلى المدينـة. قـالت: فَفُرِقَ بيني وبين زوجي وبين ابني، قالت: فكنت أخرج كـل غـداة فـأجلس

بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أُمسي، سنة أو قريباً منها، حتى مرَّ بي رجل من بني عمي -أحد بني المغيرة- فرأى ما بي فرحمني فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة؛ فرَّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟

قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت قالت: وردّ بنو عبد الأسد إلي عند ذلك ابني قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. وما معي أحد من خلق الله قالت: فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان ابن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار.

فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أو ما معك أحد؟

قالت فقلت: لا والله إلا الله وبني هذا قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه.

كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت عنه استأخر ببعيري فحط عنه، ثم قيده في الشجرة ثم تنحى إلى الشجرة فاضطجع تحتها.

فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله ثم استأخر عني فقال: اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاد بي حتى ينزل بي فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة.

فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية -وكان أبوسلمة بها نازلاً- فادخليها على بركة الله ثم انصرف راجعاً إلى مكة.

فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة. وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة»[١].

الشاهد يا عباد الله! أن ننظر إلى الصعوبات التي تغلب عليها المسلمون، وهاجروا من مكة إلى المدينة فراراً بدينهم.

عباد الله! وهذا صهيب الرومي ﷺ لما أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك والله لا يكون ذلك.

فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟

قالوا: نعم.

قال: فإني قد جعلت لكم ما لي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ

فقال: ربح صهيب، ربح صهيب»[٢].

فانظروا عباد الله!، ضحى صهيب بماله كله ليفر بدينه الذي هو أغلى من كل شيء قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة:٢٠٧].

عباد الله! وهذا مثال ثالث يبين الأساليب التي اتخذتها قريش لمنع المسلمين من الهجرة إلى المدينة.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «اتعدت (أي تواعدت) -لما أردنا الهجرة إلى المدينة- أنا وعيّاش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص التناضب من إضاءة

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٦٩-٤٧٠)، وانظر «السيرة النبوية الصحيحة» أكرم ضياء العمري (١/ ٢٠٢-٢٠٤).

(٢) قال الألباني: حديث صحيح «فقه السيرة» (ص١٥٧).

بني غفار فوق سرف (وهو مكان معروف بالقرب من مكة) وقلنا أينا لا يصبح عندها فقد حبس، فليمض صاحباه.

قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحبس عنها هشام، وفتن فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء.

وخرج أبوجهل بن هشام، والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة -وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما- حتى قدما علينا المدينة- ورسول الله ﷺ بمكة -فكلماه وقالا: إن أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك، فرقَّ لها.

فقلت له: يا عياش! إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم..

فقال: أبرُّ قسم أمي، ولي هناك مال فآخذه.

فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما.

فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما.

فلما أبى إلا ذلك قلت: أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول. فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها، فخرج عليها معهما.

حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبوجهل: والله يا أخي لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟

قال: بلى

قال: فأناخ وأناخ ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عَدَوا عليه فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن.

قال: فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة؛ قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم.

قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة؛ أنزل الله -تعالى- فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥﴾ [الزمر:٥٣-٥٥].

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص قال: فقال هشام: فلما أتتني خرجت بها إلى ذي طوى (واد بمكة) أُصَعِّدُ فيها النظر وأُصَوِّبه لأفهمهما، حتى قلت: اللهم فهمنيها؟ قال: فألقى الله -تعالى- في قلبي، أنها إنما أُنزلت فينا، وفيما كنا نقول لأنفسنا، ويقال فينا.

قال: فرجعت إلي بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ[1].

عباد الله! حيل، عراقيل، صعوبات، وضعتها قريش أمام المهاجرين المسلمين من مكة إلى المدينة، ومع ذلك هاجروا فراراً بدينهم، فالدين عندهم أغلى شيء.

عباد الله! هذه ثلاثة نماذج لما كان المشركون في مكة يفعلونه بمن يريد

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٧٤) بإسناد حسن لذاته انظر «السيرة النبوية الصحيحة» (ص٢٠٤-٢٠٦).

الهجرة من المسلمين، ومع ذلك خرج المسلمون من مكة أرسالاً يتبع بعضهم بعضاً، ولم يبق بمكة أحد من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبوبكر وعلي أقاما مع رسول الله ﷺ بأمره وحبس قوم كرهاً؛ حبسهم قومهم، فكُتب لهم أجر المهاجرين بما كانوا عليه من حرصهم على الهجرة.

عباد الله! المسلمون من المهاجرين والأنصار في المدينة ينتظرون هجرة رسول الله ﷺ إليهم بتلهف كبير.

والرسول ﷺ في مكة ينتظر متى يؤذن له بالهجرة فيهاجر إلى المدينة.

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجمعنا بكم مع نبينا في جنات النعيم.

عباد الله! أما الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من هجرة الصحابة - رضي الله عنهم- من مكة إلى المدينة فهي كثيرة جداً منها.

أولاً: على المسلم إذا ضُيِّقَ عليه في بلد ما ولم يتمكن من عبادة ربه، أن يهاجر إلى بلد آخر ليتمكن من عبادة ربه، فالدين أغلى من كل شيء، فقد هاجر الصحابة -رضي الله عنهم- من مكة إلى المدينة فراراً بدينهم.

قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء:١٠٠]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل:١١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء:٩٧-٩٩].

ثانياً: الصحابة -رضي الله عنهم- جيل فريد اختارهم الله لنصرة نبيه ولنصرة دينه؛ الأنصار في المدينة قدموا الأرواح والأموال رخيصة في سبيل هذا الدين العظيم؛ والمهاجرون تركوا الأموال والديار والأهل من أجل هذا الدين العظيم، ولذلك قال الله تعالى في وصفهم: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر:٨-٩].

وقال ﷺ: «لا تسبوا أحداً من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»(١).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون عن دينه»(٢).

وقال الإمام الطحاوي في «عقيدته»: «ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم. وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان»(٣).

---

(١) رواه مسلم (رقم ٢٥٤٠).

(٢) قال الشيخ الألباني في التعليق على «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٤٧٠): «حسن موقوفاً».

(٣) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٤٦٧).

ثالثاً: النجاة والسلامة في اتباع الصحابة -رضي الله عنهم- وسلوك منهجهم

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء:١١٥]. وقال ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ»[1].

وقال ﷺ: «وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة» قيل وما هي يا رسول الله؟

قال: «هي التي تكون على ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

وقال ابن مسعود ﷺ: «من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم»[2].

اللهم رد المسلمين إلى دينك رداً جميلاً.

---

(١) «صحيح الترمذي» (رقم ٢١٥٧).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٣٨٣).

الخطبة الثالثة والعشرون

هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاءٍ جديدٍ من سيرة الحبيب محمد ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة.

عباد الله! الهجرة من مكة إلى المدينة كانت بوحي من الله إلى رسوله ﷺ.

قال ﷺ: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي -أي ظني- إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب»[١].

عباد الله! بعد ما تحدد المكان الذي يُهاجر إليه؛ أذن رسولُ الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة فخرجوا أفراداً وجماعات، وتغلبوا على جميع الصعوبات التي واجهتهم.

عباد الله! وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين؛ إلا من حبس أو فتن؛ إلا علي بن أبي طالب وأبوبكر -رضي الله عنهما-.

وكان أبوبكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له رسول الله ﷺ: «على رسلك يا أبابكر، فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبوبكر: أترجو ذلك يا رسول الله بأبي أنت؟ قال: «نعم»، فحبس أبوبكر نفسه على رسول الله ﷺ، وعلف راحلتين كانتا عنده من ورق السمر أربعة أشهر[٢]

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٦٢٢)، ومسلم (رقم ٢٢٧٢).

(٢) رواه البخاري (رقم ٢٢٩٧).

استعداداً للهجرة من مكة إلى المدينة.

عباد الله! رأت قريش أن الديار قد خلت من أهلها، وأن المسلمين قد تركوا مكة مهاجرين إلى المدينة، تاركين ديارهم وأموالهم، وشعرت قريش أيضاً بأن الإسلام أضحت له دارٌ يأرز إليها، وحِصنٌ يحتمي به، وتوجست خيفةً من عواقب هذه المرحلة الخطيرة في دعوة محمد ﷺ، وعلمت قريش أيضاً أن محمداً لا بد أن يدرك أصحابه اليوم أو غداً، فاجتمعوا في دار الندوة ليتخذوا قراراً حاسماً في هذا الأمر.

فرأى بعضهم أن توضع القيود في يد محمد ﷺ ويشد وثاقه ويرمى به في السجن لا يصله منهم إلا الطعام، ويترك على ذلك حتى يموت، ورأى آخر أن ينفي من مكة فلا يدخلها وتنفض قريش يديها من أمره، وقد استُبعِدَ هذان الاقتراحان لعدم جدواهما واستقر الرأي على الاقتراح الذي أبداه أبوجهل.

قال أبوجهل: أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شاباً نسيباً وسطاً فتياً، ثم نعطي كل فتى سيفاً صارماً، ثم يضربونه جميعاً ضربة رجل واحدٍ، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلّها، ولا أظن أن بني هاشم يقوون على حرب قريش كافة، فإذا لم يبق أمامهم إلا الدية أديناها.

ورضي كفار مكة بهذا الحل للمشكلة التي حيرتهم، وانصرفوا ليقوموا على تنفيذ هذا القرار الجائر الغادر.

وقد أخبرنا الله في كتابه عن هذا الاجتماع، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ

ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ [الأنفال:٣٠][١].

عباد الله! لما أجمع كفار مكة على قتله ﷺ، أوحى الله -تبارك وتعالى- إليه بالإذن في الهجرة، فخرج رسول الله ﷺ من بيته إلى بيت أبي بكر ﷺ ليخبره بذلك.

تعالوا بنا لنستمع إلى عائشة -رضي الله عنها- وهي تخبرنا الخبر، قالت عائشة -رضي الله عنها-: «بينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً -في ساعة لم يكن يأتينا فيها- فقال أبوبكر: فداءً له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أَخْرِجْ مَنْ عِندَك.

فقال أبوبكر: إنما هم أهلك، بأبي أنت يا رسول الله.

قال ﷺ: فإني قد أذن لي في الخروج.

فقال أبوبكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله؟

قال رسول الله ﷺ: «نعم». قال أبوبكر: فخذ -بأبي أنت يا رسول الله- إحدى راحلتي هاتين قال رسول الله ﷺ: «بالثمن»، قالت عائشة: فجهزناهما أحسن الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاق»[٢].

إخوة الإسلام! وتواعدا أن يخرجا ليلاً إلى غار ثور، فيمكثا ثلاث ليال

---

(١) «سيرة ابن هشام» مع «الروض الأنف» (٢/ ٢٢١-٢٢٣).

(٢) رواه البخاري (رقم ٣٩٠٥).

وذلك من تمام إحكام الخطة، ورجاء النجاة والسلامة، ذلك أن قريشاً تعلم أن النبي ﷺ مهاجر إلى المدينة فإذا فقدته ستطلبه جهة المدينة -في الشمال- فخرج ﷺ أول ما خرج جهة الجنوب، جهة اليمن مخالفاً تماماً الطريق الذي قصده، حتى إذا خرجت قريش من جهة المدينة فلم تدركه علمت أنه قد نجى، فترجع فيخرج بعد آمناً سالماً مطمئناً.

واستأجرا أجيراً يهديهما الطريق، وكان كافراً إلا أنهما أمناه على هذا السر، وأسلما له الراحلتين، وواعداه أن يأتيهما بعد ثلاث في غار ثور.

وفي الليل خرج ﷺ وأبوبكر، وأمر النبي ﷺ علياً أن ينام في فراشه تلك الليلة، وأتيا غار ثور فدخلاه، وكان عبدالله بن أبي بكر -رضي الله عنهما- يبيت عندهما إلى الثلث الأخير من الليل، فإذا دخل السحر تدلى إلى مكة فأصبح بينهم كأنه بائت فيهم، فيستمع إليهم بالنهار، وما يكيدونه للنبي ﷺ فإذا جاء الليل ذهب إليهما، فأخبرهما بما سمع من مكائد قريش، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى الغنم قريباً من الغار، فإذا كانت العشاء راح عليهما بالغنم في الظلام، فيحلبان ويطعمان ثم ينعق عامر على الغنم فتنزل إليه، صنع ذلك حتى انتهت الثلاث.

عباد الله! وجاء الشباب الذين أجمعوا أمرهم على قتل النبي ﷺ، وباتوا ليلتهم أمام الدار، فلم يرعهم إلا خروج علي بدلاً من محمد ﷺ، فجن جنونهم وطاروا هنا وهناك في الطرقات، يبحثون عن النبي ﷺ وصاحبه حتى انتهى بهم أثر الأقدام إلى غار ثور الذي دخله النبي ﷺ، فأعمى الله أبصارهم، وصرف قلوبهم عن دخول الغار، وهم أمام بابه وأبوبكر يقول: يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا.

فيقول ﷺ: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما، يا أبا بكر لا تحزن إن

الله معنا» قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ﴾ [التوبة:٤٠].

عباد الله! وصل المطاردون إلى باب الغار، ولكن الله غالب على أمره، فصرف قلوبهم عن دخول الغار، فرجعوا يجرون أذيال الخيبة، وبعد ثلاث جاء الأجير الكافر في موعده، وكان هادياً خريتاً -أي ماهراً بالطريق- بالراحلتين فارتحل النبي ﷺ إحداهما وأبوبكر الأخرى، وخرج معهم عامر ابن فهيرة، وانطلق بهم الدليل نحو الجنوب، ثم انحاز بهم نحو الساحل ثم أخذ طريق الساحل إلى المدينة.

عباد الله! ولكن قريشاً لم تسكت ولم تهدأ، ساءها خروج النبي ﷺ من بينهم، وفشلهم في إدراكه.

فذاعوا في الناس: من جاء بمحمد وصاحبه أحياءً وأمواتاً فله ديتهما، والدية مائة من الإبل، والإبل أنفس أموال العرب وأحبها إلى قلوبهم، فسال لعاب الناس، من الذي يأتي بمحمد وصاحبه فيأخذ مائتين من الإبل.

عباد الله! تعالوا بنا لنستمع إلى سراقة بن مالك وهو يخبرنا الخبر قال سراقة: «فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي إذ أقبل رجل فيهم حتى قام علينا ونحن جلوس.

فقال: يا سراقة! إني رأيت آنفاً أسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه.

قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا.

ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره فركبت فرسي -وعصيت الأزلام- تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت -وأبوبكر يكثر الالتفات- ساخت يد فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة، إذا لأثرِ يديها عُثانٌ ساطعٌ في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان، فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم؛ أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزءاني، ولم يسألاني إلا أن قال: أخف عنا.

فسألته أن يكتب لي كتاب أمان، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أُدم، ثم مضى رسول الله ﷺ»[1].

إخوة الإسلام! النبي ﷺ في طريقه إلى المدينة، وقد وصلت الأخبار إلى المدينة أن رسول الله ﷺ خرج من مكة إلى المدينة فكانوا يغدون كل غداة إلى ظاهر المدينة ينتظرونه، حتى إذا اشتد الحر عليهم عادوا إلى بيوتهم.

حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه انتظروه حتى لم يبق ظل يستظلون به

---

(١) رواه البخاري (رقم ٣٩٠٦).

فعادوا، وقدم الرسول ﷺ وقد دخلوا بيوتهم، فبصر به يهودي فناداهم بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا جَدُّكم الذي تنتظرون، فخرجوا فاستقبلوه وكان فرحتهم به غامرة فقد حملوا أسلحتهم وتقدموا نحو ظاهر الحرّة فاستقبلوه.

ونزل رسول الله ﷺ في قباء في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وأسس مسجد قباء، ولما عزم رسول الله ﷺ أن يدخل المدينة أرسل إلى زعماء بني النجار، فجاءوا متقلدين سيوفهم وعدد الذين استقبلوه من الأنصار خمس مئة. فأحاطوا بالرسول وبأبي بكر وهما راكبان، ومضى الموكب داخل المدينة.

«وقيل في المدينة: جاء نبي الله، جاء نبي الله ﷺ» وقد صعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان في الطرق ينادون: يا محمد يا رسول الله، يا محمد يا رسول الله.

قال الصحابي البراء بن عازب رضي الله عنه وهو شاهد عيان «ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ»[1].

عباد الله! أما الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من هجرة النبي ﷺ فهي كثيرة جداً منها.

أولاً: الدين أغلى عند المسلم من كل شيء، فالرسول ﷺ وأصحابه تركوا ديارهم وأموالهم فداء ونصرة لهذا الدين العظيم، وهذا يظهر من قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا

---

(١) «السيرة النبوية الصحيحة» أكرم ضياء العمري (ص٢١٨-٢١٩).

مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ [الحشر:٨].

ومن قوله ﷺ: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلي، والله! لولا أني أخرجت منك، ما خرجت»(١).

عباد الله! كفار مكة أخرجوا رسول الله ﷺ وأصحابه لأنهم قالوا: ربنا الله، ولأنهم دخلوا في دين الله، وهذا يظهر من قول ورقة بن نوفل لرسولنا ﷺ: يا ليتني فيها جذعاً حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي»(٢).

ولذلك على المسلم إذا ضيق عليه في دينه، ولم يتمكن من عبادة ربه، أن يهاجر إلى أي بلد مسلم آخر ليتمكن من عبادة ربه، فليس هناك على وجه الأرض شخص أفضل من رسول الله ﷺ، وليس هناك بلد أفضل من مكة ومع ذلك فقد هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة.

ثانياً: الله -عز وجل- ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة مهما كاد الكفار للمسلمين وخططوا، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر:٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة:٢١].

وهذا يظهر من نصر الله لرسوله ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة.

---

(١) «صحيح ابن ماجه» (٢٥٢٣).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣)، ومسلم (رقم ١٦٠).

فالصحابة الكرام -رضي الله عنهم- هناك في المدينة لا يملكون لرسول الله ﷺ شيئاً، وكفار مكة يطاردون رسول الله ﷺ في كل مكان ليقتلوه، ومع ذلك نصر الله رسوله ﷺ وأيده بجنوده التي لا يعلمها إلا الله.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠].

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

الخطبة الرابعة والعشرون

الباحثون عن الحق

عبدالله بن سلام وسلمان الفارسي -رضي الله عنهما-

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن الباحِثَيْنِ عن الحق وهما: عبدالله بن سلام، وسلمان الفارسي -رضي الله عنهما-.

عباد الله! في الجمعة الماضية تكلمنا عن هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، وتبين لنا أن المسلمين في المدينة فرحوا بهجرة النبي ﷺ فرحاً شديداً.

يقول البراء بن عازب ﷺ: «ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ»[1].

ويقول أنس ﷺ: «لما كان اليوم الذي دخل النبي ﷺ فيه المدينة أضاء منها كلُّ شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كلُّ شيء، وما نفضنا أيدينا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا»[2].

الشاهد يا عباد الله! أن المدينة ومن فيها فرحوا بهجرة النبي ﷺ فرحاً شديداً.

عباد الله! دخل رسول الله ﷺ المدينة راكباً على ناقته، والأنصار يتطلعون إلى استضافته، فكلما مر على أحدهم دعاه للنزول عنده فكان ﷺ

---

(١) «السيرة النبوية الصحيحة»، (ص٢١٨-٢١٩) أكرم العمري.

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٦١).

يقول لهم: دعوا الناقة فإنها مأمورة، فبركت على باب أبي أيوب الأنصاري ﷺ، في مكان المسجد النبوي الذي هو فيه الآن[١].

عباد الله! فتساءل ﷺ: أي بيوت أهلنا أقرب؟ -يقصد بذلك بيوت بني النجار أخواله-.

فقال أبوأيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري، وهذا بابي فنزل ﷺ في داره[٢].

وكانت الدار طابقين، فاختار النبي ﷺ أن يسكن في الطابق الأرضي، فقال أبو أيوب ﷺ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، والله إني لأكره أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل.

فقال النبي ﷺ: «يا أبا أيوب: إنه أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت».

قال أبوأيوب: فكان النبي ﷺ في السفل وكنا فوقه في المسكن، فانكسرت جرة لنا فيها ماء، فقمت أنا وأمُ أيوب بقطيفة لنا -ليس لنا لحاف غيرها- ننشف بها الماء مخافة أن يقطر منه شيء على رسول الله ﷺ فيؤذيه»[٣].

عباد الله! أخذت الوفود تتوافد على رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب، وسمع عبدالله بن سلام -وكان رجلاً يهودياً- بنزول النبي ﷺ في دار أبي أيوب، وقد تنادى الناس فيما بينهم: قد قدم رسول الله، قد قدم رسول الله، قد قدم رسول الله، فجاء عبدالله بن سلام مع الناس ليرى رسول الله ﷺ.

---

(١) «السيرة النبوية الصحيحة» العمري (٢١٩).

(٢) «صحيح البخاري» (رقم ٣٩١١).

(٣) «سيرة ابن هشام» بإسناد صحيح، انظر «السيرة النبوية الصحيحة» العمري (ص٢٢٠).

قال عبدالله بن سلام: فلما رأيت وجهه علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته تكلم به أن قال: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»(١).

فالإسلام هو دين السلام، جاء بالسلام والرحمة إلى الناس.

عباد الله! ذهب عبدالله بن سلام إلى أهله ثم عاد ليبحث عن الحق.

قال عبدالله بن سلام: يا محمد إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهم إلا نبي، ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟

فقال النبي ﷺ: «أخبرني بهن جبريل آنفاً»

قال ابن سلام: جبريل؟

قال ﷺ: «نعم»

قال ابن سلام: «ذاك عدو اليهود من الملائكة».

فقال رسول الله ﷺ: «أما أول أشراط الساعة، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما نزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه، فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة؛ نزع الولد (أي: جذبه إليه فكان أشبه بأبيه)، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل؛ نزع إليها.

فقال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله ثم قال:

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٨٥)، وابن ماجه (رقم ١٣٣٤، ٣٢٥١)، والحاكم (٣/ ١٣، ٤/ ١٦٠) وانظر «صحيح الجامع» (٧٧٤٢).

يا رسول الله! إن اليهود قوم بهت (أي أهل إفك وكذب) يقولون في الرجل ما ليس فيه، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فابعث إليهم يا رسول الله، واسألهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا أني أسلمت قالوا فيّ ما ليس فيّ.

فأرسل إليهم رسول الله ﷺ فجاءوه، وأختبأ عبدالله بن سلام، فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود، ويلكم، اتقوا الله وأسلموا، فوالله الذي لا إله إلا هو لقد علمتم أني رسول الله حقاً، وأني قد جئتكم بالحق من عنده».

فقالوا: ما نعلمه؟

فقال رسول الله ﷺ: «فأي رجل فيكم عبدالله بن سلام؟»

قالوا: ذاك سيدنا، وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا.

فقال ﷺ: «أرأيتم إن أسلم؟»

قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم.

قال ﷺ: «أرأيتم إن أسلم؟».

قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم.

قال ﷺ: «أرأيتم إن أسلم؟»

قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم.

فقال رسول الله ﷺ: «يا ابن سلام اخرج عليهم».

فخرج ابن سلام وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم قال لليهود: يا معشر اليهود، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بالحق.

فقالوا له: كذبت ثم قالوا: شرنا، وابن شرنا وتنقصوه.

فقال ابن سلام: يا رسول الله! ذاك الذي كنت أخاف على نفسي منهم فأخرجهم رسول الله ﷺ»[1].

وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾ [الأحقاف:١٠].

فهذه شهادة مِنْ رجلٍ مَنَّ الله عليه بالإسلام من اليهود في رسول الله ﷺ وفي اليهود، فأخبر في شهادته أن رسول الله ﷺ حق، وأن اليهود قوم بهت.

عباد الله! إذا كانت اليهود تعلم أن رسول الله ﷺ حق بشهادة أعلمهم وهو عبدالله بن سلام، فتعالوا بنا لنرى شهادة النصارى أيضاً في رسول الله ﷺ، وكيف أن أحبارهم ورهبانهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝﴾ [البقرة:١٤٦].

ويظهر لنا ذلك من قصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه.

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: حدثني سلمان عن نفسه فقال:

كنت رجلاً فارسياً من أهل (أصبهان)، من أهل قرية منها يقال لها: (جيّ)، وكان أبي دهقان قريته (أي رئيسها)، وكنتُ أحبُّ خلقِ اللهِ إليه، فلم يزل به حُبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية، وأجهدت في

---

(١) رواه البخاري (رقم ٣٣٢٩).

المجوسية حتى كنت قاطن النار؛ الذي يوقدها، لا يتركها تخبو ساعة، قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة، قال: فَشُغِلَ في بنيان له يوماً، فقال لي: يا بني! إني قد شُغِلتُ في بنيان هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب فأطلعها. وأمرني فيها ببعض ما يريد، فخرجت أريد ضيعته، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته، فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم؛ دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، قال: فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم، ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي، ولم آتها، فقلت لهم: أين أصلُ هذا الدين؟ قالوا: بالشام، قال: ثم رجعت إلى أبي، وقد بعث في طلبي، وشغلتُه عن عمله كلِّه، قال: فلما جئته قال: أي بني أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قال: قلت: يا أبت! مررت بناس يصلون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس.

قال: أي بني! ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه، قال: قلت: كلا والله؛ إنه خير من ديننا، قال: فخافني، فجعل في رجلي قيداً، ثم حبسني في بيته، قال: وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم، قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى، قال: فأخبروني بهم، قال: فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني بهم، فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟

قالوا: الأسقف في الكنيسة. قال: فجئته، فقلت: إني قد رغبت في هذا

الدين، وأحببت أن أكون معك؛ أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك وأصلي معك، قال: فادخل فدخلت معه، قال: فكان رجل سوء؛ يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها؛ فإذا جمعوا إليه منها أشياء؛ أكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين؛ حتى جمع سبع قلال من ذهب وَوَرِق، قال: وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع، ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء؛ يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها؛ فإذا جئتموه بها؛ اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً. قالوا: وما علمك بذلك؟ قال: قلت: أنا أدلكم على كنزه. قالوا: فدلنا عليه، قال: فأريتهم موضعه، قال: فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً.

قال: فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبداً. فصلبوه، ثم رجموه بالحجارة.

ثم جاؤوا برجل آخر فجعلوه بمكانه. قال: يقول سلمان: فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه؛ أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه، قال: فأحببته حباً لم أحبه مَنْ قبله، وأقمت معه زماناً، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان! إني كنت معك، وأحببتك حباً لم أحبه أحداً من قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله، فإلى مَنْ توصي بي؟ وما تأمرني؟

قال: أي بني! والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا، وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بـ(الموصل) وهو فلان، فهو على ما كنت عليه فالحق به.

قال: فلما مات وغُيب؛ لحقت بصاحب (الموصل)، فقلت له: يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، قال: فقال لي: أقم عندي. فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه فلم يلبث

أن مات، فما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان! إن فلاناً أوصي بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من الله -عز وجل- ما ترى، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بني! والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بـ(نصيبين)، وهو فلان فالحق به.

قال: فلما مات وغُيب؛ لحقت بصاحب (نصيبين) فجئته فأخبرته بخبري وما أمرني به صاحبي قال: فأقم عندي. فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبثت أن نزل به الموت، فلما حضر؟ قلت له: يا فلان! إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك؛ فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بني! والله ما نعلم أحداً بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بـ(عمورية)؛ فإنه بمثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته، فإنه على أمرنا.

قال: فلما مات وغيب؛ لحقت بصاحب (عمورية)، وأخبرته خبري، فقال: أقم عندي. فأقمت مع رجل على هدي أصحابه وأمرهم، قال: واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة، قال: ثم نزل به أمر الله، فلما حضر قلت له: يا فلان! إني كنت مع فلان، فأوصى بي فلان إلى فلان، وأوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان بي إليك؛ فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بني! ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي، هو مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب مهاجراً إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة؛ فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

قال: ثم مات وغُيب، فمكثت بـ(عَمورية) ما شاء الله أن أمكث ثم مر بي

نفر من كلب تجاراً، فقلت لهم: تحملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه؟ قالوا: نعم. فأعطيتهموها، وحملوني، حتى إذا قدموا بي وادي القرى ظلموني، فباعوني من رجل من اليهود عبداً، فكنت عنده، ورأيت النخل، ورجوت أن تكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق لي في نفسي، فبينما أنا عنده قدم عليه ابن عم له من المدينة من بني قريظة، فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها.

وبعث الله رسوله فأقام بمكة ما أقام، لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال: فلان! قاتل الله بني قيلة؛ والله إنهم الآن لمجتمعون بـ(قباء) على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي. قال: فلما سمعتها أخذتني العُرَواء (أي: الرِّعدة) حتى ظننت أني سأسقط على سيدي، قال: ونزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ قال: فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة، ثم قال: مالك ولهذا؟ أقبل على عملك، قال: قلت: لا شيء إنما أردت أن أستثبت عما قال، وقد كان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بـ(قباء)، فدخلت عليه فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم، قال: فقربته إليه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «كلوا». وأمسك يده فلم يأكل، قال: فقلت في نفسي: هذه واحدة، ثم انصرفت عنه، فجمعت شيئاً، وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئت به فقلت: إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها، قال: فأكل رسول الله ﷺ

منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه، قال: فقلت في نفسي: هاتان اثنتان، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد، قال: وقد تبع جنازة من أصحابه، عليه شملتان له، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره؛ هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي، فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته؛ عرف أني استثبت في شيء وصف لي، قال: فألقي رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فانكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ: «تحول». فتحولت، فقصصت عليه حديثي -كما حدثتك- يا ابن عباس! قال: فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه.

ثم شَغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر وأحد، قال: ثم قال لي رسول الله ﷺ: «كاتب يا سلمان». فكاتبت صاحبي على ثلاث مئة نخلة أحييها له بالفقير وبأربعين أوقية، فقال رسول الله ﷺ: «أعينوا أخاكم». فأعانوني بالنخل، الرجل بثلاثين ودية (صغار النخل)، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، والرجل بعشر -يعني الرجل بقدر ما عنده- حتى اجتمعت لي ثلاث مئة ودية، فقال لي رسول الله ﷺ: «اذهب يا سلمان! ففقر لها، فإذا فرغت فأتني أكون أنا أضعها بيدي». ففقرت لها، وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت منها جئته فأخبرته، فخرج رسول الله ﷺ معي إليها، فجعلنا نقرب له الودي، ويضعه رسول الله ﷺ بيده، فوالذي نفس سلمان بيده؛ ما ماتت منها ودية واحدة، فأديت النخل وبقي علي المال، فأتي رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المغازي، فقال: «ما فعل الفارسي المكاتب؟». قال: فدعيت له. فقال: «خذ هذه فأدِّ بها ما عليك يا سلمان!». فقلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي؟ قال: «خذها؛ فإن الله -عز وجل- سيؤدي بها عنك».

قال: فأخذتها، فوزنت لهم منها -والذي نفس سلمان بيده- أربعين أوقية، فأوفيتهم حقهم، وعتقت، فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق، ثم لم يفتني معه مشهد»[١].

عباد الله! أما الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من قصة إسلام عبدالله بن سلام وسلمان الفارسي -رضي الله عنهما- فهي كثيرة جداً نعيش معها في الجمعة القادمة -إن شاء الله تعالى- إن كان في العمر بقية.

اللهم رد المسلمين إلى دينك رداً جميلاً.

---

(١) إسناده صحيح، «السلسلة الصحيحة» (٨٩٤). «مسند الإمام أحمد» (٢٣٧٣٧ - ط المؤسسة).

الخطبة الخامسة والعشرون

الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من إسلام عبدالله بن سلام وسلمان الفارسي -رضي الله عنهما-

أيها الإخوة عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من قصة إسلام عبدالله بن سلام وسلمان الفارسي -رضي الله عنهما-.

عباد الله! في الجمعة الماضية تبين لنا أن رسول الله ﷺ عندما وصل إلى المدينة نزل في دار أبي أيوب الأنصاري ﷺ وكانت الدار من طابقين فنزل ﷺ في الطابق الأرضي، فلما طَلبَ منه أبوأيوب أن يصعد إلى الطابق العلوي قال له رسول الله ﷺ: «يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت»، وبدأت الوفود تتوافد على رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب، وكان ممن جاء إلى رسول الله ﷺ يبحث عن الحق؛ عبدالله بن سلام وكان رجلاً يهودياً فسأل رسول الله ﷺ عن أشياء فلما أجابه الرسول ﷺ قال «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله» ثم قال ابن سلام: يا رسول الله! إن اليهود قوم بهت.. الخ.

عباد الله! وتكلمنا في الجمعة الماضية أيضاً عن سلمان الفارسي ﷺ وكيف انتقل من بلد إلى بلد، ومن رجل إلى رجل يبحث عن الحق فعندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وعلم به سلمان الفارسي ذهب إليه، فلما وجد منه الصفات التي أخبروه عنها؛ وهي أن النبي ﷺ لا يأكل الصدقة، ويأكل

الهدية، وبين كتفيه خاتم النبوة، أسلم ودخل في دين الله، وكان سلمان الفارسي ﷺ عبداً عند يهودي فأعانه النبي ﷺ والصحابة حتى تحرر من الرق وحضر مع رسول الله ﷺ غزوة الخندق وما بعدها من الغزوات.

أمة الإسلام! وفي قصة إسلام عبدالله بن سلام وسلمان الفارسي -رضي الله عنهما- دروس وعظات وعبر منها:

أولاً: تواضعه ﷺ ورأفته ورحمته بأصحابه وبضيوفه، وهذا يظهر من نزوله في الطابق السفلي من دار أبي أيوب الأنصاري، ومن قوله ﷺ: «يا أبا أيوب! إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت».

عباد الله! من اللحظة الأولى وضع رسول الله ﷺ نفسه في مكان يسهل على جميع الناس أن يصلوا إليه، ولم يجعل على بيته بوابين يمنعون الناس من الدخول عليه ﷺ، فهذا عبدالله بن سلام من اليهود، ومع ذلك دخل على رسول الله ﷺ وسأله وتكلم معه ثم أسلم، والشاهد على أن النبي ﷺ ليس على بابه بوابين:

مرّ النبي ﷺ على امرأة تبكي عند قبر فقال لها: «اتقي الله واصبري» فقالت: إليك عني؛ فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك.

فقال ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[(١)].

الشاهد يا عباد الله! أنها لم تجد على بابه بوابين يمنعونها من الدخول على رسول الله ﷺ.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٢٨٣)، ومسلم (رقم ٩٢٦).

ومن تواضعه ﷺ.

يقول أنس ﷺ: إن كانت الأمة -أي العبدة المملوكة- من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ فتنطلق به حيث شاءت»[(١)] وذلك ليقضي لها حاجتها، إنها أخلاق النبوة.

-وسئلت عائشة -رضي الله عنها- ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟

قالت: كان يكون في مهنة أهله -يعني: خدمة أهله- فإذا حضرت الصلاة، خرج إلى الصلاة[(٢)].وكان ﷺ إذا مرَّ على الصبيان سلم عليهم[(٣)].

ومن تواضعه ﷺ أنه قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله»[(٤)].

وقال ﷺ: «إن الله أوحى إلي؛ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[(٥)].

والله -عز وجل- يثني عليه في كتابه فيقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة:١٢٨].

عباد الله! وبهذا التواضع، وبهذه الرحمة، وبهذا الرفق من رسول الله ﷺ

---

(١) «رياض الصالحين» (رقم ٦١٠) تحقيق الألباني.

(٢) رواه البخاري (رقم ٦٧٦).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٦٢٤٧)، ومسلم (رقم ٢١٦٨).

(٤) رواه البخاري (رقم ٣٤٤٥).

(٥) رواه مسلم (رقم ٢٨٦٥ بعد ٦٤).

بأصحابه، وبالناس أقبل الناس عليه، والتفوا حوله، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:١٥٩].

ثانياً: اليهود قوم بهت -أي أهل إفك وكذب يقولون في الإنسان ما ليس فيه-

وهذا يؤخذ من قول أحد علمائهم وهو عبدالله بن سلام بعد أن شرح الله صدره للإسلام فقال: يا رسول الله! إن اليهود قوم بهت.

والبهتان يا عباد الله! هو: أن ترمي الرجل بما ليس فيه

قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما الغيبة»

قالوا: الله ورسوله أعلم

قال ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره»

قيل: يا رسول الله أفرأيت إن كان في أخي ما أقول

قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»(١).

فهذا تاريخ اليهود الأسود يشهد لهم بذلك؛ يقلبون الحقائق فنراهم في واقعنا المعاصر يقتلون المسلمين في أرض فلسطين ثم بعد ذلك باستخدامهم لوسائل الإعلام يقلبون الحقائق ويظهرون للناس أنهم هم الذين يُقتَلونَ.

---

(١) رواه مسلم (رقم ٢٥٨٩).

فاليهود قوم بهت:

١-ومن بهتانهم: أنهم كذبوا على الله فوصفوه بما لا يليق وقد فضحهم الله في كتابه، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران:١٨١]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة:٣٠].

٢-ومن بهتانهم: أنهم اتهموا مريم بالزنا، قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء:١٥٦].

٣-ومن بهتانهم: أنهم زعموا أن جبريل عليه السلام عدوٌ لهم وهذا يظهر من قول ابن سلام قبل أن يسلم عندما قال النبي ﷺ «أخبرني بهن جبريل آنفا» فقال ابن سلام: جبريل، قال ﷺ: «نعم»، قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فالله -عز وجل- كذبهم ورد عليهم فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة:٩٧-٩٨].

عباد الله! اليهود أهل حقد وحسد على المسلمين، وقد فضحهم الله في

كتابه؛ فقال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران:١١٨]. وقال تعالى: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩].

اليهود لا يحبون الخير للمسلمين أبداً، وهم أشد الناس عداوة للمؤمنين، قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ﴾ [المائدة:٨٢].

عباد الله! اليهود يعملون بالليل والنهار، وينفقون أموالهم ليصرفوا المسلمين عن دينهم، وذلك لأن اليهود تقوى على حساب تفرق المسلمين وضعفهم وبعدهم عن دينهم. قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة:٢١٧]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠].

عباد الله! اليهود هم أكلة الربا في العالم كله قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء:١٦٠-١٦١].

اليهود ينقضون العهود والمواثيق وهم قتلة الأنبياء قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ

قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء:١٥٥].

اليهود هم أفسد الناس في الأرض على الإطلاق، وهم الذين يشعلون الحروب بين الناس لأنهم لا يعيشون إلا على حساب خراب بيوت الآخرين قاتلهم الله. قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة:٦٤].

اليهود يسارعون إلى الإثم والعدوان وأكل الحرام ليلاً ونهاراً قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المائدة:٦٢].

اليهود من أشر الناس ومن أضل الناس، ولذلك غضب الله عليهم ولعنهم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة:٦٠]، وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة:٧٨-٧٩].

اليهود من أجبن الناس على الإطلاق؛ قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر:١٣-١٤].

ثالثاً: على الإنسان أن يبحث عن الحق ليلاً ونهاراً، فإن وجده اتبعه بلا تردد، وهذا يؤخذ من فعل عبدالله بن سلام وسلمان الفارسي -رضي الله عنهما-.

فهذا عبدالله بن سلام عندما نظر إلى وجه النبي ﷺ ووجده ليس بوجه كذاب، وعندما سأله عن المسائل الثلاث وأجابه النبي ﷺ، عرف ابن سلام أن النبي ﷺ حق، وأنه جاء بالحق من عند الله تعالى، فعندها بلا تردد قال: أشهد أن لا إله الله وأشهد أنك رسول الله، وقال ابن سلام لليهود: يا معشر اليهود! اتقوا الله؛ فوالله الذي لا إله غيره إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بالحق.

وهذا سلمان الفارسي ﷺ، ترك أهله، وترك الغنى عند أبيه، وانتقل من بلد إلى بلد، ومن شخص إلى شخص، وباعوه عبداً لرجل من اليهود، ومع ذلك يبحث عن الحق فعندما التقى برسول الله ﷺ وقدم له الصدقة فلم يأكل النبي ﷺ منها، وقدم له الهدية فأكل ﷺ منها، ورأى سلمان خاتم النبوة بين كتفي النبي ﷺ انكب على رسول الله ﷺ يقبله ويبكى، ودخل في دين الله، فعلى الإنسان أن يبحث دائماً عن الحق في كل شيء، فإذا وجده اتبعه بلا تردد، لأنه ليس بعد الحق إلا الضلال، ولأن الحق أحق أن يتبع، فكم من إنسان منعه الكبر من اتباع الحق؟! وكم من إنسان منعه الجهل من اتباع الحق، وكم من إنسان منعته الدنيا وحب الدينار عن اتباع الحق، وكم من إنسان منعته الحزبية البغيضة عن اتباع الحق؟!

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج:٦٢].

رابعاً: ضرورة التعاون على البر والتقوى، وضرورة مساعدة المحتاج، وضرورة التعاون على قضاء الدين عن المدين.

وهذا يؤخذ من فعل النبي ﷺ والصحابة -رضي الله عنهم- مع سلمان الفارسي ﷺ عندما ساعدوه ليتحرر من الرق فالله -عز وجل- يقول:

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ﴾.
وقال ﷺ: «أعينوا أخاكم» أي: سلمان[١].

وقال ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً؛ ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه..»[٢].

فإذا ابتلي رجل من المؤمنين الصالحين بِدَين، من غير إسراف ولا تبذير، ولا محاربة لله ورسوله بالمعاصي، فإنه يجب على المسلمين أن يتعاونوا مع هذا الرجل على قضاء هذا الدين عنه، كما فعل النبي ﷺ والصحابة مع سلمان الفارسي ﵁.

قال ﷺ: «ما من عبد كانت له نية في أداء دينه إلا كان له من الله عون»[٣] أي: أعانه الله.

وقال ﷺ: «ما من أحد يدان ديناً يعلم الله منه أنه يريد قضاءه، إلا أداه الله عنه في الدنيا»[٤]

اللهم أعز الإسلام والمسلمين.

---

(١) مضى تخريجه.
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٤٤٢)، ومسلم (رقم ٢٥٨٠) واللفظ له.
(٣) «صحيح الجامع» (٥٦١٠).
(٤)«صحيح الجامع» (٥٥٥٣).

الخطبة السادسة والعشرون

المسجد في الإسلام

أيها الإخوة **عباد الله**! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن المسجد في الإسلام.

عباد الله! أولُ عملٍ قام به النبي ﷺ عندما وصل إلى المدينة هو بناء المسجد.

يقول أنس بن مالك ﷺ: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل علوِّ المدينة، في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى ملأ بني النجار، فجاءوا متقلدين بسيوفهم.

قال أنس: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته، وأبوبكر ردفه، وملأ بني النجار حوله، حتى ألقى بفناء أبي أيوب، قال أنس: وكان رسول الله ﷺ يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم، ثم إنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى بني النجار فجاءوا، فقال ﷺ: «يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا»، قالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله.

قال أنس: فكان فيه ما أقول لكم: كان فيه نخل، وقبور المشركين وخربٌ، فأمر رسول الله ﷺ بالنخل فقطع، وبقبور المشركين فنبشت وبالخرب فسويت، وصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه حجارة.

وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم: اللهم لا

خير إلا خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة»[1].

هكذا عباد الله! بدأ النبي ﷺ ببناء المسجد في المدينة، وهو مسجد النبي ﷺ الذي لا تشد الرحال إلا إليه، وإلى المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، بنى النبي ﷺ لله بيتاً قبل أن يبني لنفسه بيتاً وسكناً، وبهذه البساطة قام مسجد النبي ﷺ من النخيل ومن الحجارة والسقف من الجريد، ولكنه خرَّج رجالاً هم صحابة النبي ﷺ، الذين فتحوا قلوب العباد والبلاد.

عباد الله! وحديثنا عن المسجد سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: اهتمام الإسلام بالمساجد.

العنصر الثاني: أهمية المسجد في الإسلام.

العنصر الثالث: البدع والمخالفات الشرعية التي وقعت في بناء المساجد.

العنصر الأول: اهتمام الإسلام بالمساجد.

اهتم الإسلام بالمساجد اهتماماً كبيراً وربط المسلمين بالمساجد، ففي كتاب ربنا: قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ [الأعراف:٢٩].

وقال تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

وقال تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾ [التوبة:١٠٨].

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٢٨)، ومسلم (رقم ٥٢٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة:١١٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ﴾ [البقرة:١٨٧].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:١٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨]. وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور:٣٦-٣٧].

عباد الله! أما في سنة رسول الله ﷺ فقد اهتم النبي ﷺ بالمساجد اهتماماً كبيراً، فحث النبي ﷺ على بناء المساجد، فقال ﷺ: «من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله؛ بنى الله له بيتاً في الجنة»[١]، وقال ﷺ: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علماً علَّمه ونشره، وولداً صالحاً تركه، ومصحفاً ورثه أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه مِنْ بعد موته»[٢].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٥٠)، ومسلم (رقم ٥٣٣) واللفظ له.
(٢) «صحيح الجامع» (٢٢٢٧).

- وحث النبي ﷺ على نظافة المساجد فقال ﷺ: «البصاق في المسجد خطيئة، وكفارتها دفنها»[١].

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدُّور (أي: في الأحياء) وأن تنظف وتطيب»[٢].

وقال ﷺ: «من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل: لا ردَّها الله عليك، فإن المساجد لم تبن لهذا»[٣].

فلا يجوز إنشاد الضالة عبر السماعات في المسجد.

وقال ﷺ: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك»[٤].

وقال ﷺ: «لا تقام الحدود في المساجد، ولا يستقاد فيها»[٥].

- وأمر النبي ﷺ الرجال بحضور الجماعة في المساجد وحذر من التخلف عن ذلك بدون عذر شرعي، فقال ﷺ: «من سمع النداء فلم يأت فلا صلاة له إلا من عذر»[٦].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحتطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلاً

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤١٥)، ومسلم (رقم ٥٥٢).
(٢) «صحيح أبي داود» (١/ ٤٣٦).
(٣) رواه مسلم (رقم ٥٦٨).
(٤) «صحيح الترمذي» (١/ ٢٦٥).
(٥) «صحيح أبي داود» (٣/ ٣٧٦٩).
(٦) رواه ابن ماجه (٧٩٣).

فيؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم..»[١].

فليتق الله الذين يتخلفون عن صلاة الجماعة بلا عذر شرعي.

- وحث النبي ﷺ على شهود الجماعة، وحضور الصلاة، وملازمة المساجد في أوقات الصلاة.

فقال ﷺ: «من غدا إلى المسجد أو راح أعدَّ الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح»[٢].

وقال ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط»[٣].

وقال ﷺ: «بشر المشائين في الظُّلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»[٤].

وقال ﷺ: «صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد، لا يخرجه إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحطت عنه بها خطيئه»[٥].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٦٤٤)، ومسلم (رقم ٦٥١).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٦٦٢)، ومسلم (رقم ٦٦٩).
(٣) رواه مسلم (رقم ٢٥١).
(٤) «صحيح أبي داود» (رقم ٥٢٥).
(٥) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٦٤٧)، ومسلم (رقم ٦٤٩) واللفظ للبخاري.

- وقد رغَّب النبي ﷺ في حب المساجد والتعلق بها وحضور مجالس العلم فيها والجلوس فيها لذكر الله بعد صلاة الفجر حتى تطلع الشمس.

فقال ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمساجد..»[١].

وقال ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[٢].

وقال ﷺ: «المسجد بيت كل تقي»[٣].

وقال ﷺ: «من صلى الفجر في جماعة، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، كانت له كأجر حجة وعمرة تامة، تامة، تامة»[٤].

عباد الله! اهتم الإسلام بالمساجد اهتماماً بالغاً أتدرون لم يا عباد الله؟!

هذا الذي نعرفه من؛

العنصر الثاني: أهمية المسجد في الإسلام.

عباد الله! المسجد هو أحب البقاع إلى الله تعالى، قال ﷺ: «أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها»[٥].

المسجد هو قلعة الإيمان، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٦٦٠)، ومسلم (رقم ١٠٣١).

(٢) رواه مسلم (رقم ٢٦٩٩).

(٣) «السلسلة الصحيحة» (٧١٦).

(٤) «صحيح الجامع» (٦٢٢٢).

(٥) رواه مسلم (رقم ٦٧١).

﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف:٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:١٨].

المسجد هو المدرسة التي يتخرج منها الرجال، الذين يفتحون قلوب العباد والبلاد بدعوة الإسلام، قال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور:٣٦-٣٧].

المسجد هو المدرسة التي يتعلم المسلمون فيها دينهم الصحيح، من خلال الكتاب والسنة، بفهم سلف الأمة، فقد علم النبي ﷺ أصحابه وزكاهم في مسجده، فتخرج من مسجد رسول الله ﷺ الصحابه -رضي الله عنهم- الذين فتحوا قلوب العباد والبلاد.

فمن أين تخرج أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسلمان وصهيب وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين؟

المسجد هو المدرسة التي يتعلم المسلمون فيها النظام في كل شيء في أعمالهم، في بيوتهم، في شؤونهم، في أسواقهم، ففي المسجد رجل يؤذن للصلاة فإذا أمره الإمام بإقامة الصلاة أقامها، ثم يتقدم الإمام ليؤم الناس، فلا يتقدم أحد للإمامة إلا بعد إذنه وهذا هو النظام في أسمى صورة وأبهى حلته، ويقوم المسلمون أجمعون خلف هذا الإمام صفوفاً معتدلة متساوية.

وكان النبي ﷺ يهتم بنفسه بتسوية هذه الصفوف وتعديلها ويأمر بها:

عن أبي مسعود ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة،

ويقول: «استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم»[١].

فانظروا عباد الله!، يوم أن كانت الصفوف على عهد رسول الله ﷺ مستوية اتحدت القلوب، ويوم أن أصبحت الصفوف في أيامنا معوجة كانت القلوب مختلفة فتفرقت الأمة وضعفت، وقوي الأعداء علينا.

وعن النعمان بن بشير ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يسوّي صفوفنا حتى كأنما يسوي بها القداح، حتى رأى أن قد عقلنا عنه. ثم خرج يوماً فكاد أن يكبر فرأى رجلاً بادياً صدره من الصف فقال: «عباد الله! لَتُسوُّنَّ صفوفكم، أو ليخالفنَّ الله بين وجوهكم»[٢].

وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «أقيموا الصفوف، حاذوا بين المناكب، سدوا الخلل، ولينوا بأيدي إخوانكم، ولا تذروا فرجات للشيطان، من وصل صفاً وصله الله، ومن قطع صفاً قطعه الله»[٣].

وقال ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا رفع فارفعوا، وإذا قال: سمع الله لمن حمده فقولوا: اللهم ربنا ولك الحمد وإذا سجد فاسجدوا، وإذا صلى جالساً فصلوا جلوساً أجمعين»[٤].

فانظروا عباد الله! إلى هذا النظام، الصفوف مستوية خلف إمام واحد وهم ملتزمون بهديه، مقتدون بفعله، لا يكبرون حتى يكبر، ولا يركعون

---

(١) رواه مسلم (رقم ٤٣٢).
(٢) رواه مسلم (رقم ٤٣٦).
(٣) «صحيح سنن أبي داود» (١٦٢٠).
(٤) «صحيح الجامع» (٢٣٥٣).

حتى يركع، ولا يرفعون حتى يرفع، ولا يسجدون حتى يسجد، ولا ينصرفون من الصلاة حتى ينصرف.

والذي يخالف هذا الإمام وهذا النظام متوعد بالمسخ على لسان رسول الله ﷺ، قال ﷺ: «أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار، أو يجعل الله صورته صورة حمار»[1].

عباد الله! في المسجد ترى العدل والمساواة في أبهى صورها، فالغني بجوار الفقير، والكبير بجوار الصغير، والعامي بجوار الأمير، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

في المسجد ترى الرحمة من الإمام على المأمومين، وترى السمع والطاعة من المأمومين للإمام، وهذا يعلم المسلمين السمع والطاعة للأمير العام، ويعلم الأمير الرحمة على الرعية التي استرعاه الله عليها.

فالرعية التي تربت في المسجد تسمع وتطيع لأميرها، وإن ضربها وأخذ أموالها ما لم يأمر بمعصية الله، فإن أمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله.

في المسجد تربى المسلمون على مراقبة الله في أعمالهم، فالذي يقف خمس مرات بين يدي ربه يمنعه ذلك من الإقدام على المعاصي والذنوب.

العنصر الثالث: البدع والمخالفات الشرعية التي وقعت في بناء المساجد.

عباد الله! تبين لنا ما للمسجد من أهمية كبيرة في حياة المسلمين وعلى

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٦٩١)، ومسلم (رقم ٤٢٧).

الرغم من عظم هذه الأهمية، فقد فرط المسلمون من ناحية في بناء هذه المساجد، وأفرطوا من ناحية ثانية.

أما تفريطهم؛ فإنك تجد آلاف القرى والأحياء في العالم الإسلامي ليس فيها مسجد واحد، بينما تتناثر في كل مكان دور اللهو والفجور وأما إفراطهم؛ فإنك تجد المسجد الواحد وقد كلف بناؤه مئات الألوف من الدنانير، أنفقت على الزخارف والتحف التي أودعوها في هذا المسجد؛ حتى صار بالمتحف أشبه منه بالمسجد.

عباد الله! ومن المخالفات الشرعية التي وقع فيها الكثير من المسلمين في بناء المساجد.

أولاً: بناء المساجد على القبور.

وهذا حرام، ولا يجوز في شريعة الإسلام، والنبي ﷺ عندما اشترى الأرض التي يريد أن يبني فيها مسجده ووجد فيها قبور المشركين، أمر بقبور المشركين فنبشت، لأنه لا يجوز بناء المساجد فوق القبور لقول النبي ﷺ قال: «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام»[1].

ولقد كان ﷺ يُحذر من اتخاذ المساجد على القبور ويعد المتخذين شرار الخلق.

عن عائشة -رضي الله عنها- أن أم سلمة وأم حبيبة -رضي الله عنهما- ذكرتا لرسول ﷺ كنيسة رأتاها في أرض الحبشة فيها تصاوير فقال ﷺ: «أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا

(١) «صحيح سنن ابن ماجه» (٦٠٦).

فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»[١].

ولما حضرته ﷺ الوفاة لم ينشغل بسكرات الموت مع شدتها عن تحذير أمته من اتخاذ القبور مساجد

- عن عائشة وابن عباس -رضي الله عنهم- قالا: لما نزل برسول الله ﷺ؛ طفِق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتمَّ بها؛ كشفها، فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٢] يحذر ما صنعوا.

وعن جندب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك»[٣].

فلا يجوز أبداً أن يُبنى مسجد على قبر، أو يجاء برجل فيدفن في المسجد، لأن الإسلام جاء لمحاربة الشرك وسد الذرائع التي تفضي إلى الشرك، واتخاذ المساجد على القبور ودفن الصالحين في المساجد بعد موتهم من وسائل الشرك.

ثانياً: زخرفة المساجد

قال ﷺ: «ما أمرت بتشييد المساجد»[٤].

وقال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد»[٥].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٢٧)، ومسلم (رقم ٥٢٨).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٣٥، ٤٣٦)، ومسلم (رقم ٥٣١).

(٣) رواه مسلم (رقم ٥٣٢).

(٤) «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٤٣١).

(٥) «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٤٣٢).

وقال ﷺ: «إذا حليتم مصاحفكم، وزوقتم مساجدكم، فالدمار عليكم»[1].

وصدق رسول الله ﷺ حين نبأ بمصير المسلمين في قوله: «لتتبعن سنن من قبلكم؛ شبراً بشبر، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم»، قيل: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟!»[2].

المسلمون اليوم انشغلوا بزخرفة المساجد عن تزكية النفوس، وعمارة المساجد بالصلاة فيها فكان هذا حالهم.

أما أسلافنا الكبار -الصحابة رضي الله عنهم- فقد انصرفوا عن زخرفة المساجد وتشييدها إلى تزكية أنفسهم وتقويمها، فكانوا أمثلة صحيحة للإسلام، وفتحوا قلوب العباد والبلاد.

ورضي الله عن عمر الفاروق الذي قال لرجل عندما هم ببناء المسجد: «أكنّ الناس من المطر وإياك أن تحمر أو تصفر؛ فتفتن الناس»

فيا **أمة الإسلام!** عودوا إلى الله وإلى القرآن، وعودوا إلى المساجد، وكونوا في المساجد، كما أراد الله وكما أراد رسول الله ﷺ.

اللهم فقهنا في ديننا.

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (١٣٥).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٤٥٦)، ومسلم (رقم ٢٦٦٩).

الخطبة السابعة والعشرون

الإخاء بين المهاجرين والأنصار

أيها الإخوة **عباد الله!** موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن الإخاء بين المهاجرين والأنصار

عباد الله! في الجمعة الماضية تبين لنا أن رسول الله ﷺ عندما وصل إلى المدينة بدأ أولاً ببناء المسجد، لأن في المسجد يقف المسلمون خمس مرات في اليوم والليلة بين يدي ربهم، وفي المسجد يتعلم المسلمون دينهم، وفي المسجد يتعود المسلمون على النظام في كل حياتهم، وفي المسجد يتدرب المسلمون على السمع والطاعة لأولي أمرهم.

عباد الله! ولما وصل النبي ﷺ المسلمين بربهم من خلال عبادتهم في المسجد، وصل بين المسلمين بعضهم ببعض فآخى بين المهاجرين والأنصار.

عباد الله! وحديثنا عن الإخاء بين المهاجرين والأنصار سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: المهاجرون والأنصار في الكتاب والسنة.

العنصر الثاني: الإخاء بين المهاجرين والأنصار.

العنصر الثالث: حقوق الأخوة في الله.

العنصر الرابع: الأمراض التي تفتك وتفسد الأخوة في الله.

العنصر الأول: المهاجرون والأنصار في الكتاب والسنة.

المهاجرون هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، طاعة ومحبة لله ولرسوله ﷺ ونصرة لدين الله كما وصفهم ربهم في كتابه.

فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر:٨].

نعم والله صادقون في إيمانهم، صادقون في هجرتهم، صادقون في محبتهم لله ولرسوله ﷺ.

أما الأنصار هم أهل المدينة الذين استقبلوا إخوانهم المهاجرين وضربوا مثلاً أعلى في الإيثار، كما وصفهم ربهم -تبارك وتعالى- في كتابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر:٩].

ومن الأمثلة على الإيثار عند الأنصار

يقول أبوهريرة ﷺ: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! أصابني الجهْد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يضيفه هذه الليلة يرحمه الله!؟ فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله.

فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله ﷺ لا تدخري به شيئاً. قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية!

قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت.

ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: لقد عجب الله -عز وجل- أو ضحك من فلان وفلانة، فأنزل الله -عز وجل-: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ

﴿وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾[(١)].

ولذلك أثنى رسول الله ﷺ على الأنصار وتمنى أن يكون منهم فقال ﷺ: «لو أن الأنصار سلكوا وادياً أو شعباً لسلكت في وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار».

فقال أبو هريرة: ما ظلم بأبي وأمي! آووه ونصروه[(٢)].

وجعل النبي ﷺ حبهم علامة الإيمان، وبغضهم أمارة النفاق، فقال ﷺ: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»[(٣)].

فالويل للروافض الشنيعة الذين يبغضون صحابة رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ يقول: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»[(٤)].

وقال ﷺ: «استوصوا بالأنصار خيراً»[(٥)].

عباد الله! ها هم أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، من سلك سبيلهم سعد في الدنيا والآخرة، ومن ترك سبيلهم شقي في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٨٨٩)، ومسلم (رقم ٢٠٥٤).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٧٧٩).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٧٨٣)، ومسلم (رقم ٧٥).
(٤) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٧٨٤)، ومسلم (رقم ٧٤).
(٥) «ترتيب صحيح الجامع» (٢/١٥٨).

ﭐلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

وقال ﷺ: «وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة». قيل وما هي يا رسول الله؟ قال: «التي تكون على ما أنا عليه اليوم وأصحابي»[1].

عباد الله! وها هم صحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار كما وصفهم الله في كتابه فقال: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح:٢٩].

العنصر الثاني: الإخاء بين المهاجرين والأنصار.

عباد الله! عندما وصل النبي ﷺ المدينة وبنى المسجد؛ آخى بين المهاجرين والأنصار أخوةً تجعل المهاجري أولى بمال أخيه الأنصاري في الميراث من أهله وأقاربه والعكس، فضرب الأنصار المثل الأعلى في الوفاء بحق الأخوة وحسن الاستقبال وكرم الضيافة.

عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: لما قدمنا المدينة آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت تزوجتها، فقال له عبدالرحمن: لا حاجة لي في شيء من ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟

---

(١) مضى تخريجه.

قال: سوق قينقاع.

فغدا إليه عبدالرحمن فأتى بأقط وسمن ثم تابع الغدو، فما لبث أن جاء وعليه أثر صفرة، فقال له النبي ﷺ: «تزوجت»؟

قال: نعم. قال: «مَنْ؟» قال: امرأةً من الأنصار قال: «وكم سقت؟» قال: زنة نواةٍ من ذهب فقال له النبي ﷺ: «أولم ولو بشاة»[1].

عباد الله! عقد الأنصار عقد الإخاء بكل تسامح وإيثار، وهم أصحاب الأموال وأهل الديار، وعقد المهاجرون عقد الإخاء بكل عفة وزهد واستغناء، شاكرين لإخوانهم الأنصار حسن استقبالهم، وكرم ضيافتهم، وإن تعجب فاعجب من سعد بن الربيع وهو يعرض على أخيه عبدالرحمن بن عوف نصف ماله، ويزداد عجبك حين تسمع سعد بن الربيع وهو يقول لأخيه عبدالرحمن بن عوف: عندي زوجتان انظر إليهما فأيتهما أعجبتك فسمِّها لي؛ فأطلقها فإذا انقضت عدتها تزوجتها الله أكبر! الله أكبر ما هذا الذي نسمعه؟

لا تعجب فإن الإيمان إذا تمكن من القلوب فعل أكثر من ذلك.

وإن تعجب من حسن العرض، فاعجب أكثر وأكثر من حسن الرفض اعجب من قول عبدالرحمن بن عوف لأخيه سعد بن الربيع: بارك الله لك في أهلك ومالك، لا حاجة لي في شيء من ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ ثم ذهب إلى السوق وتاجر.

الله أكبر من أي مدرسة تخرج هؤلاء؟ إنها مدرسة محمد ﷺ.

---

(١) رواه البخاري (رقم ٢٠٤٨).

عباد الله! استمر عقد الإخاء بين المهاجرين والأنصار، إذا مات أحدهما ورثه أخوه دون ابن أمه وأبيه إلى أن أنزل الله -عز وجل- قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ [الأحزاب:٦].

فنسخت روابط الإخاء وبقيت أخوة النسب دون أخوة الإخاء الذي أمضاه النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار.

العنصر الثالث: حقوق الأخوة في الله:

أنزل الله -تبارك وتعالى- قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فربط الله -عز وجل- بين المسلمين برابطة الإيمان التي هي أقوى من رابطة النسب والوطن واللغة، فالمؤمنون إخوة وإن تباعدت أقطارهم، المؤمنون إخوة وإن تباعدت أجسادهم، يقول ﷺ: «المسلم أخو المسلم»[١].

ويقول ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»[٢] وشبك بين أصابعه.

عباد الله! وهذه الأخوة في الله لها حقوق كثيرة منها:

أولاً: التناصح والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، فالمسلم ناصح لأخيه المسلم أما المنافق يفضح قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٤٤٢)، ومسلم (رقم ٢٥٨٠).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٨١)، ومسلم (رقم ٢٥٨٥).

حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ [التوبة:٧١]. قال تعالى: إخباراً عن نوح عليه السلام: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ وعن هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾. فالنصيحة من صفات الرسل والمؤمنين.

وقال ﷺ: «الدين النصيحة» ثلاث مرات. قيل لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1].

وعن جرير بن عبدالله ﷺ قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة والنصح لكم مسلم[2].

عباد الله! ومن الأمثلة على التناصح:

آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة أي لابسة ثياب المهنة، تاركة ثياب الزينة فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبوالدرداء ليس له حاجة في الدنيا -أي: في النساء- وفي رواية: «يصوم النهار ويصلي الليل» فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً -أي لسلمان- فقال له: كل فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فلما كان الليل ذهب أبوالدرداء يقوم، فقال له -أي سلمان- نم، فنام، ثم ذهب يقوم فقال له: نم فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا جميعاً فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه، فأتي النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال له النبي ﷺ: «صدق سلمان»[3].

ثانياً: النصرة والدفاع والإعانة على قضاء الحاجات، قال ﷺ: «انصر

---

(١) رواه مسلم (رقم ٥٥).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٥٧)، ومسلم (رقم ٥٦).
(٣) رواه البخاري (رقم ١٩٦٨).

أخاك ظالماً أو مظلوماً، قالوا: يا رسول الله تنصره مظلوماً فكيف تنصره ظالماً؟ قال: تمنعه من ظلمه فذلك نصرك إياه»[١].

وقال ﷺ: «من نصر أخاه بظهر الغيب نصره الله في الدنيا والآخرة»[٢].

وقال ﷺ: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[٣].

وقال ﷺ: «لأن أمشي في حاجة أخي أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد (يعني مسجد المدينة) شهراً، ومن مشى مع أخيه في حاجة له حتى تتهيأ له ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام»[٤].

الشفاعة الحسنة لأخيك أن تمشي لقضاء حاجته.

ثالثاً: من حقوق الإخوة في الله: الدعاء لأخيك بظهر الغيب

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر:١٠].

وقال ﷺ: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل»[٥].

رابعاً: ومن حقوق الإخوة في الله: الاستغفار للأخ حياً وميتاً، فإن

---

(١) رواه البخاري (رقم ٢٤٤٣).

(٢) «صحيح الجامع» (٦٤٥٠).

(٣) رواه مسلم (رقم ٢٦٩٩).

(٤) «السلسلة الصحيحة» (٩٠٦).

(٥) رواه مسلم (رقم ٢٧٣٣).

الاستغفار هو دأب الملائكة المقربين والنبيين المرسلين.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر:٧].

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١].

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح:٢٨].

وأمر الله رسول ﷺ بذلك فقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩].

وقال ﷺ: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة»[1].

وكان ﷺ إذا وضع الميت في قبره وأهال عليه التراب يقول: «استغفروا لأخيكم واسألوا الله له التثبيت فإنه الآن يسأل»[2].

خامساً: ومن حقوق الإخوة في الله: الإصلاح بينهم إذا وقع بينهم خلاف ونزاع.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ

---

(١) «صحيح الجامع» (٥٩٠٢).

(٢) قال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد «أحكام الجنائز» (ص١٩٨).

﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝﴾ [الحجرات:٩-١٠].

سادساً: ومن حقوق الإخوة في الله: أن يحب الأخ لأخيه ما يحب لنفسه.

قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[١].

سابعاً: ومن حقوق الإخوة في الله: التعاون على البر والتقوى.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة:٢].

وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٢].

ثامناً: من حقوق الإخوة في الله: التزاور في الله

قال الله تعالى: «وجبت محبتي للمتحابين فيّ والمتجالسين في والمتزاورين في»[٣].

وقال ﷺ: «إن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته ملكاً، فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تُربُّها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٣)، ومسلم (رقم ٤٥).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٦٠١١)، ومسلم (رقم ٢٥٨٦).
(٣) «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٠١٨).

قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»[1].

تاسعاً: ومن أعظم حقوق الأخوة في الله: ألا يكون الأخ أحق بدرهمه وديناره من أخيه.

لأن النبي ﷺ قال: «ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه»[2].

ولقد أتى أبا هريرة رجل فقال: يا أبا هريرة إني أريد أن أؤاخيك في الله

فقال أبوهريرة: وهل تدري ما حق الأخوة؟

قال: لا، عرفني.

قال: إن من حق الأخوة ألا تكون أحق بدرهمك ولا دينارك مني.

فقال الرجل: لم أبلغ هذه المنزلة.

قال أبوهريرة: فإليك عني[3].

وقال أبوجعفر لأصحابه يوماً: أيدخل أحدكم يده في جيب أخيه فيأخذ من ماله ما يريد؟

قالوا: لا. قال: فلستم بإخوان كما تزعمون[4].

العنصر الرابع: الأمراض التي تفتك، وتفسد الأخوة في الله.

أولاً: الحسد والتباغض والتدابر

قال ﷺ: «..لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبع

---

(١) رواه مسلم (رقم ٢٥٦٧).

(٢) «صحيح الجامع» (٥٢٥٨).

(٣) «منهاج المسلم» (ص١٣١).

(٤) «مختصر منهاج القاصدين» (ص١٠٠).

بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره (ثلاث مرات) بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»[١].

ثانياً: سوء الظن والتجسس والغيبة والنميمة.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾ [الحجرات:١٢].

وقال ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا..»[٢].

ثالثاً: الهجران ولذلك كان النبي ﷺ يحذر أمته من الهجر

قال ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[٣].

وقال ﷺ: «تعرض أعمال الناس في كل خميس واثنين، فيغفر الله -عز وجل- في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً؛ إلا امرءاً كان بينه وبين أخيه شحناء، فيقول اتركوهما حتى يصطلحا»[٤].

رابعاً: السخرية ولذلك حذر الإسلام من أن يسخر المسلم من أخيه المسلم.

---

(١) رواه مسلم (رقم ٢٥٦٤).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٦٠٦٦)، ومسلم (رقم ٢٥٦٣).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٦٠٧٧)، ومسلم (رقم ٢٥٦٠).
(٤) رواه مسلم(رقم ٢٥٦٥ بعد ٣٦).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات:١١].

خامساً: عدم التثبت من الأخبار التي ينقلها بعض الفساق.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦].

سادساً: الغش في البيع والشراء.

قال ﷺ: «من غشنا فليس منا»(١).

وقال ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»(٢).

فاتقوا الله عباد الله!، وكونوا على حذر من هذه الأمراض التي فرقت بين المسلمين، وكونوا عباد الله! إخواناً كما أمركم الله تبارك وتعالى.

اللهم ألف بين قلوب المسلمين.

---

(١) «صحيح الجامع» (٦٢٨٣).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٠٧٩)، ومسلم (رقم ١٥٣٢).

الخطبة الثامنة والعشرون

وفاء المسلمين وغدر وخيانة اليهود

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن وفاء المسلمين وغدر وخيانة اليهود.

عباد الله! عندما وصل النبي ﷺ إلى المدينة مهاجراً من مكة انشغل بما يلي:

أولاً: صلة الأمة بالله، فبادر ﷺ إلى بناء المسجد كما ذكرنا، لتظهر فيه شعائر الإسلام التي طالما حوربت، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء بربه، وتنقى القلب من أدران الأرض، ودسائس الحياة الدنيا.

ثانياً: صلة الأمة بعضها ببعض، فآخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار أخوة تمحى من خلالها كلمة (أنا)، ويتحرك الفرد فيها بروح الجماعة ومصلحتها وآمالها، فلا يرى لنفسه كياناً دونها..

ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه.

ثالثاً: صلة الأمة بالأجانب عنها، ممن لا يدينون دينها، أخص بالذكر «اليهود» الذين استوطنوا المدينة في ذلك الوقت.

عباد الله! وحديثنا عن وفاء المسلمين وغدر وخيانة اليهود سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: الإسلام دين السلام والأمن والأمان، يأمر بالوفاء وينهى عن الخيانة والغدر.

العنصر الثاني: موقف اليهود من رسول الله ﷺ عندما وصل إلى المدينة.

العنصر الثالث: معاملة النبي ﷺ لليهود في المدينة.

العنصر الرابع: اليهود أهل غدر وخيانة.

العنصر الأول: الإسلام دين السلام والأمن والأمان، يأمر بالوفاء وينهى عن الخيانة والغدر:

عباد الله! الإسلام دين السلام والأمن والأمان، قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال:٦١].

وقال عبدالله بن سلام -وكان رجلاً يهودياً شرح الله صدره للإسلام-:

فلما رأيت وجهه (أي النبي ﷺ) علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب فكان أول شيء سمعته تكلم به أن قال: «يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»[(١)].

وسأل رجل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟

قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[(٢)].

وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه»[(٣)].

وقال ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[(٤)].

عباد الله! الإسلام دين يأمر بالوفاء بالعهود ويحذر من الخيانة والغدر،

---

(١) «صحيح الجامع» (٧٧٤٢).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٢)، ومسلم (رقم ٣٩).
(٣) رواه مسلم (رقم ٤٦).
(٤) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٠)، ومسلم (رقم ٤٠).

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٤]، أي يا معشر المسلمين إذا عاهدتم فأوفوا بعهدكم، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل:٩١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ﴾ [المائدة:١]، وقال تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال تعالى محذراً من نقض العهود: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد:٢٥].

عباد الله! والنبي ﷺ يربي أمته على الوفاء بالعهود ويحذرهم من خلف الوعود، قال ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»[(١)].

وقال ﷺ: «اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة»: منها «وأوفوا إذا وعدتم»[(٢)].

والنبي ﷺ يقول: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوتمن خان».

وفي رواية لمسلم زاد: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم»[(٣)].

---

(١) «صحيح الجامع» (٧٠٥٦).

(٢) «صحيح الجامع» (١٠٢٩).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٣)، ومسلم (رقم ٥٩).

عباد الله! ولذلك ضرب لنا الرسول ﷺ والمسلمون من بعده مثلاً أعلى في الوفاء بالعهود، استجابة لأمر الله ولأمر رسوله ﷺ.

العنصر الثاني: موقف اليهود من رسول الله ﷺ عندما وصل إلى المدينة.

عباد الله! اليهود شعب مجرم لا يحب إلا نفسه، ولا يعرف إلا مصالحه؛ يعيش على حساب خراب بيوت الآخرين، دائماً يُشعلون نار الحرب بين القبائل قديماً وبين الدول حديثاً.

واليهود في المدينة هم الذين كانوا يشعلون نار الحرب بين الأوس والخزرج، فلما جاء النبي ﷺ إلى المدينة بالإسلام، عرفوا وأيقنوا أن هذا الدين الجديد يقضي على مصالحهم الخبيثة، فنظروا إلى الرسول ﷺ والإسلام نظرة حقد وحسد وبغض ولكنهم لم يستطيعوا أن يظهروا ذلك في أول الأمر.

ويظهر لنا ذلك من قصة إسلام عبدالله بن سلام عندما أرسل النبي ﷺ إلى اليهود فجاءوا فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود؛ ويلكم اتقوا الله وأسلموا، فوالله الذي لا إله إلا هو لقد علمتم أني رسول الله حقاً، وأني قد جئتكم بالحق من عنده»

فقالوا: ما نعلمه -وهذا يدل على ما في قلوبهم- علماً أنهم يعرفون رسول الله ﷺ حقاً كما يعرفون أبناءهم.

وعندما قال لهم: «أرأيتم إن أسلم عبدالله بن سلام؟

قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم.

وعندما قال لهم عبدالله بن سلام: يا معشر اليهود! اتقوا لله فوالله الذي

لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بالحق، فقالوا له: كذبت (وهذا يعبر عما في قلوب اليهود).

ويظهر لنا ذلك أيضاً مما رواه ابن إسحاق عن أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب -رضي الله عنها- أنها قالت: كنت أَحَبُّ ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر؛ لم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه.

قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي؛ حيي بن أخطب، وعمي أبوياسر بن أخطب مغلسين -أي وقت صلاة الفجر-

قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس.

قالت: فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى

قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع. فوالله! ما التفت إلي واحدٌ منهما، مع ما بهما من الغمِّ.

قالت: وسمعت عمي أبا ياسر، وهو يقول لأبي، حيي بن أخطب: أهو هو؟ -وهذا هو الشاهد- أي: أهو الرسول الذي نعرفه في التوراة.

قال: نعم والله!

قال: أتعرفه وتثبته؟

قال: نعم

قال: فما في نفسك منه؟

قال: عداوته والله! ما بقيت -وهذا هو الشاهد-[1].

(١) «سيرة ابن هشام» (١/٥١٨-٥١٩).

هذا هو موقف اليهود من الرسول ﷺ عندما وصل إلى المدينة،حقد بغضاء حسد عداوة.

العنصر الثالث: معاملة النبي ﷺ لليهود في المدينة.

عباد الله! لما استقرت الأوضاع في المدينة، تطلع رسول الله ﷺ إلى حماية المدينة من الداخل -وهذا ما يقال في لغة العصر تأمين الجبهة الداخلية- فسعى إلى أن يكون بينه وبين اليهود -وهم على دينهم- حسن جوار فلا يؤذيهم ولا يؤذونه، ولا يعتدي عليهم ولا يعتدون عليه، فدعى النبي ﷺ إلى معاهدة سلم تكفل لهم الحرية الكاملة التامة في دينهم وأموالهم، وتضمن لهم أن يعيشوا في جوار النبي ﷺ في سلم وسلام، وأمن وأمان.

وكان من مقتضى هذه المعاهدة أن يكون المسلمون واليهود يداً واحدة ضد كل من قصد المدينة بسوء.

وكان في المدينة من اليهود ثلاث طوائف: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، فعاهدهم النبي ﷺ جميعاً على المسالمة،وعلى النصرة والمؤازرة ضد كل من يقصد المدينة بسوء.

عباد الله! وأخذ النبي ﷺ يحث المسلمين على الوفاء،وأداء الأمانة،وينهاهم عن الغدر والخيانة، ويأمرهم باحترام هذه المعاهدة واحترام أهلها، ويحذرهم من الاعتداء على أهل هذه المعاهدة في نفس أو مال، فجعل ﷺ يقول: «ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»[1].

---

(١) «صحيح أبي داود» (٢٦٢٦).

وجعل ﷺ يقول: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»[١].

عباد الله! وتأليفاً من النبي ﷺ لقلوب اليهود، وطمعاً في إسلامهم:

توجه ﷺ في صلاته إلى بيت المقدس بأمر الله له.

ورأى اليهود يصومون يوم عاشوراء؛ فسألهم عن سبب صيامهم فقالوا: ذاك يوم نجَّى الله تعالى فيه موسى وبني إسرائيل، وأهلك فرعون وملأه؛ فنحن نصومه شكراً لله -عز وجل- فقال ﷺ: «نحن أحق بموسى منكم» فصامه وأمر بصيامه»[٢].

وظل ﷺ يوافقهم على ما هم عليه؛ فيما لم يأته فيه وحي من الله -عز وجل- تأليفاً لقلوبهم، فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: كان رسول الله ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه.

«وكان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، فسدل النبي ﷺ ناصيته ثم فرق بعد»[٣].

سدل رسول الله ﷺ ناصيته تأليفاً منه لليهود، وموافقة لهم حتى يكون قريباً منهم، ومع ذلك لم يستجيبوا له، ثم فرق بعد أن دخل الوثنيون في الإسلام وأبى اليهود إلا الكفر.

عباد الله! وكان القرآن الكريم ينزل على النبي ﷺ مفرقاً في العلاقة بين

---

(١) رواه البخاري (رقم ٣١٦٦).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٠٠٥)، ومسلم (رقم ١١٣١).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٥٥٨)، ومسلم (رقم ٢٣٣٦) واللفظ له.

المسلمين واليهود، وبين المسلمين والوثنيين.

فنهى الله تعالى رسوله والمسلمين عن أكل طعام الوثنيين وعن الزواج منهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام:١٢١]، وقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة:٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة:١٠].

نهيٌ عن أكل ذبائح المشركين، ونهى عن الزواج منهم.

أما اليهود والنصارى فقد أحل الله تعالى طعامهم والزواج منهم.

فقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝﴾ [المائدة:٥].

عباد الله! ونزل القرآن الكريم يدعو اليهود والنصارى إلى الإيمان، ويرغبهم فيه، وينهاهم عن الكفر.

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ

ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة:١٥-١٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران:٦٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران:٧٠-٧١].

عباد الله! ومع ذلك كله، فقد أصر اليهود على الكفر، واستكبروا استكبار، ومكروا للإسلام والمسلمين مكراً كباراً، فمن مكرهم وخديعتهم، أن يدخل في الإسلام نفر منهم أول النهار، ويجلسون عند رسول الله ﷺ وبين المسلمين، ويراهم المسلمون جميعاً، حتى إذا كادت الشمس تغرب رجع هؤلاء اليهود عن إسلامهم آخر النهار وذلك حتى يقال: إن اليهود أهل نبوة وأهل كتاب، وعندهم علم من السماء فقد دخلوا في الإسلام يظنونه دين الحق، فلما دخلوا فيه تبين لهم أنه ليس دين الحق، ولذلك رجعوا عنه فتكون هذه فتنة لضعاف الإيمان، والذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم بعد، والله -عز وجل- الذي خلقهم يعلم طبائعهم وخبثهم، فأخبرنا في كتابه عن صنيعهم، قال: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾ [آل عمران:٧٢-٧٣].

وحذر ربنا -جل وعلا- اليهود من هذا الفعل، فقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران:٩٩].

عباد الله! وقد أخبرنا الله -عز وجل- في كتابه عما تحمله اليهود في قلوبهم نحو المسلمين والإسلام، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ﴾ [المائدة:٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠].

عباد الله! من أجل ذلك حذر الله -عز وجل- رسوله ﷺ والمسلمين من أهل الكتاب -اليهود والنصارى-

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران:١١٨-١٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران:١٠٠-١٠١].

العنصر الرابع: اليهود أهل غدر وخيانة.

عباد الله! ومع ذلك كله ظل النبي ﷺ وفياً لهم بعهده، ملتزماً بالميثاق الذي أخذه على نفسه لهم، حتى كانوا هم أول من نقض العهد، فأجلاهم وأخرجهم من المدينة، وقتل فيهم من قتل، وكان أول من نقض العهد من طوائف اليهود بنو قينقاع، ثم نقض بنو النضير عهدهم في نفس السنة، ولما جاءت الأحزاب في السنة الخامسة نقض بنو قريظة عهدهم، فلما رجعت الأحزاب أتاهم النبي ﷺ فقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم ونسائهم، وقد أخبرنا الله في كتابه أن اليهود أهل غدر وخيانة ونقض للعهود.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء:١٥٣-١٥٥]، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا

مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ [المائدة:١٢-١٣].

عن عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما- أن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ، فأجلى رسول الله ﷺ بني النضير وأقر قريظة، ومنَّ عليهم حتى حاربت قريظة بعد ذلك، فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا أن بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فآمنهم وأسلموا، وأجلى رسول الله ﷺ يهود المدينة كلهم بني قينقاع (وهم قوم عبدالله بن سلام) ويهود بني حارثة، وكل يهودي كان في المدينة»[1].

فقد ثبت بالكتاب والسنة والتاريخ أن المسلمين أهل وفاء وأمانة، وأن اليهود أهل غدر وخيانة.

فنسأل الله سبحانه كما أخرج اليهود من المدينة؛ أن يخرجهم من أرض فلسطين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٠٢٨)، ومسلم (رقم ١٧٦٦).

الخطبة التاسعة والعشرون

مشروعية القتال

عباد الله! وموعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن مشروعية القتال.

وكلامنا عن مشروعية القتال سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: رسول الله ﷺ والمسلمون قبل مشروعية القتال

العنصر الثاني: مشروعية القتال.

العنصر الثالث: السرايا والغزوات التي تحركت من المدينة بعد الإذن بالقتال.

العنصر الأول: رسول الله ﷺ والمسلمون قبل مشروعية القتال:

عباد الله! أرسل الله رسوله إلى الناس جميعاً، وأمره أن يدعو إلى الهدى ودين الحق، فلبث في مكة يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، **عباد الله!** فقابل كفار مكة هذه الدعوة بالصد والاعتداء على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه، والله -عز وجل- يأمر رسوله ﷺ أن يقابل هذا الاعتداء؛ بالصبر، والعفو، والصفح الجميل.

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الزخرف:٨٩]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٥]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:١٤].

رسول الله ﷺ في مكة يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، وكفار قريش يقابلون ذلك بالاعتداءات على رسول الله ﷺ وأصحابه.

ولم يأذن الله لرسوله ﷺ بأن يقابل السيئة بالسيئة، أو يواجه الأذى بالأذى، أو يحارب الذين حاربوا الدعوة، أو يقاتل الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، ولكن قال له: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون:٩٦].

وذلك يا عباد الله! حتى لا يصطدم المسلمون مع الكفار في بداية الدعوة، فيؤثر ذلك على دعوة الإسلام.

عباد الله! النبي ﷺ في مكة يربي أصحابه على العفو والصبر والصفح، وينهاهم عن قتال الكفار قبل مشروعية القتال.

ومن الأمثلة على ذلك:

١. كان النبي ﷺ يمر على أصحابه وهم يعذبون فيقول لهم: «صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة»[(١)].

٢. وعن ابن عباس -رضي الله عنهما-: «أن عبدالرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة -يريدون بذلك أن يأذن لهم النبي ﷺ أن يقاتلوا الكفار- فقال: «إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا..»[(٢)].

٣. وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد

---

(١) قال الشيخ الألباني في التعليق على «فقه السيرة» (ص١٠٧) «حديث حسن صحيح».

(٢) «صحيح سنن النسائي» (٢٨٩١).

بردة له في ظل الكعبة -ولقد لقينا من المشركين شدة-، فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال ﷺ: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه؛ فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»(١).

تربية في بادئ الأمر على الصفح والعفو والصبر الجميل.

العنصر الثاني: مشروعية القتال.

عباد الله! كفار مكة يتفننون في أساليب الاعتداء على رسول الله ﷺ وأصحابه؛ ليصدوهم عن دينهم، والنبي ﷺ وأصحابه يقابلون ذلك بالعفو والصفح الجميل، ولما وصل الاعتداء قمته بتدبير مؤامرة لاغتيال النبي ﷺ، اضطر الرسول ﷺ وأصحابه أن يهاجروا من مكة إلى المدينة، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال:٣٠].

عباد الله! عندما وصل النبي ﷺ إلى المدينة مهاجراً من مكة بدأ أولاً ببناء المسجد، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار، ثم عقد معاهدة مع اليهود -الذين يسكنون معه في المدينة- تقتضي أن يكون المسلمون واليهود يداً واحدة ضد كل من قصد المدينة بسوء -وهذا ما يسمى في لغة العصر تأمين

---

(١) رواه البخاري (رقم ٣٦١٢).

الجبهة الداخلية- ليتفرغوا للتصدي لأي عدوان يأتي من الخارج على المدينة.

عباد الله! لما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة، وألف الله بين قلوب المسلمين، وقامت للمسلمين دولة في المدينة؛ ساء ذلك قريشاً وأحزنهم، فأخذوا يهددون رسول الله ﷺ وأصحابه.

ومن الأمثلة على ذلك:

١-انطلق سعد بن معاذ إلى مكة معتمراً، فنزل على أمية بن خلف بمكة فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت فخرج به قريباً من نصف النهار فلقيهما أبوجهل فقال: يا أبا صفوان! من هذا معك؟

فقال: هذا سعد

فقال له أبوجهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويتم الصباة (أي أصحاب النبي ﷺ)، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم أما والله! لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً، فقال له سعد ورفع صوته عليه: أما والله! لئن منعتني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه، طريقك على أهل المدينة»[1].

وهذا هو الشاهد، التهديد من كفار مكة لمن جاء إلى المدينة.

أمر ثان يشهد بالتهديد من كفار مكة للنبي ﷺ وأصحابه.

٢-عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي ﷺ «أن

---

(١) رواه البخاري (رقم ٣٦٣٢).

كفار قريش كتبوا إلى عبدالله بن أبي، ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج، والنبي ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه، أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم.

فلما بلغ ذلك ابن أبي ومن كان معه من عبده الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال: لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم؛ تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا»[1].

عباد الله! لما أرسل كفار مكة كتاب التهديد إلى ابن سلول وافق ذلك هوىً في نفسه، إذ كان أهل المدينة قبل هجرة النبي ﷺ يرصعون التاج لابن أبي ليتوجوه ملكاً عليهم، فلما وصل رسول الله ﷺ المدينة انصرف الناس كلهم إليه، وأعرضوا عن ابن سلول، فكان ابن سلول يعتقد أن النبي ﷺ سلبه الملك، فما هو أن أتاه هذا الكتاب من كفار قريش حتى بادر إلى تجميع الناس، وتحريضهم على قتال النبي ﷺ، فاجتمع هو ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج لقتال النبي ﷺ، فلما وصل الخبر إلى النبي ﷺ خرج إليهم، وذكرهم ونصحهم، فلما سمعوا كلام النبي ﷺ، كفوا أيديهم، وألقوا سلاحهم، ورجعوا عما عزموا عليه.

٣-واستمر كفار مكة في تهديد المسلمين، فأرسلوا كتاباً آخر إلى المسلمين في المدينة يهددونهم بالهجوم عليهم في أي لحظة من ليل أو نهار للقضاء عليهم.

---

(١) «صحيح سنن أبي داود» (رقم ٢٥٩٥).

وعلم النبي ﷺ أن هذا التهديد ليس مجرد تهديد، وأن قريشاً قد تهاجمهم بالفعل في المدينة في أية ساعة من ليل أو نهار، مما جعل النبي ﷺ يسهر بالليل ولا ينام.

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة؛ فقال: ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة.

قالت: فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح -أي: صوت سلاح- فقال رسول الله ﷺ: مَنْ؟

قال: سعد بن أبي وقاص.

قال: وما جاء بك؟

قال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ، ثم نام حتى أصبحنا»[1].

واستمر هذا السهر من النبي ﷺ، واستمرت الصحابة في حراسته ليلاً، حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة:٦٧].

فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس انصرفوا، فقد عصمني الله -عز وجل-»[2].

عباد الله! ولم يكن هذا السهر خاصاً به ﷺ وحده، بل كان أصحابه جميعاً لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، حتى شق عليهم ذلك، وكانوا لا يظنون أن يأتي عليهم يوم يضعون فيه السلاح، ويأمنون فيه على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٨٨٥)، ومسلم (رقم ٢٤١٠).

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (٣٠٤٦).

عن أبي بن كعب ﷺ قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، ورمتهم العرب عن قوس واحدة -أي اتفقوا الكفار جميعاً على النبي ﷺ وعلى أصحابه- كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقال بعضهم لبعض وهم كذلك: تظنون أن يأتي علينا يوم نأمن على أنفسنا، ونضع السلاح ولا نخاف إلا الله -عز وجل- -من شدة البلاء-

فأنزل الله -عز وجل- قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾(1).

عباد الله! في هذه الظروف الخطيرة التي كانت تهدد كيان المسلمين بالمدينة، والتي كانت تنبئ عن أنَّ قريشاً لا يفيقون عن غيهم، ولا يمتنعون عن تمردهم بحال؛ أذن الله للمسلمين بالقتال.

قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝﴾ [الحج:٣٩-٤١].

عباد الله! شرع الله القتال للمسلمين على مراحل:

---

(١) صحيح، رواه الحاكم (٢/ ٣٠١).

المرحلة الأولى: الإذن بالقتال دفاعاً عن النفس.

قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:٣٩].

المرحلة الثانية: أمر الله المسلمين بالقتال دفاعاً عن النفس والعقيدة.

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة:١٩٠].

المرحلة الثالثة: أمر الله المسلمين بقتال المشركين، وابتدائهم به، وذلك للتمكن للعقيدة الإسلامية من الانتشار دون أية عقبات تضعها قوى الشرك، ولتصبح كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وبذلك لا يقوى أحد على فتنة المؤمنين، وصرفهم عن دينهم حيثما كانوا، ويظهر ذلك من:

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال:٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبة:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة:٢١٦]، وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة:٢٩].

عباد الله! وهذا القتال الذي شرعه الله -عز وجل- للمسلمين، وأمرهم به، هو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وهو يختلف عن الحروب الأخرى التي تقوم بها الشعوب والدول.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء:٧٦].

وكان ﷺ إذا أرسل جيشاً قال لهم: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً»(١).

العنصر الثالث: السرايا والغزوات التي تحركت من المدينة بعد الإذن بالقتال.

عباد الله! لما أذن الله تعالى لرسوله ﷺ في الدفاع عن نفسه، وعن أصحابه، أخذ ﷺ يبعث سراياه إلى الجهات المختلفة لمقاصد عالية وحكم غالية منها:

أولاً: إشعار قريش بأن المسلمين لم يهاجروا فراراً، ولم يخرجوا هرباً، وإنما هاجروا ليعدوا أنفسهم لمقاومة الطغيان، ورد الظلم والعدوان، ولتعلم قريش أن المسلمين أصبحوا أقوياء.

ثانياً: السيطرة على بعض أموال قريش ليكون في ذلك إضعاف لقريش عن حرب المسلمين، وتقوية للمسلمين أنفسهم حتى ينفقوا هذه الأموال في سبيل الدعوة إلى الله، بدلاً من إنفاق قريش تلك الأموال في الصد عن سبيل الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال:٣٦].

ثالثاً: إعلام الكفار من يهود المدينة ومن حولها؛ أن المسلمين قادرون على دحر أي عدوان ورد أي طغيان على المدينة، سواء كان من العدو

---

(١) رواه مسلم (رقم ١٧٣١).

الداخلي -يعني اليهود- أو من العدو الخارجي -يعني كفار قريش-.

رابعاً: استطلاع الأحوال واستكشاف الآراء، والإحاطة بالمواقع ومعرفة ميول الناس حول المدينة هل هي مع المسلمين أو عليهم.

خامساً: الدعوة إلى الله -عز وجل-، ونشر دين الله -تبارك وتعالى- ولذلك لم يحصل قتال في أي سرية بعثها النبي ﷺ إلا بعد عناد الكفار، وإصرارهم على القتال، فكان المسلمون يضطرون إلى منازلة الكافرين لإصرارهم على المنازلة.

عباد الله! ففي رمضان من السنة الأولى التقى «حمزة بن عبدالمطلب» في ثلاثين من المسلمين، بأبي جهل يقود قافلة لقريش، ومعه ثلاث مئة راكب وقد حجز بينهما مجدي بن عمرو الجهني فلم يقع قتال.

٢-وفي شوال من السنة نفسها، سار عبيدة بن الحارث في ستين راكباً إلى وادي رابغ، فالتقى بمائتي مشرك على رأسهم أبو سفيان، وقد ترامى الفريقان بالنبل ولم يقع قتال.

٣-وفي ذي القعدة خرج «سعد بن أبي وقاص» في نحو عشرين رجلاً يعترض عيراً لقريش ففاتته.

٤-وفي صفر من السنة الثانية خرج الرسول ﷺ بنفسه بعد أن استخلف سعد بن عبادة على المدينة، وسار حتى بلغ ودّان يريد قريشاً وبني ضمرة، فلم يلق قريشاً وعقد حلفاً مع بني ضمرة.

٥-وفي ربيع الأول من السنة نفسها خرج الرسول ﷺ على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار إلى «بواط» معترضاً عيراً لقريش يقودها أمية بن خلف ومعه مائة من المشركين ففاتته.

٦-ثم أغار كرز بن جابر الفهري على المدينة واستاق سرحها، فخرج النبي ﷺ في طلبه حتى بلغ وادي سنوان قريباً من «بدر» فلم يدركه وتسمى هذه «غزوة بدر الأولى».

عباد الله! بعث النبي ﷺ سرية، وأمّر عليها عبدالله بن جحش الأسدي، وكان ذلك في شهر رجب، وكتب النبي ﷺ لعبد الله بن جحش كتاباً وأمره أن لا تنظر فيه حتى يسير يومين، فخرج عبدالله بن جحش في اثني عشر رجلاً من المهاجرين فلما سار يومين فتح الكتاب ونظر فيه، وإذا رسول الله ﷺ يأمره أن يسير حتى ينزل في نخلة، مكان بين مكة والطائف، فيرصد فيها قريشاً ويتعرف على أحوالها، وأمره النبي ﷺ أن لا يستكره أحداً من أصحابه على السير معه، فلما قرأ عبدالله كتاب النبي ﷺ قال: سمعاً وطاعةً لرسول الله ﷺ، وأخبر أصحابه أنه قد أمر أن لا يستكره أحداً منهم فمن أحب الشهادة فليسر، ومن كره الموت فليرجع.

فمضوا كلهم حتى إذا كانوا ببعض الطريق، أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه فتخلفا في طلبه ومضى عبدالله بن جحش في عشرة من المهاجرين حتى نزلوا بنخلة فمرت لهم عير قريش قادمة من الشام على رأسها عمرو بن الحضرمي ومعه ثلاثة نفر من كفار قريش فلما رأوا العير تشاوروا ماذا يفعلون؟

إننا في آخر يوم من رجب، فإن قاتلناهم قاتلناهم في الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا المسجد الحرام، فرأوا أن يقاتلوهم حتى لا يفلتوا منهم، فرمي أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله، ثم أسروا رجلين وأفلت الرابع، فرجعوا إلى النبي ﷺ بالعير والأسير، فأنكر عليهم النبي ﷺ تصرفهم ولم يقرهم عليه، وانتهزت قريش الفرصة للتشنيع على المسلمين والتشهير بهم، وذمهم وعيبهم على قتالهم في الشهر الحرام، وقالوا: انظروا إلى محمد

ﷺ وأصحابه، يزعمون أنهم يعظمون الأشهر الحرم وقد قاتلوا في الشهر الحرام، واشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فعفى الله عنهم، ورفع الحرج عنهم وأنزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾ [البقرة:٢١٧].

فأقر الله تبارك وتعالى الكفار على عيبهم على المسلمين قتالهم في الشهر الحرام، وقال إن القتال في الشهر الحرام كبير، ولكن أكبر منه وأعظم جرماً ما أنتم عليه معشر المشركين من الكفر بالله، والصد عن سبيله وعن المسجد الحرام، وما أنتم عليه من الشرك، وإخراج المسلمين أولياء الله من بيت الله الحرام، هذا الذي أنتم عليه أكبر عند الله من انتهاك المسلمين للشهر الحرام، فأنتم تستحقون القدح والذم والعيب والمقت والعقوبة.

أما المهاجرون؛ فإنهم وإن انتهكوا حرمة الشهر الحرام؛ فإنما انتهكوها بنوع تأويل أو تقصير حصل، والله يعفو عنهم لأنهم أهل الإيمان وأهل توحيده وعبادته، هم الذين هاجروا مع رسوله، ونصروا دينه وتركوا ديارهم وأموالهم، ابتغاء مرضاته، فلا حرج عليهم فيما كان منهم من القتال في الشهر الحرام[1].

اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين.

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٧٠).

الخطبة الثلاثون

الأهداف السامية والحكم العالية التي من أجلها شُرِعَ القتالُ في سبيل الله

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن الأهداف السامية، والحكم العالية التي من أجلها شُرِعَ القتالُ في سبيل الله.

عباد الله! تكلمنا في الجمعة الماضية عن مشروعية القتال، وتبين لنا أنه لما استقر النبي ﷺ بالمدينة؛ وأيده الله بنصره، ورمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشمر لهم عن ساق العداوة والمحاربة، والله -عز وجل- يأمرهم بالصبر والعفو، حتى قويت شوكتهم فأذن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرضه عليهم.

قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم، فقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة:١٩٠].

وبعد ذلك فرض عليهم قتال المشركين كافة. قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ﴾.

عباد الله! كثير من الناس بسبب الجهل بالدين الإسلامي، يفهمون القتال في سبيل الله فهماً خاطئاً:

فمنهم من يظن أن القتال في سبيل الله؛ هو عبارة عن الخطب الرنانة الحماسية التي تثير الناس على ولاة أمورهم، وهذا خطأ وجهل كبير.

ومنهم أن يظن أن القتال في سبيل الله؛ هو عرضٌ للعضلات على رجال الأمن في البلد التي يعيشون فيها، وهذا خطأ كبير.

ومنهم من يظن أن القتال في سبيل الله؛ هو عبارة عن التخريب والاعتداء على المنشآت في البلد الذي يعيشون فيه.

ومنهم من يظن أن القتال في سبيل الله؛ هو عبارة عن اغتيال الشخصيات البارزة في المجتمع الذي يعيشون فيه.

ومنهم من يظن أن القتال في سبيل الله؛ هو عبارة عن الحصول على شرف البطولة، ليكتبوا عنه بعد موته في الجرائد والكتب «الشهيد البطل»، وهذا مفهوم خاطئ للقتال في سبيل الله.

عباد الله! وجاءت الأدلة من الكتاب والسنة تبين لنا الأهداف السامية، والحكم العالية التي من أجلها شرع القتال في سبيل الله.

الهدف الأول: لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، ليعبد الله وحده في الأرض.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء:٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ

كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال:٣٩]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة:٤٠-٤١].

أي من أجل هذا الهدف؛ انفروا خفافاً وثقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله.

وقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(١).

وكان ﷺ إذا أرسل جيشاً قال لهم: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله..»(٢).

عباد الله! فالهدف الأول للقتال في سبيل الله هو أن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، أما من قاتل حمية، أو وطنية، أو شجاعة، أو رياء، أو سمعة، أو غير ذلك؛ فله ما نوى، ولا أجر له عند الله، وقال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»(٣).

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٨١٠)، ومسلم (رقم ١٩٠٤).

(٢) رواه مسلم مضى قريباً.

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١)، ومسلم (رقم ١٩٠٧).

وقال ﷺ: «من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالاً؛ فله ما نوى»[(١)].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزى يلتمس الأجر والذكر ما له؟

فقال ﷺ: «لا شيء له».

فأعادها ثلاث مرات، والرسول ﷺ يقول له: «لا شيء له».

ثم قال ﷺ: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً، وابتغي به وجهه»[(٢)].

وأخبر ﷺ: «إن أول الناس يقضي عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها قال: فما عملت فيها؟

قال: قاتلت فيك حتى استشهدت.

قال: كذبت، ولكن قاتلت لأن يقال: هو جريء، فقد قيل -أي في الدنيا-، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار»[(٣)].

الهدف الثاني: رد اعتداء المعتدين الذين يعتدون على بلاد المسلمين، وأموال المسلمين وأعراض المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة:١٩٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ

(١) «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٣٤).
(٢) «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٣١).
(٣) رواه مسلم (رقم ١٩٠٥).

وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ [التوبة:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ﴾ [البقرة:١٩١]، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة:١٩٤].

الهدف الثالث؛ هو: إرهاب الكافرين وإذلالهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة:٢٩].

الهدف الرابع: عذاب الكافرين وشفاء صدور المؤمنين ونصرهم، قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة:١٤].

الهدف الخامس: الامتحان والابتلاء والتمحيص لأهل الإيمان؛ لكي يتحصلوا على الشهادة في سبيل الله، فالله سبحانه وتعالى قادر أن ينتصر من الكفار، وقادر أن يهلكهم ويدمرهم، ولكن شرع القتال في سبيل الله لتمحيص المؤمنين، وليتحصلوا على الشهادة في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد:٤-٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم

مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران:١٣٩-١٤٢].

عباد الله! وللقتال في سبيل الله آداب قبل القتال، وأثناء القتال، وبعد انتهاء القتال.

عباد الله! ومن آداب القتال في الإسلام قبل القتال: الدعوة: وهي دعوة الكافرين إلى إحدى خصال ثلاث:

أولاها: الإسلام، فإذا دخلوا في الإسلام فقد عصموا دماءهم وأموالهم، وصاروا للمسلمين إخواناً، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم، وتلك هي الغاية العظمى من القتال والجهاد في الإسلام، وليس ذلك عن إكراه، بل عن اقتناع كامل لقوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾.

ثانيها: الجزية: لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، فإن أعطوها قبلت منهم، وحقنت بها دماؤهم، وعصمت أموالهم، وإن رفضوا الإسلام والجزية فقد أصروا على القتال فتعين على المسلمين قتالهم.

ولذلك قال ﷺ: «فإن هم أبوا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم»(١).

عباد الله! ومن آداب القتال في الإسلام أثناء القتال:

أولاً: إحسان القتل لقوله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا

(١) رواه مسلم (رقم ١٧٣١).

قتلتم فأحسنوا القتلة..»[(١)].

ثانياً: اتقاء الوجه لقوله ﷺ: «إذا قاتل أحدكم فليتجنب الوجه»[(٢)].

ثالثاً: أن لا يقتلوا النساء والصبيان، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي النبي ﷺ، فنهى ﷺ عن قتل النساء والصبيان»[(٣)]. أما إذا ركبت المرأة الطائرة، وحاربت المسلمين، أو الدبابة وقتلت المسلمين، فتقتل لأنها شاركت في المعركة.

رابعاً: أن لا يحرقوا بالنار، فعن أبي هريرة ﷺ قال: بعثنا رسول الله ﷺ في بعث فقال: «إن وجدتم فلاناً وفلاناً فأحرقوهما بالنار»، ثم قال ﷺ حين أردنا الخروج: «إني أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً، وإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموها فاقتلوهما»[(٤)].

عباد الله! ومن آداب القتال في الإسلام بعد انتهاء القتال:

أولاً: النهي عن المثلة لقوله ﷺ: «ولا تمثلوا»[(٥)].

فلا يجوز أن يمثل المسلمون بقتلى المشركين، بقطع أنف، أو أذن، أو يد، أو رجل، وغير ذلك.

ثانياً: الأمر بدفن قتلى المشركين، فقد كان ﷺ بعد الانتهاء من المعركة يأمر بدفن قتلى الكفار.

---

(١) رواه مسلم (رقم ١٩٥٥).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٥٥٩)، ومسلم (رقم ٢٦١٢).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٠١٤)، ومسلم (رقم ١٧٤٤).
(٤) رواه البخاري (رقم ٢٩٥٤).
(٥) رواه مسلم، ومضى قريباً.

ثالثاً: الأمر بالإحسان إلى الأسرى، ففي غزوة بدر أمكن الله رسوله من المشركين، فقتل منهم سبعين وأسر سبعين، فلما رجع ﷺ إلى المدينة فرق الأسرى بين الصحابة، ووصاهم بهم خيراً، فكانوا يطعمونهم ويسقونهم فضربوا بذلك مثلاً أعلى في حسن معاملة الأسرى حتى مدحهم الله في كتابه، فقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان:٨-٩].

رابعاً: النهي عن الغلول، وهو الأخذ من الغنائم قبل قسمتها فقد أقبل نفر من أصحاب النبي ﷺ يوم خيبر فقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد حتى مروا على رجل فقالوا: فلان شهيد. فقال ﷺ: «كلا: إني رأيته في النار في عباءة غلها»[١].

خامساً: النهي عن الغدر، فإذا انتهت الحرب بصلح عام، أو معاهدة، أو أجار أحدٌ من المسلمين محارباً، أو أعطاه أماناً وجب الوفاء بالعهد والأمان، وحرم الغدر والخيانة.

قال ﷺ: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً»[٢].

فانظروا عباد الله!، وانظروا يا أعداء الإسلام في كل مكان إلى الإسلام؛ دين له هدف في القتال في سبيل الله، دين يؤدب المسلمين في القتال، وأثناء القتال، وبعد القتال، فوالله الذي لا إله غيره ولا رب سواه لا خير للبشرية

---

(١) رواه مسلم (رقم ١١٤).
(٢) رواه البخاري (رقم ٣١٦٦).

إلا أن يدينوا لله بهذا الدين.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾

اللهم رد المسلمين إلى دينك رداً جميلاً.

الخطبة الحادية والثلاثون

الترغيب في القتال والجهاد في سبيل الله

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع اللقاء الحادي والثلاثين من سيرة المصطفى ﷺ.

وحديثنا في اللقاء سيكون عن: الترغيب في القتال والجهاد في سبيل الله.

عباد الله! في الجمعة الماضية تكلمنا عن الأهداف السامية التي من أجلها شُرع القتال في سبيل الله.

وتبين لنا أن الإسلام فرض القتال على المسلمين؛ لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى دائماً.

وتبين لنا أيضاً؛ أن الإسلام أدب المجاهدين في سبيل الله بآدابٍ قبل المعركة وأثناء المعركة، وبعد الانتهاء من المعركة.

عباد الله! ولما كان القتال فيه مشقة على النفوس البشرية، جاءت الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة تُرغِبُ وتَحُثُ وتُحَرِضُ على القتال والجهاد في سبيل الله.

ففي كتاب ربنا:

قال تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة:٢١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [آل عمران:١٥٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران:١٦٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف:١٠-١٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة:٣٨]، وقال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة:١٩ -٢٢]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء:٩٥-٩٦].

عباد الله! وقد جاءت الأحاديث عن رسول الله ﷺ؛ تُرغبُ في القتال والجهاد في سبيل الله.

سُئل ﷺ: أيُّ العمل أفضل؟

قال ﷺ: «إيمان بالله ورسوله»

قيل: ثم ماذا؟

قال: «الجهاد في سبيل الله».

قيل: ثم ماذا؟

قال: «حجٌ مبرور».

وسئل ﷺ: أيُّ الناس أفضلُ؟

قال ﷺ: «مؤمن يجاهد بنفسه وبماله في سبيل الله»(١).

وسئل ﷺ: أيُّ المؤمنين أكملُ إيماناً؟

قال ﷺ: «الذي يجاهد بنفسه وماله، ورجل يعبدُ الله في شعبٍ من الشعاب وقد كفى الناس من شره»(٢).

وقال ﷺ: «ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٦)، ومسلم (رقم ٨٣).
(٢) «صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٩٧).

اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة» - أي قدر ما تحلب الناقة - «وجبت له الجنة»[١].

وقال ﷺ: «إنَّ في الجنة مئة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»[٢].

وقال ﷺ: «ما أحد يدخلُ الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيءٍ إلا الشهيدُ، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيُقتل عشر مراتٍ، لما يرى من الكرامة».

وفي رواية: «لِمَا يرى مِن فضل الشهادة»[٣].

وقال ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أوله دفعة من دمه، ويرى مقعدهُ من الجنة، ويجُارُ من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويُشفّع في سبعين إنسانٍ من أقاربه»[٤].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول دُلَّني على عملٍ يعدلُ الجهادَ؟

قال ﷺ «لا أُجدهُ».

ثم قال ﷺ: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك، فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟».

فقال الرجل: ومن يستطيع ذلك؟![٥]

---

(١) «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٠١).

(٢) رواه البخاري (رقم ٢٧٩٠).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٨١٧)، ومسلم (رقم ١٨٧٧).

(٤) «صحيح ابن ماجه» (٢٢٥٧).

(٥) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٧٨٥)، ومسلم (رقم ١٨٧٨)

وقال ﷺ: «عينان لا تمسُّهما النار: عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرسُ في سبيل الله»(١).

عباد الله! الإسلام هو دين الله في الأرض إلى أن يرث اللهُ الأرض ومن عليها، ويوم القيامة لا يقبل الله ديناً غيره.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥]

والإسلام عندما أذن للمسلمين بالقتال وفرضه عليهم؛ بيَّن لهم الأهداف السامية التي يحاربون من أجلها.

وأدَّب الإسلام المجاهدين في سبيل الله بآداب إسلامية قبل المعركة، وأثناء المعركة، وبعد الانتهاء من المعركة، ثم رغب الإسلام في الجهاد في سبيل الله.

ومع ذلك لا يحرص الإسلام والمسلمون على الحرب، وإشعال الحرب، ولكن إذا فَرَضَتْ الحربُ نفسها على المسلمين، صبروا، وحاربوا من أجل إعلاء كلمة لا إله إلا الله.

يقول ﷺ لأصحابه: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، وأعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»(٢).

فالإسلام هو دين السلام ولذلك سمى اللهُ الإسلام سلماً.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة:٢٠٨].

---

(١) «رياض الصالحين» تحقيق الألباني (١٣١٣).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٧٢٣٧)، ومسلم (رقم ١٧٤٢).

والجنة دار السلام جعل الله من أسباب دخولها إفشاء السلام.

قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»(١).

وأول شيءٍ صدع به النبي ﷺ عندما قدم إلى المدينة قال:

«يا أيها الناس! أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وصَلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنةَ بسلام»(٢).

عباد الله! والكفار إذا كفوا أيديهم عن المسلمين، ولم يصدوا عن سبيل الله، وتركوا المسلمين يتحركون في الأرض بدين الله، يدعون عباد الله إلى الله، فالإسلام لا يأمر بقتالهم أبداً.

قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٦١]

وكان ﷺ إذا بعث جيشاً في سبيل الله أعلمهم، وأدبهم، وأمرهم أن يدعوا الناس أولاً إلى الإسلام، فإذا أجابوهم إلى الإسلام فلهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، ولا قتال ولا إكراه في الدين، فإن رفضوا الإسلام يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، فإن رفضوا الإسلام والجزية يأتي الإسلام هنا -بعد أن فرض الكفار على أنفسهم القتال- فيقاتلهم الإسلام لأنهم لولا أنهم هم يريدون القتال لدخلوا في الإسلام أو

---

(١) رواه مسلم (رقم ٥٤).

(٢) «صحيح ابن ماجه» (٦٢٣٠).

لدفعوا الجزية، حتى يفهم الجميع يا عباد الله، أن الإسلام، هو دين السلام وهو دين الرحمة ولا يُشْعِلُ ناراً للحرب أبداً في أي مكان.

ولقد أخبرنا ربنا -جل وعلا- في كتابه؛ أن اليهود يشعلون نار الحرب هنا وهناك، وها هو التاريخ يشهد بذلك، ما من حرب قامت على وجه الأرض إلا وراءها اليهود؛ لأنهم يعيشون ويترعرعون على الحروب.

فإذا فُرِضَتْ الحربُ على المسلمين يأتي الإسلامُ، ويقول للمسلمين كما قال ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[1].

ففي الوقت الذي أمر الإسلام ورغبَّ في الجهاد في سبيل الله، بيَّن أن الإسلام هو دين الرحمة والسلم والسلام والأمان.

قال تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾ [النساء:٩٠].

وقال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة:٨].

عباد الله! ولكن إذا اعتدى الكفار على المسلمين وعلى بلاد المسلمين، وصدوا عن سبيل الله، عندها أمر الإسلام المسلمين أن يقاتلوا الكفار، ويصبروا على ذلك، وبيَّن الإسلام للمسلمين أنهم في قتالهم للكفار؛ فإنها إما النصر وإما الشهادة.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ

---

(١) متفق عليه، مضى قريباً.

أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة:٥٢].

ولذلك أمر الإسلام المسلمين بالصبر والثبات عند لقاء العدو.

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٥-٤٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال:١٥-١٦].

وقال ﷺ: «فإذا لقيتموهم فاصبروا».

ثم جاء الإسلام يحث المسلمين ويرغبهم في قتال الكفار الذين حاربوا المسلمين، وصدوا عن سبيل الله.. اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين.

الخطبة الثانية والثلاثون

غزوة بدر الكبرى

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع اللقاء الثاني والثلاثين من سيرة النبي ﷺ.

وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن غزوة بدرٍ الكبرى، وهي الغزوة العظيمة التي فرق الله فيها بين الحق والباطل.

وأعزَّ الإسلام وأهله وأذلَّ الكفر وأهله.

عباد الله! وحديثنا عن غزوة بدرٍ سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: بين يدي الغزوة.

العنصر الثاني: يوم الفرقان يوم التقى الجمعان.

العنصر الثالث: نتائج الغزوة.

العنصر الأول: بين يدي الغزوة.

وصلت الأنباء إلى المدينة أن قافلة ضخمةً لقريش عائدةٌ من الشام إلى مكة تحمل لأهلها الثروة الطائلة، يقودُها أبو سفيان بنُ حربٍ مع رجالٍ لا يزيدون عن الثلاثين أو الأربعين.

ولذلك قال النبي ﷺ لأصحابه: «هذه عيرُ قريش، فيها أموالهم، فأخرجوا إليها لعلّ الله ينفلكموها»[1]

وأراد الرسول ﷺ بذلك أن يضرب قريشاً ضربة اقتصادية تقصم

---

(١) قال الشيخ الألباني: حديث حسن، انظر «فقه السيرة» (ص ٢١٨).

ظهورهم؛ لأنهم بهذه الأموال يستعينون بها على محاربة الإسلام والمسلمين.

وأراد النبي ﷺ بذلك أن يعوض أصحابه ما تركوا من أموال وديار في مكة أرغموهم عليها كفار قريش.

ولم يعزم الرسول ﷺ على أحدٍ بالخروج، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة، ثم سار بمن أمكنه الخروج.

وخرج المسلمون إلى بدر وهم ثلاث مائةٍ وتسعة عشر رجلاً، منهم مئة من المهاجرين وبقيتهم من الأنصار، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان: فرسٌ للمقداد بن الأسود، وفرسٌ للزبير بن العوام ﷺ.

وكان معهم سبعون بعيراً يتعقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد، حتى رسول الله ﷺ كان له زميلان يتعاقبان بعيراً.

عن ابن مسعود ﷺ قال: كنا يوم بدرٍ كل ثلاثةٍ على بعير، وكان أبو لبابة وعليٌ بنُ أبي طالبٍ زميلي رسول الله ﷺ.

قال: وكانت عقبةُ النبي ﷺ (جاء دورهُ ليمشي).

فقال أبو لبابة وعليُ بن أبي طالب: يا رسول الله نحن نمشي عنك -ليظل راكباً-.

فقال ﷺ: «ما أنتما بأقوى على المشي مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»[١].

عباد الله! قد بلغ أبا سفيان خروجُ المسلمين لأخذ القافلة، فسلك بها في

---

(١) قال الشيخ الألباني: إسناده حسن، انظر «فقه السيرة» (ص ٢١٩).

طريق الساحل، وأرسل ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة يستصرخ أهلها حتى يسارعوا إلى استنقاذ أموالهم.

واستطاع (ضمضم) هذا إزعاج البلدةِ قاطبةً، فقد وقف على بعيره بعد أن جدع أنفهُ، وحول رحلهُ، وشق قميصه، يصيحُ: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبي سفيان عرض لها محمدٌ وأصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث !

عباد الله! فقام أشراف مكة، يحثون أهل مكة على أن ينفروا سراعاً؛ ليُخلِّصوا تجارتهم من محمد وأصحابه، فخرجوا في نحو الألف، معهم مائة فارسٍ ومعهم المغنيات يضربن بالدف، ويغنين بهجاء المسلمين.

وخرجوا من ديارهم كما أخبرنا الله تعالى: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال:٤٧] وأقبلوا في تحملٍ وحنقٍ عظيم على رسول الله ﷺ وأصحابه؛ لما يريدون من أخذ عيرهم.

عباد الله! ولما رأى أبو سفيان أنه قد نجا وأحرز العير، كتب إلى قريش أن ارجعوا فإنكم إنما خرجتم لتُحرِزوا عيركمُ وقد سلَّمها الله، فوصلهم الخبرُ وهم بالجحفةَ. فهمُّوا بالرجوع؛ إلا أن أبا جهل أصرَّ على الخروج والوصول إلى بدر قائلاً: والله لا نرجع حتى نأتي بدراً فنقيم عليها ثلاثاً، ننحرُ الجُزر، ونطعم الطعام، ونُسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، حتى تسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا؛ فلا يزالون يهابوننا بعد ذلك اليوم أبداً، ومضت قريش في مسيرها مستجيبة لرأي أبي جهل حتى نزلت بالعدوة القصوى من وادي بدرٍ، وكان المسلمون قد انتهوا من رحيلهم المضي إلى العدوة الدنيا.

وهكذا اقترب كلا الفريقين من الآخر، وهو لا يدري ما وراء هذا اللقاء الرهيب.

عباد الله! ولما وصل الخبرُ رسولَ الله ﷺ أن كفار قريش قد خرجوا لملاقاتهم، وأن العيرَ قد نجت، وهي على مشارف مكة استشار أصحابه في لقاء العدو.

فقال بعضهم: ما خرجنا إلا للعير، وما أردنا النفير، ولم نستعد له، وقد أخبرنا الله -عز وجل- في كتابه عن هؤلاء، فقال تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝﴾ [الأنفال:٥-٧].

عباد الله! وكان الأنصار قد بايعوا الرسول ﷺ في بيعة العقبة الثانية على أن يحموه في بلدهم (المدينة)، ولم يبايعوه على القتال معه خارج المدينة، لذلك اقتصرت السرايا التي سبقت بدرٍ على المهاجرين، ونظراً لوجود الأنصار مع المهاجرين ببدرٍ، وتفوقهم العددي الكبير فقد أراد الرسول ﷺ معرفة رأيهم من الموقف الجديد.

فاستشار ﷺ أصحابه عامةً وقصد الأنصار خاصة.

وقد روى ابن إسحاق خبر المشورة بسند صحيح قال:

«فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امضي لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما

قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْكِ الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له.

ثم قال رسول الله ﷺ أشيروا عليَّ أيها الناس؟ وإنما يريد الأنصار .. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل.

قال سعد: فقد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فأمض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبرٌ في الحرب، صُدقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرُ به عينك، فسر على بركة الله. فسُرُ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشّطه ثم قال ﷺ: «سيروا وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم»[2].

عباد الله! فلما رأى النبي ﷺ طاعة الصحابة وشجاعتهم، واجتماعهم على القتال، وحبهم للتضحية، بدأ بتنظيم جندهُ ثم أرسل عيونه -الجواسيس- يأتونه بأخبار القوم، فعرف النبي ﷺ أين القوم، وعددهم، ومن فيهم من أشراف قريش.

---

(١) وهو مكان يضرب فيه المثل في البعد.

(٢) انظر «السيرة النبوية الصحيحة»، أكرم ضياء العمري (١/٣٥٨ - ٣٥٩).

وقال النبي ﷺ لأصحابه: «هذه قريش قد ألقت إليكم بأفلاذ كبدها»؟ ونزل جيش الإسلام بالعدوة الدنيا، ونزل جيش الكفر بالعدوة القصوى، ولا يعرف كل منهم ما وراء هذا اللقاء الرهيب.

عباد الله! العنصر الثاني: يوم الفرقان يوم التقى الجمعان.

هذا اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل، وأعز الله فيه الإسلام وأهله، وأذل فيه الكفر وأهله، يقول الله -عز وجل-: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال:٤١-٤٤].

عباد الله! وبات الجيش المسلم ليلة الجمعة، ليلة السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة ببدرٍ يرتقب هجوم العدو الكافر في أي ساعةٍ، فطار النوم من عيون المسلمين، وخافت قلوبهم، فأرسل الله عليهم النعاس، فناموا تلك الليلة حتى احتلم بعضهم، فلما أصبحوا ولا ماء أنزل الله عليهم من السماء ماءً فكان على المشركين وبالاً شديداً منعهم من التقدم، وكان على المسلمين طلاً طهرهم به وأذهب عنهم رجز الشيطان، ووطأ به الأرض، وصلَّب به الرمل، وثبت به الأقدام، ومهد به المنزل، وربط به على

قلوبهم قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال:١١].

عباد الله! ووصف عليٌّ رضي الله عنه كيف بات المسلمون ليلة السابع عشر من رمضان ببدرٍ وأمامهم معسكر المشركين؟

قال: «لقد رأيتُنا يوم بدرٍ وما منا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ، فإنه كان يصلي إلى شجرة ويدعو حتى أصبح ..»(١).

عباد الله! وفي الصباح صف النبي ﷺ جنوده للقتال كما يحب الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف:٤].

وقال ﷺ لأصحابه: «لا يقدمنَّ أحدُ منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه»

وكان رسول الله ﷺ يباشر القتال بنفسه.

قال عليٌّ رضي الله عنه: لقد رأيتُني يوم بدرٍ ونحن نلوذُ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً»(٢).

فئة مؤمنة تقاتل من أجل لا إله إلا الله، وفئة كافرة جاءت لتقضي على الذين يقولون لا إله إلا الله.

---

(١) رواه أحمد في «المسند».

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢/٢٢٨).

عباد الله! بدأ القتال بمبارزاتٍ فردية، فقد تقدم عتبة بن ربيعة وتبعه ابنُه الوليد وأخوه شيبة طالبين المبارزة، فانتُدب لهم شباب من الأنصار فرفضوا مبارزتهم، طالبين مبارزة بني قومهم، فأمر الرسول ﷺ حمزة وعلياً وعبيدة بن الحارث بمبارزتهم.

وقد تمكن حمزة من قتل عتبة، ثم قتل عليٌّ شيبة، وأما عبيدة فقد تصدى للوليد وجرح كل منهما صاحبه فعاونه عليٌّ وحمزة فقتلوا الوليد واحتملا عبيدة إلى معسكر المسلمين»[١].

عباد الله! وقد أثرت نتيجة المبارزة في معسكر قريش وبدأوا بالهجوم، فأمر النبي ﷺ أصحابه بنضح المشركين بالنبل إذا اقتربوا منهم، حرصاً على الإفادة من النبال بأقصى ما يُستطاع.

فقال ﷺ «إذا أكثبوكم -يعني دنوا منكم- فارموهم واستبقوا نبلكُم»[٢].

ورمى النبي ﷺ الحصى في وجوه المشركين وقال: «شاهت الوجوه».

قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ..﴾ [الأنفال:١٧].

عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر أُمر رسول الله ﷺ، فأخذ كفاً من الحصى فاستقبلنا به فرمى بها وقال: «شاهت الوجوه».

فأنزل الله -عز وجل-: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[٣].

عباد الله! وقال النبي ﷺ لأصحابه: «قوموا إلى جنةٍ عرضها السماوات

---

(١) صحيح أبي داود (٢٣٢١).

(٢) رواه البخاري (رقم ٢٩٠٠).

(٣) قال الشيخ الألباني: حديث حسن، «فقه السيرة» (ص ٢٢٨).

والأرض»، فقال عُمير بن الحُمام: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟

قال: «نعم». فقال: بخ بخ.

فقال رسول الله ﷺ: «ما حملك على قولك بخ بخ»؟

قال: رجاءَ أن أكون من أهلها، فقال: «فأنت من أهلها».

فأخرج عميرٌ تمرات ليأكلها فجعل يأكلها، ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى أكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة، ثم رمى بالتمرات، وأقبل على القوم فدخل في صفوفهم فقاتلهم رضي الله عنه حتى قُتل»[1].

عباد الله! حميَ الوطيس، واستدارت رحى الحرب، واشتد القتال، وأخذ رسول الله ﷺ في الدعاء والابتهال، ومناشدة ربه -عز وجل- حتى سقط رداؤه عن منكبيه.

وها هو عمر رضي الله عنه يخبرنا الخبر فيقول: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألفٌ، وأصحابه ثلاثمائةٍ وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مدّ يديه فجعل يهتف بربه -أي يصيحُ ويستغيث بالله بالدعاء- «اللهم أنجز لي ما وعدتني: اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تُهلك هذه العصابةُ -أي الجماعة من أهل الإسلام- لا تُعبد في الأرض» فما زال يهتف بربه، مادّا يديه، مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءهُ فألقاه على منكبيه، ثم التزمهُ ورائه وقال: يا نبي الله! كذلك -أي كفاك- مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك.

---

(١) رواه مسلم (رقم ١٩٠١).

فأنزل الله -عز وجل-: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ۝٩﴾ فأمده الله بالملائكة[1].

وقد خرج ﷺ من العريش الذي بُنى له وهو يقول: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾[2].

عباد الله! وتقدم المسلمون يقتلون المشركين، والملائكة تقاتل معهم حتى قال ابن عباس: بينما رجلٌ من المسلمين يشتدُّ في أثر رجل من المشركين إذ سمع ضربة بالسوط، وصوت فارس يقول: أقدم حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه خرَّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خُطم أنفه، وشق وجهه كضربة السوط، فجاء ذلك المسلم وأخبر النبي ﷺ فقال: «ذلك من مدد السماء الثالثة»[3].

قال تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ [الأنفال:٩ -١٠]، وقال تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ۝١٢﴾ [الأنفال:١٢]

وخرج رسول الله ﷺ من عريشه وهو يقول: «يا أبا بكر، أبشر أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذٌ بعنان فرسه عليه آلة الحرب»[4].

---

(١) «شرح النووى على صحيح مسلم» (١٢/ ٨٤-٨٥).

(٢) رواه البخاري (رقم ٤٨٧٥).

(٣) رواه مسلم (١٧٦٣ / ١٣٨٣/ ٣).

(٤) أخرجه ابن إسحاق كما في «الفتح» (٧/ ٣١٣).

ولما جيء بالعباس بن عبد المطلب أسيراً جاء به رجل من الأنصار قصير يقول:

يا رسول الله أسرتُ هذا، فقال العباس: يا رسول الله ! والله ما أسرني هذا ولكن أسرني رجل أبلج، على فرس أبلق وجهه كأحسن وجوه الناس، لا أراه في القوم فقال الأنصاريُ: أنا يا رسول الله أسرتُه.

فقال ﷺ: «اسكت لقد أعانك الله عليه بملك كريم»(١).

عباد الله! ورجع كفار مكة يجرون أذيال الخيبة والهزيمة، قُتِلَ منهم سبعون وأُسِرَ منهم سبعون.

قال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [آل عمران:١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال:٧-٨].

عباد الله! العنصر الثالث: نتائج الغزوة.

انتهت غزوة بدرٍ بنصر الإسلام والمسلمين، وهزيمة الشرك والمشركين، وكان من نتائج الغزوة.

أولاً: نصر عظيم من الله للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٧) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران:١٢٣-١٢٦]

ثانياً: هلاك أئمة الكفر:

فقد قتل المسلمون سبعين رجلاً من بينهم أئمة الكفر.

هلاك أبي جهل لعنه الله:

عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: لقد رأيتني يوم بدر في الصف بين غلامين حديثة أسنانهما، فتمنيتُ أن أكون بين أكبر منهما، قال: فغمزني الذي عن يميني وقال: يا عماه أين أبو جهل؟ فقلت: يا ابن أخي ومالك ولأبي جهل قال: يا عماه لقد أخبرت أنه كان يسب رسول الله ! لئن لقيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا.

قال: ثم غمزني الذي عن يساري وأسرّ إليّ بمثلها، فلم أنشبْ أن رأيت أبا جهل يجول في الناس.

فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه وكان الغلامان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء»[(١)].

والظاهر أنهما تركاه مثخناً في جراحه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ولذلك روى أبو داود في «سننه»: أن عبدالله بن مسعود ﷺ مرَّ بأبي جهل صريعاً فوقف على رأسه وقال: أخزاك الله يا عدو الله، ثم جعل يجهز عليه بسيفه، قال: فلم تغن عني شيئاً فما زلت أضربه حتى سقط سيفه من يديه فضربته به حتى برد[(٢)].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣١٤١)، ومسلم (رقم ١٧٥٢).

(٢) «صحيح أبي داود» (٢٣٥٧).

هلاك عقبة بن أبي مُعيط أشقى القوم لعنه الله:

أما عقبة بُن أبـي معيـط، فقـد أمـر النـبي ﷺ بضـرب عنقـه وكـان مـن الأسرى، وفيه جواز قتل الأسير الكافر، لأنه كان مـن أشقـى القـوم، وممـن يطلق عليهم بمصطلح العصر (مجرم حرب) وسيق الأشقياء الثلاثـة إلى النـار وبئس القرار، وكم لاقى المسلمون بمكة مـن إيذائـهم واسـتهزائهم، وليبشـر أئمة الكفر في كل زمان بهذه النهاية المشؤومه، إن لم يتوبوا إلى ربهم ويثوبـوا إلى رشدهم، فإن الله -عز وجل- يمهل ولا يُهمل «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلتهُ»[1].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]

هلاك أمية بن خلف عدو الله:

الذي كان يعذب المسلمين في مكـة، ومنـهم بـلال ﷺ، فقـد أسـره عبـد الرحمن بن عوف بعد المعركة، وأسر معه علياً ابنه فلمحـه بـلالُ، وكـان هـو الذي يعذبه بمكـة، فقـال: رأس الكفـر أميـة بـن خلـف، لا نجـوت إن نجـا، واستصرخ عليه الأنصار، فأعانوه على قتله هو وابنه علي[2].

عباد الله! وأمر رسول الله ﷺ بسحب قتلى المشركين إلى آبار ببدر فـألقوا فيها، فلما كان ببدر اليوم الثالث وقف على أربعة وعشرين رجلاً منهم مـن صناديد قريش في إحدى الآبار فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم:

يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتـم الله ورسـوله؟

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٦٩).

(٢) «فتح الباري» (٤/ ٤٨٠).

فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟

فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟

فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»

قال قتادة: «أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة»[١].

ثالثاً: ومن نتائج غزوة بدرٍ الكبرى: الأسرى.

فقد أسر المسلمون سبعين رجلاً من صناديد قريش.

وقد استشار الرسول الله ﷺ أبا بكر وعمر فيما يصنع بالأسرى؟

فأشار أبو بكر بأخذ الفديةُ منهم، وعلل ذلك بقوله «فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم للإسلام».

وأشار عمر بن الخطاب بقتلهم وعلل ذلك بقوله «فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها»، ولم يكن قد نزل من أمرهم وحيٌ.

ومال النبي ﷺ إلى رأي أبي بكر بقبول الفدية، فنزلت الآية الكريمة في موافقة رأي عمر ﷺ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال:٦٧-٦٨][٢].

رابعاً: الغنائم

وقد غنم المسلمون في بدر من الكفار غنائم كثيرة جداً، ووقع خلاف

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ٣٠٠).

(٢) انظر «شرح النووى على مسلم» (١٢/ ٨٦- ٨٧).

حول الغنائم إذ لم يكن حكمها قد شرع بعد، فنزل القرآن بتقسيمها كما نزل بمشروعيتها، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾ [الأنفال:١].

وقال تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤١﴾ [الأنفال:٤١]، وقال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٦٩﴾ [الأنفال:٦٩].

خامساً: الشهداء

واستُشهد من المسلمين في بدرٍ أربعة عشر رجلاً اتخذهم الله شهداء فضلاً منه ونعمة، سبحانه وهو القائل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩﴾ [آل عمران:١٦٩].

وجاءت أم حارثة وقد قتل ولدها ضمن الأربعة عشر شهيداً، فقالت: يا رسول الله، أنبئني عن حارثة، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك بكيت عليه بكاءً لم يُبكَ على غيره.

فقال ﷺ: «أهبلت يا فلانة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك قد حاز الفردوس الأعلى منها»[1].

اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين.

---

(١) رواه البخاري (رقم ٥٨٠٩).

الخطبة الثالثة والثلاثون

غزوة بني قينُقاع وغزوة بني النضير

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن غزوة بني قينقاع وغزوة بني النضير.

عباد الله! عندما وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجراً من مكة بدأ ببناء المسجد، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار، ثم عقد معاهدة مع اليهود في المدينة تَكْفُلُ لهم الحرية الكاملة في دينهم وعقائدهم، وتضمن لهم أن يعيشوا في جوار النبي ﷺ، في سلم وسلام، وأمنٍ وأمان.

وكان من مقتضى هذه المعاهدة، أن يكون المسلمون واليهود يداً واحدة ضدَّ كل عدو يقصد المدينة بسوء، وأن يحافظ الجميع على الأمن الداخلي في المدينة.

وكان اليهود في المدينة ثلاث طوائف: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، فعاهدهم النبي ﷺ جميعاً.

وأخذ النبي ﷺ يحث المسلمين على الوفاء، ويحذرهم من الغدر والخيانة، ويحثهم على احترام هذه المعاهدة وعلى احترام أهلها، ويحذرهم من الاعتداء على أهل هذه المعاهدة في نفسٍ أو مالٍ.

فقال ﷺ : «ألا من ظلم معاهداً، أو انتقضه، أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»[1].

---

(١) «صحيح سنن أبي داود» (٢٦٢٦).

وقال ﷺ: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»[1].

عباد الله! وحافظ النبي ﷺ والمسلمون على هذه المعاهدة، ولم يأت من المسلمين ما يخالف حرفاً واحداً من نصوصها، ولكن اليهود الذين ملأوا تاريخهم بالغدر والخيانة ونكث العهود؛ لم يلبثوا أن تمشوا مع طبائعهم القديمة، فغدروا وخانوا، ونقضوا العهود والمواثيق بعد أن نصر الله المسلمين في بدرٍ.

وكان أول مَنْ غَدَرَ يهودُ بني قينقاع، وكان ذلك بعد غزوة بدرٍ الكبرى بشهرٍ واحد، ثم غدرت بنو النضير بعد غزوة بدرٍ بستة أشهر، كما ذكر الإمام البخاري في «صحيحه»، ثم غدرت بنو قريظةَ في غزوة الأحزاب، فعاقبهم النبي ﷺ بالعقاب الذي يليق بهم وبغدرهم ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ، فأجلى رسول الله ﷺ بني النضير، وَأَقَرَّ قريظة ومَنَّ عليهم؛ حتى حاربت قريظة بعد ذلك فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا أن بعضهم، لحقوا بالنبي ﷺ فأَمَنَهُم وأسلموا، وأجلى رسول الله ﷺ يهود المدينةُ كلهم بني قينقاع (وهم قوم عبدالله بن سلام)، ويهود بني حارثة، وكل يهوديٍّ كان في المدينة[2].

---

(١) رواه البخاري (رقم ٣١٦٦).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٠٢٨)، ومسلم (رقم ١٧٦٦).

عباد الله! وحديثنا عن غزوة بني قينقاع وغزوة بني النضير سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: بعد غزوة بدرٍ الكبرى، كفار مكة في مكة يهددون، واليهود في المدينة يغدرون.

العنصر الثاني: ولا يحيق المكر السيئُ إلا بأهله.

العنصر الثالث: اليهود في المدينة يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين؛ فاعتبروا يا أولي الأبصار.

العنصر الرابع: دروس وعظات وعبر

العنصر الأول: بعد غزوة بدر الكبرى، كفار مكة في مكة يهددون، واليهود في المدينة يغدرون.

عباد الله! في الجمعة الماضية تكلمنا عن غزوة بدرٍ الكبرى، وتبين لنا أن الله قد منَّ على المسلمين بنصر عظيم على الكافرين؛ بأن قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين، وعندما وصلت أخبارُ النصر إلى مكة لم يصدقوا، حتى أنهم اتهموا الذي يخبرهم بالجنون حتى وصل جيش الكفر يجر أذيال الهزيمة والخيبة والعار، فلما تبين لهم صدق الخبر صُعِقَ نفرٌ منهم فهلك لتوِّه، وماج بعضهم في بعض من هول المصاب لا يدري ما يفعل.

ولم تزدهم الهزيمة إلا كُرها للإسلام، ونقمة على محمد وصحبه واضطهاداً لمن يدخل في دينه.

ولما وصلت أخبار النصر إلى المدينة؛ لم يُصدق الخبر المنافقون والمشركون واليهود حتى أنهم اتهموا المسلمين الذين يُذيعون الخبر بالكذب، حتى جاء جيش الإسلام من بدرٍ وأعلام النصر ترفرف عليه، والأسرى مقرنين في

الأصفاد، والغنائم بين يديه، فأسلم فريق من المشركين واليهود ظاهراً، وقلوبهم تغلي حقداً وحسداً وكفراً، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول، وفريق آخر سلك أسلوب الدسّ والنفاق والغدر والتمرد.

عباد الله! كفار مكة بعد هزيمتهم في بدر، يفكرون في الانتقام من محمد ﷺ وأصحابه، ولكنهم يريدون أن يكون ذلك عن طريق اليهود في المدينة، فأرسلوا إليهم تهديداً، إذا لم تقتلوا محمداً فعلنا بكم كذا وكذا.

فلما وصل ذلك لليهود في المدينة بدأ الغدَر، ونقض العهود والمواثيق والخيانة، وأول من نقض العهد يهود بني قينقاع.

عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ:

«أن كفار قريش كتبوا بعد وقعة بدرٍ إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتُقاتلُنَّ صاحبنا -أي رسول الله ﷺ- أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحولُ بيننا وبين خدم نسائكم شيء -وهي الخلاخيل..»[(١)].

عباد الله! لما وصل الكتاب إلى اليهود في المدينة أجمعوا على الغدر برسول الله ﷺ وأصحابه، وأولُ من نقض العهد وغدر؛ هم يهود بني قينقاع، وكانوا يسكنون داخل المدينة -في حي باسمهم- وكانوا صاغة وحدادين، وكانت عندهم خبرةٌ بالقتال وصنع السلاح، وكان عدد المقاتلين فيهم سبعمائة مقاتل.

عباد الله! وبعد أن نصر الله المسلمين في بدرٍ أخذ يهود بني قينقاع يثيرون الشعب، ويتعرضون بالسخرية، ويواجهون بالأذى كل مَنْ ورد سوقهم من

(١) «صحيح سنن أبي داود» (٢٥٩٥).

المسلمين، حتى أخذوا يتعرضون لنسائهم فجاءت امرأة إلى السوق عندهم لتبيع شيئاً، فلما جلست عند الصائغ اليهودي راودها على أن تكشف وجهها فأبت فاجتمع اليهود وراودوها أن تكشف عن وجهها فأبت، فقام الصائغ بربط طرف ثوبها في ظهرها خفية دون أن تعلم، فلما قامت المرأة انكشفت سوءاتها، فضحك اليهود فقام مسلم يوجد في السوق فقتل اليهودي فاجتمع اليهود على هذا المسلم فقتلوه، فجاء أهل المسلم واستنصروا بالمسلمين فوقع الشر بين المسلمين وبين يهود بني قينقاع.

وهذه رواية يذكرها أصحاب السير وإن كان في إسنادها ضعف، ولكن هذا لا يستغرب من أفعال اليهود.

ولم يكتفوا بذلك بل قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش، كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحنُ الناس، وأنك لم تلق مثلنا.

فأنزل الله تعالى قرآناً ينذر هؤلاء بسوء المنقلب: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران:١٢-١٣].

عباد الله! وفي قولهم هذا لرسول الله ﷺ إعلان منهم سافرٌ عن الحرب، ونقضٌ منهم للعهود والمواثيق، ولم يكتفوا بذلك بل أخلُّوا بالأمن في داخل المدينة وأخذوا يتعرضون لنساء المسلمين فلما فعلوا ذلك سار إليهم رسول الله ﷺ بالكتائب المسلمة، فحاصرهم حتى نزلوا على حكمه، فأراد قتلهم

فاستوهبهم منه عبد الله بن أُبي، رأسُ النفاق وزعيم المنافقين وكانوا حلفاءه فوهبهم له.

وأمرهم النبي ﷺ أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات بالشام، ولم يبقوا هنالك طويلا حتى هلك أكثرهم.

العنصر الثاني: ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

عباد الله! لم يعتبر باقي اليهود بما أصاب كفار قريش في بدرٍ من القتل والأسر، ولا بما أصاب بني قينقاع من الجلاء عن المدينة.

فأخذ اليهود في المدينة يمكرون بالإسلام والمسلمين مكراً سيئاً.

قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝﴾ [الأنفال:٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝﴾ [آل عمران:٥٤].

ومن هؤلاء اليهود الذين مكروا بالإسلام والمسلمين مكراً سيئاً كعب بن الأشرف، وكان هذا اليهودي من أشد اليهود حنقاً على الإسلام والمسلمين، وإيذاءً لرسول الله ﷺ وتظاهُراً بالدعوة إلى حربه.

وهذا اليهودي كان من يهود بني النضير، وكان غنياً مترفاً، معروفاً بجماله في العرب، وكان شاعراً من شعرائها.

ولما بلغه أول خبرٍ عن انتصار المسلمين، وقتل صناديد قريش في بدرٍ قال: أحقٌ هذا؟ هؤلاء أشرافُ العرب، وملوكُ الناسِ والله! إن كان محمدٌ أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خيرٌ من ظهرها.

عباد الله! ولما تأكد لديه الخبر، انبعث عدو الله يهجو رسول الله ﷺ والمسلمين، ويمدح عدوَّهم، ويحرضهم عليهم بل أخذ يتغزل بنساء الصحابة

في شعره، ولم يرض بهذا القدر حتى ركب إلى قريشٍ، فنزل على أحد أشرافهم وجعل ينشد الأشعار، يبكي فيها على أصحاب القليب من قتلى المشركين، يُثيرُ بذلك حفائِظهم، ويزكى حقدهم على النبي ﷺ، ويدعوهم إلى حربه، وعندما كان بمكة سأله أبو سفيان والمشركون: أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه؟ وأي الفريقين أهدى سبيلاً؟ فقال عدو الله: أنتم أهدى منهم سبيلاً وأفضل، وفي ذلك أنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء:٥١-٥٢].

ثم رجع كعب بن الأشرف اليهودي إلى المدينة على تلك الحال، وأخذ يشبب -أي يتغزل- في أشعاره بنساء الصحابة، ويؤذيهم بصلاقة لسانه أشد الإيذاء.

عباد الله! عندها قال رسول الله ﷺ: مَنْ لكعب بن الأشرف؟ فإنه آذى الله ورسوله، قال محمد بن مسلمة رضي الله عنه، أنا يا رسول الله.

عباد الله! تعالوا بنا لنستمع إلى قصة قتل هذا المجرم -كعب بن الأشرف اليهودي- الذي آذى الله ورسوله، ومكر بالمسلمين مكراً سيئاً، لتعلموا أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله.

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله؟».

فقام محمد بن مسلمة رضي الله عنه فقال: أنا يا رسول الله ! أتحب أن أقتلهُ؟ قال ﷺ: «نعم».

قال: تأذن لي أن أقول شيئاً (أي: ائذن لي أن أتكلم في حقك من أجل المصلحة).

قال ﷺ: «قل».

فأتاه محمد بن مسلمة، فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنَّانا (أي أوقعنا في العنت والحرج وكلَّفنا ما لا نجد).

فقال كعبٌ -وقد بدى البِشْرُ على وجهه مما سمع من محمد بن مسلمة في حقِّ النبي ﷺ-: والله ! لتمَلُّنَّهُ.

فقال محمد بن مسلمة: إنا قد اتبعناهُ، وما نريد أن نرجعَ عنه حتى نرى إلى ماذا ينتهي أمرهُ وشأنه، فَسَلِّفني وسْقاً أو وَسقين.

فقال كعب: نعم أرهنوني.

قال محمد بن مسلمة: ماذا تريد أن نُرهنك؟

فقال كعب: أَرهنوني نساءكمُ

قال ابن مسلمة: كيف نُرهنك نساءنا وأنت أجملُ العربِ؟

قال كعب: فارهنوني أبناءكم.

قال ابن مسلمة: كيف نُرهِنُك أبناءَنا، فيسبُ أحدُهم، فيقال: رُهِنَ بوسقٍ أو وسقين -أي هذا عارٌ علينا-.

قال كعب: فماذا ترهنوني؟

قال ابن مسلمة: نرهنك اللأمة - (يعني: السلاح) -وأراد ابن مسلمة بذلك، أنه إذا جاءه بعد ذلك والسلاح في يده لا ينكرهُ؛ لأنه في اعتقاده أنه جاء بالسلاح ليضعه عنده رهناً-.

قال كعب: نعم

ثم وعده محمد بن مسلمة أن يأتيه في الليلة القادمة ببعض رجالٍ على مثل ما هو عليه في محمد ﷺ.

فجاءَوه في الليلة التالية وهم متسلحون، فدعوه ليلاً لينزل إليهم فقالتْ امرأتهُ: إني لأسمع صوتاً كأنه صوت دم!

فقال كعب لها: إنه أخي محمد بن مسلمة ورضيعي -أي أخي في الرضاعة- أبو نائلة، ولو دُعي الفتى لطعنةٍ ليلاً لأجاب، فنزل.

فقال محمد بن مسلمة لأصحابه قبل أن ينزل إليهم: إني سأمد يدي إلى رأسه فإذا استمكنت منه فدونكم فاقتلوه.

فلما نزل إليهم كعب نزل متوشحاً، تفوح منه رائحة الطيب.

فقالوا: نجد منك ريح الطيب؟

فقال كعب: نعم عندي أعطرُ نساء العرب.

فقال محمد بن مسلمة: أتأذن لي أن أشم؟ فوضع يده في رأسه فمسح رأسه بيده ليأخذ من طيب رأسه ثم شمّها، ثم ساروا قليلاً ثم عاد محمد بن مسلمة فقال: أتأذن لي أن أعود فأشمَّ؟

قال كعب: نعم شمَّ، فوضع يده في رأسه، فلما استمكن من رأسه قال لأصحابه: دونكم فاقتلوه، فقتلوه»[1].

عباد الله! نزلت السيوف على جسد هذا المجرم فوقع عدو الله قتيلا، وقد

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٥١٠)، ومسلم (رقم ١٨٠١).

صاح صيحة شديدة، أفزعت من حوله من اليهود فلم يبق حصنٌ إلا أوقد النار -أي استيقظ من نومه- وفي الصباح علمتْ بمصرع طاغيتها كعب بن الأشرف فدب الرعب في قلوبهم العنيدة ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

وهكذا يفعل الله بكل من مكر بالإسلام والمسلمين، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣].

عباد الله! هذا عذابهم في الدنيا، قتلٌ، خزيٌ، فضيحة، أما في الآخرة فالعذاب الأليم قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

ليعلم الجميع أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله.

العنصر الثالث: اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

عباد الله! بعد غزوة بدرٍ الكبرى أرسل كفار مكة كتاباً إلى اليهود في المدينة يهددونهم بكذا وكذا إذا لم يقتلوا محمداً ﷺ، فلما وصل الكتاب إلى اليهود في المدينة، أجمعت بنو النضير على الغدر ونسوا ما بينهم وبين النبي ﷺ من العهد والميثاق.

فأرسلوا إلى النبي ﷺ: أخرج لنا في ثلاثين من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً؛ حتى نلتقي بمكان المنصف؛ فيسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك؛ آمنا بك -وهم بذلك يريدوا أن يغتالوا رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه- ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:٥٤].

فأخبر اللهُ -عز وجل- رسوله ﷺ عن طريق جبريل عليه السلام بما مكر به يهود بني النضير.

فخرج إليهم رسول الله ﷺ بكتائب الجيش المسلم، فلما رأوا الجيوش قد زحفت إليهم فروا هاربين إلى حصونهم، وكانت حصونهم منيعة، فأغلقوا أبوابهم، وتحصنوا بها، وحاصرهم النبي ﷺ ليالٍ وهموا بالتسليم لرسول الله ﷺ، ولكن زعيم المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول أرسل إليهم أن امتنعوا وتحصنوا ولا تنزلوا من حصونكم، فإنَّا مِنْ ورائكم، نمنعكم مما يضركم؛ لئن قوتلتمُ لننصرنكم، ولئن أُخرجتم لنخرجن معكم، فصدّقوهم، وأرسل يهود بني النضير إلى رسول الله ﷺ يقولوا: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

فأمر النبي ﷺ بقطع النخيل وتحريقها، فدبَّ الخوف في نفوسهم وملأ الرعبُ قلوبهم، وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، فسألوا رسول الله ﷺ أن ينزلوا على أنَّ لهم ما حملت الإبلُ إلا السلاح، فوافق الرسول ﷺ على عرضهم هذا.

فجعل الرجل يهدم بيته بيده ! ويحملُ الأبواب والشبابيك معه، وخرجوا من المدينة، فمنهم من نزل خيبر، ومنهم من سار إلى الشام.

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢﴾ [النمل:٥٠-٥٢].

عباد الله! ونزلت سورة الحشر في بني النضير، فعن سعيد بن جبير رضي الله عنه «قال: قلت لابن عباس سورة الحشر؟ فقال: لا تقل سورة الحشر، قل:

سورة بني النضير»[١].

عباد الله! وفي سورة الحشر

أولاً: بدأها الله بالتسبيح وختمها بالتسبيح، قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾، وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٤﴾.

ثانياً: بين الله في هذه السورة كيف ينتقم من أعدائه، وكيف أنه سبحانه جاء لبني النضير من باب لا يخطر لهم على بال.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر:٢]

دب الرعب في قلوبهم، والرعبُ سلاح رباني ينصر الله به عباده.

ثالثاً: أثنى الله في هذه السورة على المهاجرين والأنصار ومن سلك سبيلهم قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر:٨-٩].

رابعاً: فضح الله المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر قال تعالى:

---

(١) رواه البخاري (رقم ٤٠٢٩).

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر:١١-١٢].

العنصر الرابع: الدروس والعظات والعبر:

أولاً: من وقف في وجه الإسلام أباده الله، عاجلاً أو آجلاً، فانظروا ماذا فعل الله بكفار مكة عندما جاءوا للاعتداء على الإسلام والمسلمين في غزوة بدر.

وماذا فعل بيهود بني قينقاع عندما مكروا بالإسلام والمسلمين.

وانظروا ماذا فعل الله تعالى بيهود بني النضير عندما نقضوا العهود والمواثيق، واعتدوا على الإسلام والمسلمين، والعاقل من اتعظ بغيره، وليعتبر كل من تسول له نفسه أن يقف في وجه الإسلام، وأن يمكر بالإسلام والمسلمين.

ثانياً: النصر على الأعداء لا يكون إلا من عند الله.

قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران:١٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٢٦].

من الذي نصر المؤمنين يوم بدر؟ إنه هو الله.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران:١٢٣].

من الذي نصر المؤمنين يوم الأحزاب؟ إنه هو الله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾ [الأحزاب:٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ۝٢٥﴾ [الأحزاب:٢٥]

- من الذي نصر المؤمنين يوم حنين وفي مواطن كثيرة؟ إنه هو الله

قال تعالى: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ۝٢٥﴾ [التوبة:٢٥].

- من الذي قذف الرعب في قلوب يهود بني النضير، فأخذوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين؟ إنه هو الله.

قال تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر:٢]

فالنصر يا عباد الله لا يكون إلا من عند الله.

قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ [الأنفال:١٠]

ومن سنن الله التي لا تتبدل ولا تتغير أنه لا ينصر عباده إلا إذا نصروه.

قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد:٧].

ثالثاً: بالعقيدة الصحيحة والعمل الصالح واتباع منهج الصحابة ننتصر على أعدائنا عامة وعلى اليهود خاصة.

وهذا يظهر جليا من سورة الحشر التي نزلت من شأن يهود بني النضير.

ففي السورة توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وفيها الإيمان باليوم الآخر والجنة والنار.

وفي السورة الحث على الأعمال الصالحة، فالسورة بدأت بالتسبيح لله عز وجل وانتهت بالتسبيح.

وقال تعالى في وسط السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝١٩﴾ [الحشر:١٨-١٩].

وفي سياق السورة؛ أثنى الله على المهاجرين والأنصار، ومن سلك سبيلهم بإحسان إلى يوم الدين، ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، ثم الآية التي جاءت بعدها في الأنصار، ثم الآية التي بعدها جاءت في من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

رابعاً: على المسلمين أن يفهموا الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة -الصحابة رضي الله عنهم- ومن سلك سبيلهم بإحسان إلى يوم الدين.

الشباب المتحمس والمتعجل الذي يفهم الكتاب والسنة بعواطفه، ويستدل بقتل كعب بن الأشرف اليهودي على عمليات الاغتيال للحكام ورجال الأمن، وهذا خطأ كبير لا يقره الشرع والدين، لأن قتل كعب بن الأشرف كان بأمر النبي ﷺ، وكان يهودياً مناقضاً للعهد والميثاق الذي وثقه مع رسول الله ﷺ، وكان يؤذي الله ورسوله، والذي أمر بقتله هو رسول الله ﷺ، ورسولنا الكريم لا يأمر من عند نفسه ولكن كان ذلك بوحي من الله -عز وجل-، ونقول عندما أمر الرسول بقتل كعب بن الأشرف لم تكن هناك مفسدة واحدة، ولم يستطع يهودي واحد أن يتكلم أو يتحرك بعدما

رأوا قتل كعب بن الأشرف، بل دخلوا في حصونهم ودب الرعب في قلوبهم، أما ما يفعله بعض الشباب المسلم فيقتلون فلاناً وفلاناً بعد أن يُكَفِرُونَهم، ويحملون فكر التفكير في عقولهم، هذا يخالف ديننا ويبرأ منه الإسلام، والمفاسد كثيرة بعد أن يقتلوا رجلاً واحداً، وإذا قلنا لهم ذلك ونصحناهم اتهمونا بالعمالة والجبن، والله المستعان.

اللهم رد المسلمين إلى دينك رداً جميلاً.

الخطبة الرابعة والثلاثون
غزوة أُحُد

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ

وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن غزوة أُحد.

غزوة أُحد التي ظهر فيها النفاق بأظهر علاماته وأجلى صفاته.

والتي ظهر فيها الإيمان الكامل وما يفعله في النفس البشرية من الاستعلاء على الشهوات والإخلاص لرب الأرض والسماوات.

والتي تعلَّم فيها المسلمون أسباب النصر وأسباب الهزيمة.

والتي دفع فيها المسلمون الثمن غالياً من القتلى والجرحى.

والتي ظهر فيها التوكل على الله والثقة به.

والتي ميز الله فيها الخبيث من الطيب.

والتي أفرد للحديث عنها من سورة آل عمران ستون آية لأهميتها.

عباد الله! وحديثنا عن غزوة أُحد سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: أحد جبل يحبنا ونحبه[١].

العنصر الثاني: يوم التقى الجمعان.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٤٨٢)، ومسلم (رقم ١٣٩٢).

العنصر الثالث: ما فعله الرسول ﷺ بعد انتهاء الغزوة.

العنصر الأول: أحدٌ جبل يحبنا ونحبه:

عباد الله! جبل أحد هو الجبل الذي وقعت عنده غزوة أُحد، وهو جبل يقع بالقرب من المدينة.

وهو الجبل الذي دَفَنَ عنده النبُّي ﷺ من خيرة أصحابه، كعمه حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وأنس بن النضر وغيرهما -رضي الله عنهم جميعاً-.

وهو الجبل الذي ذهب إليه النبي ﷺ وصلى على شهداء أحد قبل موته كالمودع للأحياء والأموات.

وهو الجبل الذي قال فيه النبي ﷺ: «أحدٌ جبل يحبنا ونحبه».

وهو الجبل الذي التقى عنده جيش الكفر وجيش الإيمان ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ﴾ [آل عمران:١٣].

عباد الله! بعد أن أُصيبتْ قريش في عظمائها وأئمة الكفر فيها يوم بدر، وقلوبهم تغلي حقداً وحنقاً وغيظاً على المسلمين والإسلام، عبأت قريش قُوَتَّها، واستعانت بحلفائها، وخرجت في ثلاثة آلاف مقاتل يقودها أبو سفيان بن حرب لتحقيق الأهداف التالية:

أولاً: استعادة مكانتها عند العرب بعد أن فقدتها بهزيمتها في غزوة بدر.

ثانياً: الثأر لقتلاها ببدرٍ.

ثالثاً: تأمين طريق التجارة من مكة إلى الشام.

عباد الله! وصلت الأخبار إلى النبي ﷺ بقدوم هذا الجيش لغزو المدينة،

ورأى النبي ﷺ رؤيا - ورؤيا الأنبياء حق وهي من الوحي - حكاها لأصحابه فقال: «رأيتُ في رؤياي أني هززت سيفاً فانقطع صدره، فإذا هو ما أُصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد كأحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقراً -والله خيرٌ- فإذا هم النفر من المؤمنين يوم أحد، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير بعد..»[1].

عباد الله! فلما شاور النبي ﷺ أصحابه أشار عليه الشباب ومن حُرِمَ من شهود بدرٍ وغلبهُ الشوق إلى الجهاد وملاقاة العدو بالخروج إليهم -وهم الذين يتشوقون إلى الاستشهاد-، وكان من رأيه ﷺ ورأي الشيوخ وكذلك عبد الله بن أُبي ابن سلول المكوث في المدينة، ومقاتلتهم إذا دخلوها من الأزقة ومن أسطح البيوت.

قال ﷺ: «رأيت كأني في درع حصينة ورأيت بقراً منحرةً، فأوَّلت أن الدرع الحصينة المدينة، وأن البقر هو والله خير».

ثم قال لأصحابه: «لو أنا أقمنا بالمدينة، فإذا دخلوا علينا فيها قاتلناهم فقالوا: يا رسول الله، والله ما دُخِلَ علينا فيها في الجاهلية، فكيف يُدْخَلُ علينا فيها في الإسلام؟».

فقال: «شأنكم».

ثم دخل ﷺ فلبس لأمتهُ - أي لباس القتال - فقالت الأنصار: رددنا على رسول الله ﷺ رأيه، فجاءوا فقالوا: يا نبي الله شأُنكَ إذاً -أي الرأيُ

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٦٢٢)، ومسلم (رقم ٢٢٧٢).

رأيك فأصنع ما أراك الله-

فقال ﷺ لهم: «إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل»(١).

عباد الله! خرج النبي ﷺ بعد صلاة العصر من يوم الجمعة؛ في ألف مقاتل من المدينة إلى جبل أحد، وفي الطريق وبالقرب من جبل أحد انسحب من الجيش عبد الله بن أُبي ابن سلول رأس النفاق بثلث الجيش -ثلاثمائة مقاتل- وأراد بذلك أن يحطم معنويات الجيش - مدعياً أنهُ لن يقع قتال مع المشركين !! معترضاً على قرار الرسول ﷺ بالخروج لقوله: (أطاعهم وعصاني) فكذب الله ابنَ سلول وأنزل الله على رسوله ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران:١٦٦-١٦٧]

عباد الله! وكانت هذه أول فائدة من فوائد غزوة أحد، وهي تميز المنافقين، والفصل بينهم وبين المؤمنين الصادقين.

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران:١٧٩]

عباد الله! وقد ظهر في أوساط الصحابة رأيان في المنافقين الذين انسحبوا من الجيش الرأي الأول: قتل المنافقين الذين خذلوا المسلمين بعودتهم

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٥١)، وصححه الألباني.

وانشقاقهم عن الجيش.

الرأي الثاني: لا يرى قتلهم، وقد بينَّ الله -عز وجل- في كتابه موقف الفريقين في قوله تعالى:

﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾ [النساء:٨٨].

عن زيد بن ثابت ﷺ قال: لما خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة أُحد رجع ناسٌ ممن خرج معه، وكان أصحاب النبي ﷺ فرقتين، فرقة تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول لا نقاتلهم، فنزلت: ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ﴾(١).

عباد الله! وقد أثر موقف المنافقين في نفوس طائفتين من المسلمين، ففكروا بالعودة إلى المدينة، ولكنهم غالبوا الضعف الذي ألم بهم، وانتصروا على أنفسهم بعد أن تولاهم الله تعالى، فدفع عنهم الوهن، فثبتوا مع المؤمنين وهما: بنو سلمة (من الخزرج) وبنو حارثة (من الأوس).

وقد أخبرنا ربنا -جل وعلا- في كتابه عن موقف الطائفتين.

فقال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾ [آل عمران:١٢٢]

عن جابر ﷺ قال: «فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾

نحن الطائفتان: بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل لقوله تعالى:

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٨٨٤)، ومسلم (رقم ٢٧٧٦).

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾[1].

عباد الله! ولما انسحب ابن سلول زعيم المنافقين، هو ومن على شاكلته بثلث الجيش تبعهم عبدالله بن حرام - والد جابر بن عبد الله - ينصحهم بالثبات ويؤنبهم على العودة، ويذكرهم بواجب الدفاع عن المدينة ضد المغيرين إذا لم يكن لهم إيمان بالله واليوم الآخر وثقة بالإسلام ورسوله، فأبى ابن أُبي الاستماع إليه وفيه ومن انسحب معه نزلت الآية ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ..﴾ [آل عمران:١٦٧]

عباد الله! وقبل أن يصل النبي ﷺ إلى أُحد استعرض الجيش، فرد مَنْ ردَّ من الشباب لصغره عن سن البلوغ، وأجاز مَنْ أجاز وكان ممن ردهم عبدالله بن عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما-.

يقول ابن عمر -رضي الله عنهما-: «عرضني رسول الله ﷺ يوم أُحد وأنا ابن أربع عشرة سنة لم يجزني، وعرضني يوم الخندق وأنا ابنُ خمس عشرة فأجازني»[2].

أين تربى هؤلاء؟! على عقيدة التوحيد وعلى سنة رسول الله ﷺ.

عباد الله! ومضى رسول الله ﷺ بجيش المسلمين وعددهم سبعمائة مجاهد فقط -أي ما يعادلُ ربع جيش الكفار تقريباً-

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٠٥١)، ومسلم (رقم ٢٥٠٥).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٦٦٤)، ومسلم (رقم ١٨٦٨).

ونزل ﷺ بالجيش بالشعبِ بجبل أُحد، وجعل ظهر الجيش للجبل وعينَّ أميراً على الميمنة، وأميراً على الميسرة، وانتقى من مهرة الرماة خمسين رجلاً فعينهم للحراسة على الجبل، وأمرَّ عليهم عبدالله بن جبير رضي الله عنه وأصدر ﷺ أوامرهُ المشددة للرماة فقال: «احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وأن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشرُكونا»(١).

وفي رواية قال لهم: «لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا»(٢).

عباد الله! وأخذ النبي ﷺ ينظم الصفوف ويحرضُ أصحابهُ على القتال، وينفث روح الحماسة والبسالة في أصحابه، فأخذ سيفاً وقال: «من يأخذ هذا السيف؟».

فبسطوا أيديهم كلٌّ يقول: أنا، أنا.

فقال ﷺ: «من يأخذهُ بحقه؟» فأحجم القوم.

فقال أبو دجانة: «أنا آخذهُ بحقه يا رسول الله، فأخذهُ ففلق به هام المشركين»(٣).

قال ابن إسحاق: كان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها عُلِمَ أنه سيقاتل حتى الموت.

وقام رجلُ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قُتلت فأين أنا؟

---

(١) صحيح رواه الحاكم (٢/٢٩٦).

(٢) قطعة من حديث رواه البخاري (رقم ٤٠٤٣).

(٣) رواه مسلم (رقم ٢٤٧٠).

قال ﷺ: «في الجنة» فألقى الرجل تمرات كانت في يده ثم قاتل حتى قُتِلَ رضي الله عنه(١).

عباد الله! وعند جبل أحد تعبأت قريش للقتال، وهم في ثلاثة آلاف وفيهم مائتا فارس، فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل.

العنصر الثاني: يوم التقى الجمعان

عباد الله! وهذا هو يوم السبت، حيث التقى فيه جيش الإسلام الذي خرج من أجل -لا إله إلا الله-، مع جيش الكفر الذي خرج ليقتل مَنْ يقول لا إله إلا الله، قال تعالى في كتابه عن هذا اليوم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران:١٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٦]

عباد الله! وتقارب الجمعان، وتدانت الفئتان، واندلعت نيران المعركة، واشتد القتال بين الفريقين في كل نقطة من نقاط الميدان، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين، فتقدم أَسدُ اللهِ حمزةُ إلى حامل لواء المشركين فقتله، فلما سقط اللواء خلفه أخوه في رفعه، فقتله حمزة فتتابع تسعة رهطٍ على رفع راية المشركين فقتلهم المسلمون، وسقط لواء المشركين فلم يرفع.

وتقدم أبو دجانة نحو المشركين بسيفه الذي أخذه من النبي ﷺ بحقه،

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٠٤٦)، ومسلم (رقم ١٨٩٩).

فأعمل فيهم سيفه -أي حصد رؤوس الكفار بهذا السيف-، وتقدم حنظلة ﷺ حتى انتهى إلى قائد المشركين أبي سفيان فرفع سيفه عليه، فبينما هو فوق رأسه رأى رجلٌ من المشركين المشهد فقتل حنظلة من وراءه -لحكمة يريدها الله، فقد أسلم أبوسفيان بعد ذلك- ورأى النبيُّ ﷺ الملائكة تُغَسِلُ حنظلة فسأل عنه لماذا تغسله الملائكة؟ والشهداء لا يغسلون؟ فأُخبر أنه خرج إلى الجهاد جنباً -أي كان عريساً ينام مع زوجته- فرأى إن اغتسل تأخر عن الخروج فبادر بالخروج جنباً، وقتل شهيداً فغسلته الملائكة بين السماء والأرض(١).

عباد الله! حمزة ﷺ يحصد بسيفه رؤوس الكفر هنا وهناك في أرض المعركة، لا يقف أمامه أحدٌ من المشركين.

قال قاتلُهُ وحشيٌّ: رأيت حمزة بن عبد المطلب كالجمل الأورق، حاملٌ سيفهُ يقتل به المشركين ما يقوم له شيء.

قال وحشيٌّ: وخرج إليه رجلُ من المشركين فرفع حمزة سيفهُ عليه فما أخطأ رأسه.

وقال وحشيٌّ: وانتهزت منه غفلة فرفعتُ حربتي حتى إذا رضيتُها دفعتُها إليه فوقعت في ثُنته - أي أحشائه - حتى خرجت من بين رجليه(٢).

يقول ولما مات حمزة أخذت حربتي وذهبت بعيداً عنه، وليس لي بغيره حاجة، ومع ذلك مات حمزة أسد الله، والمسلمون يحصدون رؤوس الكفر، ويقتلون الكفار حتى أنهم ولوا مدبرين.

---

(١) إسناده جيد: انظر كتاب «الجنائز» (ص٧٤) للألباني.

(٢) «سيرة ابن هشام» (٣/ ٧٦).

عباد الله! وحاول المشركون وقف هذا الزحف الهائل، والسيل العارم، ولكن دون جدوى فتفرقوا وولوا مدبرين، ولم يجترئ أحدٌ من المشركين أن يدنوا من لوائِهم الذي سقط على الأرض، وأخذ جيش الكفر في الانسحاب من أرض المعركة.

عباد الله! قال ابن إسحاق: ثم أنزل الله نصره على المسلمين وَصَدَقَهُم وَعْدَهُ فحسُوهم -أي قتلوهم- بالسيوف حتى إذا كشفوهم عن المعسكر وكانت الهزيمة لا شك فيها.

روى عبدالله بن الزبير عن أبيه أنه قال: والله لقد رأيتُني أنظر إلى خدم -أي سوق- هند بنت عتبة وصواحبها مشمراتٍ هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير[1]..

ويقول البراء بن عازب ﷺ: «فلما لقيناهم هربوا، حتى رأيتُ النساء يشتددنَّ في الجبل يرفعن سوقهُن قد بدت خلاخيلهنَّ»[2].

ويقول ابن عباس -رضي الله عنهما- ما نُصِرَ النبيُّ ﷺ في موطنٍ كما نصر يوم أحد.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾.

يقول ابن عباس: والحسُ القتل[3].

عباد الله! وبينما كان الجيش الإسلامي بعدده القليل يُسجل مرةً أخرى

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٧٧).

(٢) رواه البخاري (رقم ٤٠٤٣).

(٣) صحيح: رواه الحاكم (٢/ ٢٩٦).

نصراً ساحقاً على جيش الكفر، لم يكن أقل روعة من النصر الذي اكتسبه يوم بدر، وقعت من أغلبية الرُماة غلطةٌ فظيعةٌ قلبت الوضع تماماً، وأدت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين وكادت تكون سبباً في مقتل النبي ﷺ.

عباد الله! لما رأى الرُماة أن المسلمين بدأوا يجمعون الغنائم التي خلَّفها المشركون، قال بعضهم لبعض: الغنيمة، الغنيمة، ظهر أصحابكم فماذا تنتظرون؟ أما قائدهم عبدالله بن جبير فقال لهم أنسيتم عهد رسول الله إليكم؛ ألا تبرحوا مكانكم حتى يأذن لكم؟ قالوا: إنما أراد رسول الله ﷺ أن نحمي ظهر الجيش حتى ينصرهم الله، وقد نصرهم الله، والله لنأتين القوم فنصيب معهم من الغنائم، فنزل أربعون من الرماة وبقى الأمير في عشرة فقط.

عباد الله! نظر خالدُ بن الوليد وقد ولّى هارباً، فإذا الجبل قد انكشف ولم يبق عليه غيرُ عشرةٍ، فاستدار خالدٌ في نفر من فرسان المشركين وعلو الجبل - أي جبل الرماة - فقتلوا أمير الرماة ومن معه، ثم دخلوا في المسلمين من ورائهم فأصابوا منهم ما أصابوا، وصرخ عدو الله إبليس في المسلمين: أي عباد الله أُخراكم، أي جاءكم العدو من ورائكم، فرجعت أولاهم على أُخراهم فاجتلدت أولاهم مع أُخراهم -المسلمون أنفسهم- هؤلاء راجعون وهؤلاء متقدمون، فأُعميت الأبصار فلم يلتفتوا إلى شيء وجعلوا يضربون بعضهم بعضاً، ونظر حذيفة بن اليمان فرأى أباه المسلم والسيوف تعمل فيه فقال: أبي أبي، فما انحجزوا عنه حتى قتلوه.

ونظر رسول الله ﷺ فرأى أصحابه قد ولوا عنه مدبرين فجعل ينادي:

إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله، فسمع المشركون صوته فعرفوه، فأقبلوا عليه يريدون قتله ولكن الله عصمه، فأنزل ملائكتهُ تقاتلُ دونه.

عباد الله! ومع ذلك خلُص بعض المشركين إلى رسول الله ﷺ نفسه وهو في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش.

فقال: «من يردهم عنا وهو رفيقي في الجنة؟» فقاتلوا عنه واحداً واحداً حتى استشهد الأنصار السبعة»[١].

وأنزل الله -تبارك وتعالى- جبريل وميكائيل يدافعان عن رسول الله ﷺ.

عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: «رأيت يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان دون رسول الله ﷺ ما رأيتهما قبلُ ولا بعد -يعني جبريل وميكائيل»[٢].

وقام سعد بن أبي وقاص بين يدي رسول الله ﷺ يَرُدُّ المشركين عنه، ونثل رسول الله ﷺ له كنانتهُ، وجمع له أبويه ولم يجمعهما لغيره وقال ﷺ: «أرم سعد، فداك أبي وأمي»[٣].

وترَّسُ أبو طلحة ﷺ على رسول الله ﷺ، وجعل يحمي السهام عن رسول الله ﷺ فيتلقفها في صدره ونحره وظهره وجعل رسول الله ﷺ يقول: «إرم أبا طلحة! إرم أبا طلحة».

وكلما مرَّ رجل من المسلمين معه سهامٌ قال: «انثرها لأبي طلحة»، فيرمي أبو طلحة فينظر رسول الله ﷺ أين وقع السهم، ويقول أبو طلحة له: دونك يا رسول الله، لا يصيبك سهم من سهامهم نحري دون نحرك»[٤].

---

(١) رواه مسلم (رقم ١٧٨٩).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٠٥٤)، ومسلم (رقم ٢٣٠٦).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٠٥٥)، ومسلم (رقم ٢٤١٢).

(٤) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٠٦٤)، ومسلم (رقم ١٨١١).

عباد الله! ورغم استبسال الصحابة -رضي الله عنهم- في الدفاع عن رسول الله ﷺ فقد أُصيب إصابات كثيرة منها: كُسرت رُباعيته، وسال الدم من وجهه، ووقع ﷺ في حفرةٍ ودخلت حلقة المِغفر في وجنتيه، وجعل ﷺ يقول: «كيف يُفلح قومٌ شجوا نبيهم وكسروا رباعيتهُ، وهو يدعوهم إلى الله».

فأنزل الله -عز وجل-: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران:١٢٨][1].

عباد الله! وقد أُشيع بين الصحابة - رضي الله عنهم - أن رسول الله ﷺ قد قُتل، فأغتم المسلمون غماً على غمهم، وحزناً على حزنهم، وتولى بعضهم إلى المدينة وانطلقت طائفة فوق الجبل، واختلطت على الصحابة أحوالهم فما يدرون كيف يفعلون. كما قال تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران:١٤٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ﴾ [آل عمران:١٥٥].

عباد الله! أخذ رسول الله ﷺ في الانسحاب بالبقية الباقية حوله حتى انتهى بهم إلى الشِّعب، وأرادت قريش أن تمنع هذا الانسحاب ولكن

---

(١) رواه مسلم (رقم ١٧٩١).

دون جدوى، فانتهى رسول الله ﷺ بأصحابه إلى الشعب الذي قد نزل فيه في أول القتال.

عباد الله! وقد يئس المشركون من إنهاء المعركة بنصر حاسم، وتعبوا من طولها ومن جلادة المسلمين فكفوا عن القتال.

فانتهزها أبو سفيان فرصة ليولي الأدبار هو الآخر، وخاف أن تكون الجولة الثالثة للمسلمين كما كانت لهم الجولة الأولى، إلا أنه وقف يشمت بالمسلمين، ويفخر بآلهتهم وجعل ينادي: أفي القوم محمد؟ فقال ﷺ «لا تجيبوه» فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟

فقال ﷺ «لا تجيبوه» قال: أفي القوم ابن الخطاب؟

فقال أبو سفيان لقد قتل هؤلاء - لتعلموا أنهم قد جاءوا للقضاء على محمد ﷺ وعلى كبار الصحابة - فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت عدو الله لقد أبقى الله لك ما يخزيك.

فقال أبو سفيان: أُعلُ هبل.

فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» قالوا: ماذا نقول يا رسول الله؟

قال: قولوا: الله أعلى وجل.

قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عُزى لكم.

فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» فقالوا: ماذا نقول يا رسول الله؟

قال: قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم».

قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال، وتجدون مُثلةً لم آمرْ بها ولم تسؤني» - أي لم آمر الجيش أن يمثل بقتلاكم، ولكن لم يسؤني. وفي رواية

أخرى قال عمر: «لا سواءٌ قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار»[1].

عباد الله! مَثّلَ المشركون يوم أحد بقتلى المسلمين، جدعوا أُنوفهم وآذانهم، وبقروا بطونهم حتى إن هنداً بنت عتبة بقرت بطن حمزة ﷺ واستخرجت كبدهُ فلاكتها ثم لفظتها، وَمَثَّلوا بأنس بن النضر حتى أنه ما عرفهُ أحد إلا أخته عرفته ببنانه»[2].

العنصر الثالث: ما فعله الرسول ﷺ بعد انتهاء الغزوة.

عباد الله! ولما ولىَّ المشركون مدبرين ولم يحرزوا نصراً، ولم يقتلوا ما أرادوا من المسلمين، ولكنهم أصابوا من المسلمين ما أصابوا لحكمة يريدها الله، قام ﷺ وصف المسلمين خلفه ثم رفع يديه يثني على ربه:

«اللهم لك الحمد كلُّه، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لما هديت، ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت ولا مُقرِّب لما بعدت، ولا مبعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من فضلك ورحمتك وبركتك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك العون يوم القيلة - أي الفاقة -، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينهُ في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الفجرة، الذين

---

(١) رواه البخاري (رقم ٣٠٣٩، ٤٠٤٣).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٨٠٥)، ومسلم (رقم ١٩٠٣).

يكذبون رسُلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك إله الحق، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق»[١].

عباد الله! ثم قام ﷺ يتفقد أصحابه ويجمع الشهداء، وحمل نفرٌ من المسلمين شهداءهم ليدفنوهم بالمدينة في مقابر أهلهم فنادى منادي رسول الله ﷺ: «ادفنوا الشهداء في مضاجعهم»[٢].

ومن هنا كانت السنة عدم نقل الموتى من بلدٍ إلى بلدٍ.

وقام ﷺ بنفسه يشرف على دفن الشهداء، وأمر أن يُدفنوا في ثيابهم ودمائهم ولم يُغسِّلهم ولم يصل عليهم، وكان ربما جمع الشهيدين والثلاثة في قبر واحد، لكنه كان يقول: «أيهم أكثر أخذاً للقرآن فإذا أُشير إلى أحدٍ منهم قدمه في اللحد على أصحابه»[٣] إكراماً لأهل القرآن.

فلما فرغ من دفنهم قام ينظر إليهم، ويشهد لهم شهادة لا تُرد أبداً إن شاء الله تعالى، قام يقول: «أنا شهيدٌ على هؤلاء، ما من جريح جُرِحَ جرحاً في سبيل الله إلا أتى يوم القيامة ينزف جرحه، اللون لون الدم والريح ريح المسك».

عباد الله! ثم عاد النبي ﷺ آخر النهار من يوم السبت، السادس من شوال، من السنة الثالثة للهجرة، فلما بات ليلة الأحد خاف ﷺ أن يرجع العدو إلى المدينة مرة أخرى، فانتدب سبعين من أصحابه يخرجون في إثر العدو.

عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قرأت قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾ [آل عمران:١٧٢].

---

(١) صحيح انظر: «فقه السيرة» (ص٢٨٤-٢٨٥) تحقيق الألباني.
(٢) «صحيح سنن النسائي» (١٨٩٣).
(٣) رواه البخاري (رقم ١٣٤٣).

فقالت لعروة ابن أختها: يا ابن أختي كان أبوك منهم الزبير وأبو بكر، لما أصاب الرسول ﷺ ما أصاب يوم أحد فانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، فانتدب منهم سبعين رجلاً كان فيهم الزبير وأبو بكر[(١)]».

عباد الله! ولما انتهى أبو سفيان إلى مكان بعيد عن المدينة لقيه رجلٌ.

فقال: هل أنت مُبلِّغ عني محمداً ولك كذا وكذا؟ قال: نعم

فقال: أخبر محمداً أنا راجعون إليهم لنستأصل بقيتهم ونسبي نساءهم وذراريهم، فلما بلغ الخبر رسول الله ﷺ وأصحابه، قالوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

يقول ابن عباس - رضي الله عنهما - «حسبنا الله ونعم الوكيل»، قالها إبراهيم -عليه السلام- حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ وأصحابه حين قال لهم الناس: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾[(٢)].

حسبنا الله لديننا، حسبنا الله لكتابنا، حسبنا الله لسنة نبينا، حسبنا الله ونعم الوكيل.

اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين واخذل الشرك والمشركين، اللهم عليك بالكفرة الفجرة الذين كذبوا رسولك وصدوا عن سبيلك.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٠٧٧)، ومسلم (رقم ٢٤١٨).

(٢) رواه البخاري (رقم ٤٥٦٣).

الخطبة الخامسة والثلاثون
الدروس والعظات والعبر والفوائد
التي تؤخذ من غزوة أحد

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع اللقاء الخامس والثلاثين من سيرة المصطفى ﷺ.

وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن الدروس والعظات والعبر والفوائد التي تؤخذ من غزوة أحد.

عباد الله! الفتح والنصر في المعارك من خصائص المسلمين فقط، وأما ما يناله الكفار من المسلمين في بعض المعارك، فإنما هو نصيب فقط، قدَّره الله -عز وجل- لحكمة يعلمها وهو الحكيم العليم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤٠-١٤١].

ففي هذه الآية سمى الله -تعالى- ما يكون للمؤمنين فتحاً ونصراً، وسمى ما يكون للكافرين نصيباً.

عباد الله! والذي حدث في غزوة أحد كان نصراً عظيماً للمؤمنين، ويظهر ذلك من الجولة الأولى في المعركة؛ فقد حصد المسلمون رؤوس الكفار، وسقط لواء المشركين وولوا مدبرين، وتَبِعَهُم المسلمون يقتلونهم ويجمعون الغنائم.

ولذلك قال ابن عباس - رضـي الله عنـهما-: «مـا نُصِـرَ النبيُّ ﷺ مـن موطن كما نُصِرَ يوم أحد»: فلما أُنكِرَ عليه ذلك قال: «بيني وبين من أنكـر؛ كتاب الله -عز وجل- إن الله يقول في يوم أحـد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾.

يقول ابن عباس: «والحسُّ القتل»[1].

وإنما دالت الدولة لَمَا عصوا الرسـول ﷺ وفشلـوا وتنـازعوا في الأمـر، وكان ما كان لحكمة يعلمها الله.

ولذلك قال تعـالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران:١٥٢]

عباد الله! والسؤال الذي يفرض نفسه علينا الآن:

كيف يكون الذي أصاب المسلمين من غزوة أحد نصراً عظيماً؟

الجواب: إن النصر كـان للمسـلمين في أول المعركـة لا يقـل عـن النصـر ببدر، ولما أصاب المسلمين ما أصابهم بسبب المخالفة التي وقعت مـن بعـض الرماة، علَّم الله -تبارك وتعالى- المسلمين، وجعلهم يأخذون من غزوة أحـد الدروس والعظات والعبر والفوائد التالية:

أولاً: تبين للمسلمين خطر النفـاق والمنـافقين علـى الإسـلام والمسـلمين،

---

(١) صحيح: رواه الحاكم (٢/ ٢٥٦).

وظهر ذلك عندما رجع عبدالله بن أُبـي ابن سلول زعيم المنافقين بثلث الجيش، قبل الوصول إلى جبل أحد.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران:١٦٦-١٦٧].

عباد الله! وهذه هي أول فائدة من فوائد غزوة أحد، وهي تمييز المنافقين والفصلُ بينهم وبين المؤمنين الصادقين.

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ [آل عمران:١٧٩].

عباد الله! بعد النصر العظيم الذي مَنَّ الله به على المؤمنين في غزوة بدرٍ الكبرى، دخل في الإسلام بعضُ الناس، ظاهرهم الإسلام وباطنهم الكفر، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فاقتضت حكمة العليم الحكيم أن يمتحن المسلمين بما أصابهم يوم أحدٍ، حتى يميز الخبيث من الطيب، ويتبين الكاذب من الصادق.

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت:٢-٣]

عباد الله! فبعد غزوة أحد انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

كافرين ظاهرهم الكفر وباطنهم الكفر، ومؤمنين ظاهرهم الإيمان وباطنهم الإيمان، ومنافقين ظاهرهم الإسلام وباطنهم الكفر.

عباد الله! ولما كان المنافق أشد خطراً على الإسلام والمسلمين من غيره؛ لأنه لا يَظهَرُ ولا يُعْرَفُ، فقد فضحهم الله في كتابه وحذر المؤمنين منهم .

فقال تعالى عن المنافقين: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤]

عباد الله! ولئن أفادت غزوة بدر في خذل الكافرين، فإن غزوة أحد أفادت مثلها في فضح المنافقين، وربَّ ضارة نافعة، وربما صحت الأجساد بالعلل.

عباد الله! تبين للمسلمين بعد غزوة أحد أن النصر يكون مع الصبر والاعتصام والطاعة لله ولرسوله ﷺ، وأن الخذلان يكون مع الاستعجال والتفرق والتنازع والمعصية لله ولرسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران:١٥٢].

عباد الله! بالصبر ننتصر على أعدائنا كما قال ﷺ: «وأعلم أن النصر مع الصبر» ولذلك أمر الله رسوله ﷺ والمسلمين بالصبر وعدم الاستعجال.

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران:٢٠٠].

وقال ﷺ: «.. والله ليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

فليتق الله دعاة الاستعجال، فقد جاء الإسلام يأمر بالاتحاد والاعتصام! وينهي عن التفرق والتنازع والاختلاف.

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝﴾ [الروم:٣١-٣٢]

عباد الله! بالطاعة لله ولرسوله ﷺ ننتصر على أعدائنا، وبالمعاصي ننهزم، ولذلك جاء الإسلام يأمر بالطاعة لله ولرسوله ﷺ، ويحذر من المعاصي لأن المعاصي سبب الخذلان.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝﴾ [الأنفال:٤٥-٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝﴾ [محمد:٧]، وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝﴾ [آل عمران:١٦٠]

ولذلك لما تعجب المسلمون مِنَ الذي أصابهم في غزوة أحد، أخبرهم الله -عز وجل- أن المخالفة التي وقعت من الرماة هي السبب، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [آل عمران:١٦٥].

عباد الله! بمخالفة واحدة وقعت من بعض الرماة في غزوة أحد؛ نزل ما نزل بالمسلمين، فما بالنا بالمخالفات الكثيرة التي تقع من الأمة في هذا الزمان.

فيا عباد الله! كونوا من الاستعجال على حذر، وكونوا من التنازع والفرقة على حذر، وكونوا من المعاصي والذنوب على حذر فإن ذلك من أسباب الخذلان.

ثالثاً: تبين للمسلمين بعد غزوة أحد، أن من سنة الله وحكمته في رسله وأوليائه وأحبابه، أن يُدالوا مرة، ويُدالُ عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة.

قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠].

ولذلك كان الذي أصاب المسلمين في غزوة أحد؛ علم من أعلام النبوة، ودليل على صدق النبي ﷺ في قوله للناس إني رسول الله إليكم جميعاً، ولذلك لما بَعَثَ النبي ﷺ كتابه إلى هرقل ملك الروم يدعوه فيه إلى الإسلام يقول له: «أسلم تسلم».

قال هرقل لحاشيته: ائتوني بمن بأرضي من العرب، فجيء بأبي سفيان ومعه نفر من المشركين

فسأله هرقل عن أحوال النبي ﷺ، وكان من ضمن الأسئلة:

هل قاتلتموه؟ قال أبو سفيان: نعم.

قال هرقل: كيف كانت الحرب بينكم وبينه؟

قال أبو سفيان: سجال، يُدال علينا مرة، ونُدال عليه الآخرة.

فقال هرقل: تلك سنة الله مع أنبيائه ثم تكون العاقبة لهم»[1].

---

(١) رواه البخاري (رقم ٧).

ولذلك قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران:١٣٧].

رابعاً: تبين للمسلمين أنه إذا مات الرسول بقيت الرسالة، وإذا مات الداعية بقيت الدعوة، وأنه يجب على المسلم أن يموت على الإسلام والتوحيد، سواء مات رسول الله ﷺ أو بقي.

ولذلك قال ابن القيم -رحمه الله- في «زاد المعاد» (ص٢٢٤).

ومنها -أي من الحكم والغايات المحمودة التي كانت في غزوة أحد-:

أن وقعة أحد كانت مقدمةً وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله ﷺ، فثبتهم، ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله ﷺ أو قتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه، أو يقتلوا فإنهم إنما يعبدون ربَّ محمد ﷺ وهو حيٌّ لا يموت.

فلو مات محمد ﷺ أو قتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه وما جاء به، فكل نفس ذائقة الموت، وما بُعث محمد ﷺ ليخلد لا هو ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد، فإن الموت لابد منه سواء مات رسول الله ﷺ أو بقي، ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان: إن محمداً قد قتل.

فقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران:١٤٤].

خامساً: تحصَّل كثير من المسلمين في غزوة أحد على الشهادة في سبيل الله والشهادة في سبيل الله درجة عالية يتطلع إليها كل مسلم ومسلمةٍ،

والصحابة - رضي الله عنهم - هم أحرص الناس على طلب الشهادة في سبيل الله.

عباد الله! تعالوا بنا لنتعرف على بعض الصحابة الذين فازوا بالشهادة في غزوة أحد.

١- سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب:

عم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة، ذهب جماعةٌ إلى وحشيٍّ فقالوا له: ألا تخبرنا بقتل حمزة؟

قال وحشي: نعم. إن حمزة قَتَلَ طُعَيْمَةَ بن عدي بن الخيار ببدرٍ، فقال لي مولاي جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمي فأنت حر - قال: فلما أن خرج الناس عام عينين -وعينين جبل بجيال أحد بينه وبينه وادٍ- خرجت مع الناس إلى القتال، فلما أن اصطفوا للقتال خرج سباعٌ، فقال:هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: يا سباع، يا ابن أم أنمار مقطعة البظور، أتحاد الله ورسوله ﷺ؟

قال: ثم شد عليه فكان كأمس الذاهب، قال: وكمنت لحمزة تحت صخرة فلما دنا مني رميته بحربتي فأضعها في ثنته حتى خرجت من بين وركيه.

قال: فكان ذاك العهد به، فلما رجع الناس رجعت معهم، فأقمت بمكة حتى فشا فيها الإسلام ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رسولاً فقيل لي إنه لا يهيج الرسل - أي لا ينالهم منه مكروه.

قال: فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ، فلما رآني قال: «أنت وحشيٌّ»؟ قلت: نعم. قال: «أنت قتلت حمزة» قلت: قد كان من الأمر ما قد بلغك. قال: «فهل تستطيع أن تُغيِّبَ وجهك عني»؟

قال: فخرجت فلما قبض رسول الله ﷺ خرج مسيلمة الكذاب قلت: لأخرجن إلى مسيلمة لعلي أقتله فأكافئ به حمزة قال: فخرجت مع الناس فكان من أمره ما كان فإذا رجل قائم في ثلمة جدار، كأنه جمل أورق ثائر الرأس قال: فرميته بحربتي فأضعها بين ثديه حتى خرجت من بين كتفيه. قال: «ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته»(١).

٢- أنس بن النضر ﷺ:

عن أنس ﷺ قال: غاب عمي أنس بن النضر ﷺ عن قتال بدر فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع.

فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال: اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ مما صنع هؤلاء -يعني المشركين-، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب الكعبة إني أجد ريحها من دون أحد.

قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع!

قال أنس: فوجدنا به بعضاً وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قُتِلَ ومَثَّلَ به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه.

قال أنس: كنا نرى -أو نظن- أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن

---

(١) رواه البخاري (رقم ٤٠٧٢).

﴿يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب:٢٣][(١)].

٣- عبدالله بن حرام، والد جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما-:

عن جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما- قال: لما حضرت أحد دعاني أبي من الليل فقال: ما أراني -أي أظنني- إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعز عليَّ منك غير نفس رسول الله ﷺ، وإن علي ديناً فاقضه واستوص باخواتك خيراً، فأصبحنا فكان أول قتيل، ودفنت معه آخر في قبره ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع آخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر، فإذا هو كيوم وضعته غير أذنه، فجعلته في قبر على حده»[(٢)].

وعن جابر ﷺ قال: «لما قتل أبي جعلت أكشف الثوب عن وجهه، أبكي وينهوني، والنبي ﷺ لا ينهاني فجعلتْ عمتي فاطمة تبكي فقال النبي ﷺ: «تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه»[(٣)].

وعن جابر ﷺ قال: «رآني النبي ﷺ وأنا مهتم فقال: «ما لي أراك منكسراً يا جابر؟».

قلت: استشهد أبي يوم أحد، وترك عيالاً وديناً.

فقال ﷺ: ألا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ قلت: بلى.

قال ﷺ: «ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وإنه أحيا أباك فكلمه

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٨٠٥)، ومسلم (رقم ١٩٠٣).
(٢) رواه البخاري (رقم ١٣٥١).
(٣) رواه البخاري (رقم ١٢٤٤).

كفاحاً- أي: مواجهة ليس بينه وبين الله حجاب».

فقال الله تعالى: أي عبدي تمنَّ عليَّ أعطك.

قال: يا رب تحيني فأقتل ثانية. قال الله سبحانه: لقد سبق القول مني أنهم إليها لا يرجعون. قال: يا رب فأبلغ من ورائي.

فنزلت الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠][(١)].

٤- عمرو بن الجموح ﷺ:

وكان أعرج شديد العرج، وكان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله ﷺ، فلما توجه إلى أحد أراد أن يخرج معه، فقال له بنوه: إن الله قد جعل لك رخصة، فلو قعدت ونحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد.

فأتى عمرو رسول الله ﷺ فقال: إن بني هؤلاء يمنعوني أن أجاهد معك، ووالله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة!!

فقال له رسول الله ﷺ: أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد.

وقال لبنيه: وما عليكم أن تدعوه لعل الله -عز وجل- أن يرزقه الشهادة؟

فخرج مع رسول الله ﷺ، فقتل يوم أحد شهيداً»[(٢)].

---

(١) «صحيح ابن ماجه»: (١٥٧).

(٢) صحح الشيخ الألباني إسناده في تحقيق «فقه السيرة» (ص٢٦٢).

وهناك زيادة في «مسند الإمام أحمد»[١]: أن رسول الله ﷺ مرّ عليه بعد ما قتل فقال ﷺ «كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة»[٢].

٥- عبدالله بن جحش ﷺ:

عن سعيد بن المسيب قال: «قال عبدالله بن جحش: اللهم إني أقسم عليك أن ألقى العدو غداً فيقتلوني ويجدعوا أنفي وأذني ثم تسألني بم ذاك؟ فأقول: فيك.

قال سعيد: إني لأرجو أن يبر الله آخر قسمه كما بر أوله»[٣].

وهذا الشاهد من زيادة في آخره قال سعد: فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه معلقتان في خيط»[٤].

سادساً: عزى الله نبيه وأولياءه في شهدائهم الذين قتلوا يوم أحد، أحسن عزاء وألطفه وأبره، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠].

عن مسروق قال: سألنا ابن مسعود ﷺ عن هذه الآية فقال:

أما إنا قد سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: «أرواحهم في جوف طير

---

(١) (رقم ٢٢٥٥٣- المؤسسة).

(٢) قاله الشيخ الألباني في تحقيق «فقه السيرة» (ص٢٦٢): «وسنده صحيح».

(٣) رواه الحاكم (٣ / ١٩٩-٢٠٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه. ووافقه الذهبي، وقال الشيخ الألباني: لكن له مشاهد موصول أخرجه البغوى كما في الإصابة.

(٤) انظر «فقه السيرة»: تحقيق الألباني (ص٢٩٢).

خضرٍ، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا: يارب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أن ليس بهم حاجة تركوا»(١).

عباد الله! وأنزل الله -عز وجل- قرآنا يتلى إلى يوم القيامة، يمسح به جراحات المسلمين ويزيل به عنهم ما أصابهم في غزوة أحد، فقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران:١٣٧-١٤٢].

سابعاً: فائدة:

إن الذي يقرأ الآيات الستين التي نزلت في سورة آل عمران تتحدث عن غزوة أحد، يرى أن الله تبارك وتعالى تخللها بنداء على المؤمنين يحذرهم فيه من أكل الربا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا

---

(١) رواه مسلم (رقم ١٨٨٧).

مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران:١٣٠-١٣٢].

فهذا سؤال يفرض نفسه علينا الآن.

ما السر، وما الحكمة في النهي عن الربا في هذا الموضع؟

الجواب: أن الجهاد في سبيل الله محتاجٌ للمال كما هو محتاج للنفس، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال:٦٠] والجهاد بالمال قرين الجهاد بالنفس، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف:١٠-١١].

والنبي ﷺ يقول: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»(١).

عباد الله! وكما يجب أن تخلص النوايا من كل الشوائب، يجب أن تخلص الأموال التي تنفق في الجهاد من كل الشوائب، وأوسخ شائبة تشوب المال هي شائبة الربا، وإنفاق المال الربويّ في الجهاد في سبيل الله من أكبر أسباب الهزيمة والخذلان.

---

(١) «صحيح سنن أبي داود» (٢١٨٦).

وذلك لأن أكل الربا من أكبر الكبائر، والمعاصي -كما تبين لنا- من أسباب الهزيمة والخذلان.

قال ﷺ: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله»[١].

عباد الله! وأعلن الله تبارك وتعالى الحرب على آكل الربا، قال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩]

عباد الله! والنبي ﷺ حذر من الربا تحذيراً شديداً.

فقال ﷺ: «درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد عند الله من ستة وثلاثين زينة»[٢].

وقال ﷺ: «الربا ثلاثة وسبعون باباً، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه»[٣].

عباد الله! ولما كان الله تعالى يعلم المؤمنين ويربيهم على الابتعاد عن كل عوامل الهزيمة والخذلان، عرفهم بجريمة الربا أثناء الحديث عن غزوة أحد ليبتعدوا عنها ويتقوها.

فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ

---

(١) «صحيح الجامع» (٦٩٢).
(٢) «صحيح الجامع» (٣٣٧٥).
(٣) «صحيح الجامع» (٣٥٣٩).

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

عباد الله! ولقد استفاد المسلمون الأولون مما نزل عليهم من عند ربهم في شأن غزوة أحد استفادة عظيمة، فما هزموا بعدها لأنهم أخذوا منها العبر والعظات وتجنبوا أسباب الهزيمة والخذلان، فكان النصر حليفهم بفضل الله.
﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران:١٢٦].

الخطبة السادسة والثلاثون

غدر الكفار: مأساة يوم الرجيع، ومأساة بئر معونة

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع اللقاء السادس والثلاثين من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن غدر الكفار.

ويتمثل هذا الغدر في مأساة يوم الرجيع، ومأساة بئر معونة.

عباد الله! تكلمنا عن غزوة أحد وتبين لنا أن الذي أصاب المسلمين فيها كان بسبب المخالفة التي وقع فيها بعض الرماة؛ عندما أمرهم النبي ﷺ أن يقفوا على الجبل ولا يتركوه؛ فنزلوا ليجمعوا الغنائم فكان ما كان.

والله يخبرنا بذلك فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران:١٥٢].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران:١٦٥].

عباد الله! وكان من نتائج غزوة أحد أن تجرأ الكفار على المسلمين وأخذوا يفكرون في استئصال المسلمين وإبادتهم، ففي مكة أخذ أبو سفيان ابن حرب يهدد ويتوعد، واليهود في المدينة تخون وتغدر ويفرحون بما حدث للمسلمين في أحد، والقبائل العربية من الأعراب حول المدينة تعتدي وتخون وتغدر وهم أشد كفراً ونفاقاً.

عباد الله! وبالفعل بدأ الكفار -والكفر ملة واحدة- في التحرش بالمسلمين ولكن لا عن طريق التصريح والمواجهة، بل عن طريق الحيلة والمكر والخديعة والغدر ويظهر ذلك جلياً من مأساة يوم الرجيع، ومأساة بئر معونة.

عباد الله! تعالوا بنا لنستمع إلى ما حدث في يوم الرجيع، وما حدث عند بئر معونة؛ ليتبين للجميع أن الغدر والمكر والخيانة من شيم وأخلاق الكفار من قديم الزمان وحتى يومنا هذا، وليست من شيم المسلمين.

أولاً: مأساة يوم الرجيع.

والرجيع هو: اسم للمكان الذي وقعت عنده المأساة، وتتلخص هذه المأساة فيما يلي:

أرسلت قبيلتان من القبائل العربية المجاورة للمدينة -عضل والقارة- وافدهم إلى النبي ﷺ يخبره أن بهم إسلاماً، وأنهم يريدون أن يبعث النبي ﷺ إليهم من يفقههم في الدين، ويعلمهم القرآن وأحكام الإسلام، ولما كان النبي ﷺ حريصاً على تبليغ دين الله -عز وجل- ونشر الإسلام وإظهاره استجابة لأمر ربه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾، فقد استجاب لهم ﷺ ويعث لهم عشرة من أصحابه وأمَّرَ عليهم عاصم بن ثابت ﷺ.

فلما وصل الوفد إلى مكان يسمى الرجيع بين عسفان ومكة، أغار عليهم بنو لحيان (من هذيل) وهم قريب من مائتي مقاتل، فأحاطوا بهم وقد لجأ الوفد من الصحابة إلى مكان مرتفع.

قال المشركون للوفد: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً فقال عاصم -وهو أميرهم-: أمَّا أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم

أَخبر عنَّا نبيك، فاستجاب الله لعاصم فأخبر رسوله خبره، فأخبر أصحابه بذلك يوم أصيبوا».

وفي رواية: «فقال عاصم: اللهم إني أحمي لك اليوم دينك فأحمي لي لحمي»[1].

فقاتلوهم حتى قَتَلوا عاصماً في سبعة نفرٍ بالنبل، وبقي خُبيب بن عدي وزيد بن الدثنة، وعبدالله بن طارق.

عباد الله! ولما قَتَلَ المشركون عاصماً أرادوا أن يأخذوا رأسه لإمرأة من المشركين نذرت؛ إن قدرت على رأس عاصم لتشربن فيها الخمر، لأنَّ عاصماً ﷺ كان قد قتل ابنيها يوم أحد، فأرسل الله تعالى النحل والدبابير فأظلته فحمته منهم فلم يقدروا منه على شيء.

وكان عاصم ﷺ قد أعطى الله تعالى عهداً أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركاً أبداً، فوفىَّ الله تبارك وتعالى له.

فكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول لما بلغه خبره: يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته؟

عباد الله! وبقي من الوفد خبيب وزيد وعبدالله، فدعاهم المشركون إلى النزول وأعطوهم العهد والمثياق ألا يقتلوهم فنزلوا.

فلما استمكن المشركون من الصحابة الثلاثة - ربطوهم بالحبال - فقال عبدالله بن طارق: هذا أول الغدر وأبى أن يسير معهم فجروه وعالجوه على أن يسير معهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلق المشركون بخبيب وزيد فباعوهما بمكة.

---

(١) انظر «فتح الباري».

فأما خبيب فاشتراه بنو الحارث بن عامر ليقتلوه بالحارث بن عامر الـذي كان خبيب قد قتله يوم بدر.

فمكث خبيب أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله، استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحدَّ بـه فأعارتـه - الله أكـبر! مـا هـذا يـا خبيـب غـداً ستقتل وتستعير هذا الموسى ليحلق عانته تطبيقـاً لسـنة رسـول الله ﷺ، أيـن تربـى هؤلاء؟! حرص على السنة في آخر لحظة من حياته.

قالت: فغفلت عن صبيٍّ لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه فلمـا رأيته فزعت فزعةً عـرف ذلـك مـني وفي يـده الموسـى فقـال -أي خبيـب- أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك -إن شاء الله تعالى- قالت: ما رأيـت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكـة يومئـذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد وما كان إلا رزق رزقه الله -إنها الكرامـة يكـرم بها ربنا؛ من يشاء من عباده-

قالت: فلما أرادوا أن يقتلوه خرجوا به من الحرم إلى الحل.

فلما عزموا على قتله قال لهم: دعونـي أُصلـي ركعتـين، فـتركوه فصلـى ركعتين، فلما انصرف قال لهم: أما والله لولا أن تروا أن مـا بـي جـزع مـن الموت لزدت في الصلاة، فكان أول من سنّ الصـلاة عنـد القتـل، ثـم قـال: اللهم أحصهم عدداً ثم أنشأ يقول:

ولسـت أبـالي حـين أقتـل مسـلماً على أي جنب كان في الله مصرعـي
وذاك في ذات الإلـــه وإن يشـــأ يبـارك علـى أوصـالِ شلـو ممـزع[1]

---

(١) رواه البخاري (رقم ٧٤٠٢).

ثم تقدم فقتل ﷺ.

عباد الله! وأما زيد فقد اشتراه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف وكان أمية بن خلف قد قتل يوم بدر.

فلما أرسله أيضاً إلى الحل ليقتل خارج الحرم، اجتمع عليه رهط من قريش فيهم سفيان بن حرب ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾ فقال أبو سفيان: يا زيد! أنشدك الله ! أتحب أن محمداً مكانك الآن تضرب عنقه وأنت جالس في أهلك؟

فقال زيد ﷺ: والله ما أحب أن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه وأنا في أهلي.

فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً، كَحب أصحاب محمد محمداً[1].

وفي هذا يقول القائل:

أسرت قريش مسلماً فمضى بلا وجلٍ إلى السياف

سألوه هل يرضيك أنك سالمٌ ولك النبي فدىً من الإتلاف

فأجاب: كلا لا سلمت من الردى ويصاب أنف محمد برعاف

ثانياً: مأساة بئر معونة

عباد الله! جاء وفد من قبائل رعل وذكوان وعصية وبني لحيان إلى النبي

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٣/ ١٦٠).

ﷺ وأظهروا الإسلام، واستمدوه على قومهم (أي طلبوا من النبي ﷺ أن يمدهم برجال من أصحابه إلى أقوامهم يعلمونهم الإسلام والقرآن وأحكام الدين).

ومع أنَّ العهد بالغدر الأول قريب، ولم ينس النبي ﷺ هو وأصحابه العشرة الذين قتلوا يوم الرجيع، إلا أن حرص النبي ﷺ الشديد وطمعه الكبير في إسلام الناس وانتشار الإسلام جعله يستجيب لهذا الوفد، ويرسل معهم سبعين صحابياً من خيرة أصحابه.

يقول أنس ﷺ «كنا نسميهم القراء، كانوا يقرءون القرآن بالليل ويتدارسونه فيما بينهم ويتعلمون، فإذا أصبحوا جاءوا بالماء فوضعوه بالمسجد واحتطبوا فباعوه واشتروا طعاماً لأهل الصفة والفقراء». فبعثهم النبي ﷺ معهم.

عباد الله! وعندما انتهى القراء إلى «بئر معونة» بعثوا أحدهم -وهو حرام ابن ملحان- إلى عامر بن الطفيل رأس الكفر في تلك البقاع، فأعطاه كتاب النبي ﷺ الذي يدعوه فيه إلى الإسلام، فلم ينظر «عامر» في الكتاب وأمر الكافر رجلاً من أتباعه أن يغدر بحامل الرسالة، فما شعر حرام إلا وطعنةً تخترق ظهره وتنفذ من صدره.

فقال حرام ﷺ: «الله أكبر، فزت ورب الكعبة».

وكأن هذه هي الشهادة التي يتمناها من قديم.

عباد الله! ومضى «عامر» الكافر في جرمه، فاستصرخ أعوانه ليواصلوا العدوان على سائر القوم، فانضمت إليه قبائل «رعل» و «ذكوان» و«عصية» و «بني لحيان» فهجم بهم عامر على القراء.

ورأى هؤلاء الموت مقبلاً عليهم من كل صوب، فهرعوا إلى سيوفهم يدفعون عن أنفسهم دون جدوى، إذ استطاع الكفرة أن يقتلوهم جميعاً غير رجل رقى فكان في رأس جبل، وأتى النبي ﷺ فأخبره الخبر.

فنعاهم لأصحابه فقال: إن إخوانكم قد أصيبوا - أي قتلوا جميعاً -

وإنهم قد سألوا الله عز وجل فقالوا: ربنا بلغ عنا إخواننا بما رضيت عنا ورضينا عنك، فأخبرهم عنهم.

قال أنس: «فقرأنا فيهم قرآناً ثم نسخ: بلغوا عنا قومنا، أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا»[١]

عباد الله! فحزن النبي ﷺ على هؤلاء السبعين القراء حزناً شديداً.

يقول أنس ؓ: «ما رأيتُ رسول الله ﷺ وَجَد - أي حزن - على سرية ما وجد على السبعين الذين أصيبوا يوم بئر معونة وكانوا يُدعَوْنَ القراء، فمكث شهراً يقنت على قتلتهم»[٢].

عباد الله! ومكث النبي ﷺ شهراً يقنت على الكفرة الذين قتلوهم، كلما صلى ورفع رأسه من الركوع رفع يديه، وقال: «اللهم العن رعلاً وذكوان وعصيّة وبني لحيان عصوا الله ورسوله»[٣].

عباد الله! وهكذا فقد المسلمون في شهر واحدٍ ثمانين من خيرة الدعاة، وقبل ذلك بقليل فقد المسلمون سبعين من خيرة الصحابة في غزوة أحد

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٨٠١)، ومسلم (رقم ٦٧٧).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٣٠٠)، ومسلم (رقم ٦٧٧).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٠٠٣)، ومسلم (رقم ١٠٠١).

ولكن كل ذلك في سبيل الله ودعوة الناس إلى هذا الدين، ليتبين لك يا تارك الصلاة كيف وصلك هذا الدين، ليتبين لك يا من تتخلى عن دينك كيف وصلك هذا الدين، وصلك على جماجم الصحابة، قدموا الأرواح والأموال ليوصِّلوا لك هذا الدين وأجرهم عند الله، ليعلم الجميع أن الدعوة إلى الله تحتاج إلى رجال يقدمون الروح والمال رخيصة في سبيل هذا الدين العظيم.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران:١٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة:٢١٤].

عباد الله! أما الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من مأساة يوم الرجيع ومأساة بئر معونة فهي:

أولاً: الغدر والخيانة من أخلاق الكفار واليهود، وليست من أخلاق المسلمين ويظهر ذلك مما فعله المشركون بالصحابة من حادثة يوم الرجيع، وفي حادثة بئر معونة؛ فهذا أكبر دليل على أن المشركين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، أما المسلمون فلا يغدرون ولا يخونون ويظهر ذلك من فعل خبيب بن عدي ﷺ عندما كان سجيناً عند بني الحارث، وتدحرج الغلام الصغير حتى وصل إلى خُبيب فأخذه خبيب ووضعه على فخذه، فلما خافت أم الغلام قال لها خبيب: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله.

ثانياً: إثبات كرامة الأولياء.

- ويظهر ذلك مما حدث لخبيب ﷺ، عندما كان مسجوناً عند بني الحارث

تقول إحدى بنات الحارث: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقهُ اللُه».

- ويظهر ذلك أيضاً مما حدث مع عاصم بن ثابت ﷺ عندما دعا فقال: «اللهم أخبر عنا نبيك» فاستجاب الله لعاصم فأخبر رسول الله ﷺ خبره، وعندما دعا فقال: «اللهم إني أحمي لك اليوم دينك فاحمي لي لحمي»، فاستجاب الله لعاصم، فحمى لحمه من الكفار عندما أرادوا أن يقطعوا رأسه، فأرسل الله مثل الظلة من الدبابير فحمت لحمه من الكفار فلم يقدروا منه على شيء.

فالله يكرم أوليائه بكرامات ولكن الولي لا يخبر بهذه الكرامات ولا يصور نفسه بأفلام الفيديو لتنشر في العالم، فالله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢﴾ [النجم:٣٢].

والله سبحانه وتعالى له أولياء، وللشيطان أولياء فلا بد للمسلم أن يميز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فقد وصف الله تعالى أولياءه فقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

فإذا ظهرت خارقة على يد رجل ما، نظرنا في حاله فإذا كان من المؤمنين الصادقين المتبعين لسنة رسول الله ﷺ فهو من أولياء الرحمن، وإن كان من المشعوذين الدجالين المخالفين لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فهو من أولياء الشيطان.

ثالثاً: جواز الدعاء على الكفرة والمشركين بالعموم، ويؤخذ ذلك من

دعوة خبيب ﷺ على المشركين عندما عزموا على قتله فقال: «اللهم أحصهم عدداً». ويؤخذ أيضاً من فعل النبي ﷺ عندما دعا شهراً كاملاً على الذين قتلوا السبعين من القراء.

رابعاً: الرسول ﷺ لا يعلم الغيب

ويظهر ذلك مما حدث للصحابة من مأساة يوم الرجيع، ومأساة بئر معونة، فلو كان النبي ﷺ يعلم الغيب ويعرف أن ذلك سيحدث لأصحابه ما أرسلهم.

وقد دلت الأدلة من كتاب ربنا على أن الرسل لا يعلمون الغيب إلا ما أعلمهم الله به.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف:١٨٨].

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

خامساً: التمسك بالسنة إلى الموت

ويظهر ذلك من تعظيم الصحابي لسنة النبي ﷺ، وكيف أن خبيباً مع أنه في أسر المشركين، ويعلم أنه سيقتل بين عشية أو ضحاها، ومع ذلك كان حريصاً على سنة الاستحداد واستعار الموسى لذلك، وفي هذا واعظ لمن يستهين بكثير من السنن، بل وكثير من الواجبات بحجة أنه لا ينبغي أن ينشغل المسلمون بذلك للظروف التي تمر بها الأمة، وفي الواقع لا منافاة بين تعظيم السنة والدخول في شرائع الإسلام كافة، والسعي لإقامة شرع الله، والله تعالى يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجعلنا وإياكم من المتمسكين بسنة رسول الله ﷺ.

الخطبة السابعة والثلاثون

غزوة بني المصطِلق (المريسيع)

عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع اللقاء السابع والثلاثين من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون: عن غزوة بني المصطلق.

عباد الله! وبنو المصطلق بطن من قبيلة خزاعة، وكانوا يسكنون قديداً وعُسفان على الطريق من المدينة إلى مكة، وأول موقف عدائي لبني المصطلق من الإسلام كان في إسهامهم واشتراكهم في جيش قريش من غزوة أحد.

عباد الله! وحديثنا عن غزوة بني المصطلق سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: أحداثُ الغزوة.

العنصر الثاني: دور المنافقين الخبيث في هذه الغزوة.

العنصر الثالث: الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من هذه الغزوة.

العنصر الأول: أحداث الغزوة

عباد الله! تجرأت قبيلة بني المصطلق على المسلمين نتيجة لغزوة أُحُدٍ كما تجرأت القبائل الأخرى المحيطة بالمدينة، فأخذت هذه القبيلة برئاسة الحارث بن أبي ضرار تتهيأ وتستعد، بجمع الرجال والسلاح لغزو المدينة لتستأصل المسلمين.

عباد الله! ووصل الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن بني المصطلق جمعوا الجموع لغزو المدينة فبعث ﷺ عيونه يتأكدوا له من صحة هذا الخبر، فأكدوه، فكان لا بدَّ للنبي ﷺ والمسلمين من التحرك السريع نحو هذه

الجموع لتفريقها، وتلقينها درساً قاسياً لا تنساه، ويكون رادعاً لغيرها من القبائل التي تفكر أن تحذو حذوها في حرب الرسول ﷺ وغزو المدينة.

عباد الله! خرج النبي ﷺ بجيش المسلمين إلى بني المصطلق فباغتوهم في ساعة لم يتوقعوها عند بئر يقال له المريسيع، فتفرقوا يميناً وشمالاً وولوا الأدبار، فقتل من قتل منهم، وأُسر من أُسر منهم، وسبى رسول الله ﷺ النساء والذراري، وغنم الأموال دون أية مقاومة تُذكر.

عباد الله! وبهذا لقنَّ النبي ﷺ بني المصطلق، وغيرهم من القبائل المجاورة درساً لا ينسونه، أراهم من نفسه أن به وبالمسلمين قوة قادرة على حماية المدينة، وردّ كل من يريدها بسوء.

عباد الله! ولما عاد الجيش من غزوة بني المصطلق، وفي الطريق إلى المدينة أدركت الجيش القائلة في وادٍ كثير العضاة فنزل رسول الله ﷺ وتفرّق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سَمُرة فعلق بها سيفه ونام الجيش نومة، فجاء أعرابيٌّ مشرك فأخذ سيف رسول الله ﷺ فاخترطه -أي سله وهو في يده- فقال الأعرابيٌّ لرسول الله ﷺ: تخافُني؟ قال ﷺ: «لا».

فقال الأعرابي: فمن يمنعك مني؟ قال ﷺ: «الله - ثلاثاً»، فسقط السيف من يد الأعرابي، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «من يمنعك مني؟» فقال الأعرابي: كن خير آخذٍ.

فقال له ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟».

قال الأعرابي: لا، ولكني أُعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلَّى سبيله، فأتى الأعرابي أصحابه فقال: «جئتكم من عند خير الناس»[١].

---

(١) صحيح: «رياض الصالحين» (رقم ٧٩) تحقيق الألباني.

إنها والله أخلاق النبوة .

عباد الله! لما رجع النبي ﷺ إلى المدينة وقسم سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق في سهم واحدٍ من الصحابة فكاتبتهُ ثم جاءت النبي ﷺ تستعينه على كتابتها، فرأى النبي ﷺ بحسن رأيه. ودقة نظره، أن يُكرمها ويرفع من شأنها وينزلها منزلتها اللائقة بها كبنت ملك أو رئيس قوم، فعرض عليها أن يدفع عنها كتابتها ويتزوجها فوافقت -رضي الله عنها-.

عباد الله! تعالوا بنا لنستمع على عائشة -رضي الله عنها- وهي تخبرنا الخبر.

تقول عائشة -رضي الله عنها-: «لما قسَّم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس بن شماس أو ابن عم له، وكانت امرأةً مُلاّحة تأخذها العين، فجاءت تسأل رسول الله ﷺ في كتابتها، فلما قامت على الباب فرأيتها كرهت مقامها، وعرفت أن رسول الله ﷺ سيرى منها مثل الذي رأيتُ.

فقالت: يا رسول الله! إني جويرية بنت الحارث، وقد كان من أمري ما لا يخفى عليك، وإني وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس فكاتبته علي نفسي، وجئتك يا رسول الله أستعينك على كتابتي.

فقال ﷺ: «أو خيرٌ من ذلك»؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟

قال: «أدفع عنك كتابتك وأتزوجُك» قالت: قد فعلتُ، فما هو أن تزوجها حتى قال أصحاب رسول الله ﷺ: أصهار رسول الله ﷺ تحت أيدينا، فبادروا فأطلقوا سراح السبايا كلهن.

قالت عائشة: فما رأيت امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها، أُعتق بسببها أكثر من مائة أهل بيت من بني المصطلق»[١].

العنصر الثاني: دور المنافقين الخبيث في غزوة بني المصطلق.

عباد الله! لما خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة بني المصطلق، خرج معه نفرٌ من المنافقين فكان خروجهم كما وصفهم الله في كتابه: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾.

وعندما انتصر المسلمون على بني المصطلق، وعند ماء المريسيع كشف المنافقون عن الحقد الذي يضمرونه للإسلام والمسلمين، فكلما كسب الإسلام نصراً جديداً ازدادوا غيظا على غيظهم كما وصفهم الله في كتابه فقال: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝﴾، فعند ماء المريسيع عكّرَ المنافقون هذا النصر بأن أثاروا العصبية الجاهلية بين المهاجرين والأنصار، وأثاروا الفتنة وغرسوا بذور الفرقة في النفوس.

عباد الله! تعالوا بنا لنستمع إلى جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ وهو شاهد عيان يخبرنا الخبر.

يقول ﷺ: «كنا في غزاة -وهي غزوة بني المصطلق- فكسح رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار -أي ضربه برجله- فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين.

فسمع ذلك النبي ﷺ فقال: «مَا بالُ دعوى الجاهلية»؟

---

(١) «صحيح أبي داود» (٣٣٢٧).

قالوا: يا رسول الله ! كسح رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار.

فقال ﷺ: «دعوها فإنها منتنة».

فسمع بذلك عبد الله بن أُبي -زعيم المنافقين- فقال: أو قد فعلوها؟ -يقصد بذلك المهاجرين- أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل -يعني: لعنة الله بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ- فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: دعه يا عمر، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ثم إن المهاجرين كثروا بعد»[1].

عباد الله! والذي بلَّغ رسول الله ﷺ مقالة ابن أبي هو زيد بن الأرقم ﷺ فتعالوا بنا لنستمع إليه وهو يخبرنا الخبر يقول زيدٌ ﷺ: «خرجتُ مع رسول الله ﷺ في غزاة -وهي غزوة بني المصطلق- فقال عبد الله بن أُبي لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

قال زيد: فذكرتُها لعمِّي أو لعمر فذكرها للنبي ﷺ.

فأرسل النبي ﷺ إلى ابن أُبي وأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا فصدقهم وكذَّبني قال زيد: فأصابني همٌّ ما أصابني مثلهُ قط، فجلستُ في بيتي فجاء عميٌّ فقال:

ما أردت إلى أن كذَّبك رسول الله ومقتك؟ فأنزل الله على رسوله ﷺ

---

(١) «صحيح البخاري» (٤/١٤٦، ٦/١٢٨)، و«صحيح مسلم» (٨/١٩).

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون:١-٨].

فدعاني رسول الله ﷺ فقرأها عليَّ ثم قال: «إن الله قد صدَّقك يا زيدُ»(١).

عباد الله! وقد فضح الله هذا المنافق، وضعف مركزه في قومه، فكانوا يعنفونه ويلومونه كلما أخطأ.

فهذا ابنه -الصحابي الجليل- عبد الله بنُ عبد الله بن أُبي استأذن رسول الله ﷺ في قتل أبيه، فنهاه النبي ﷺ فقال له: «لا، ولكن بر أباك وأحسن صحبته»(٢).

فداك أبي وأمي يا رسول الله، إنها أخلاق النبوة.

عباد الله! ومنع هذا الابن المؤمن أباه المنافق من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله ﷺ بدخولها، وقال له: لتعلم أنك الذليل وأن رسول الله ﷺ هو العزيز.

عباد الله! ولما فشل المنافقون بزعامة ابن سلول في إثارة العصبية الجاهلية

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٩٠٠)، ومسلم (رقم ٢٧٧٢).
(٢) «السيرة النبوية الصحيحة» العمري (٢/ ٤١٠).

بين المهاجرين والأنصار، سعوا إلى إيذاء الرسول ﷺ في نفسه وأهل بيته، فشنوا حرباً نفسية مريرة من خلال حادثة الإفك التي اختلقوها.

عباد الله! ما هو الإفك؟ ومن الذي تولى نشره بين الناس؟

ومن التي اتهموها بهذا الإفك؟ هذا الذي نعرفه في الجمعة القادمة - إن شاء الله تعالى-.

العنصر الثالث: الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ مما حدث في غزوة بني المصطلق:

أولاً: على الدعاة إلى الله أن يتخلقوا بأخلاق النبي ﷺ في دعوتهم؛ استجابةً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

فرسول الله ﷺ كان يعفو عن الجاهلين، ولا ينتصر لنفسه أبداً ولا يغضب لها ويظهر ذلك:

١-من معاملته ﷺ مع الأعرابي عندما أراد أن يقتل رسول الله ﷺ، فقال له من يمنعك مني؟ فقال له رسول الله: «الله - ثلاثاً..»، فوقع السيف، وأخذه رسول الله فقال له: «من يمنعك مني..» فعندما خلى سبيله رجع الأعرابي إلى قومه يقول: جئتكم من عند خير الناس.

٢-ومن معاملته ﷺ مع ابن سلول زعيم المنافقين بعدما قال ما قال، وأراد ابنه المؤمن أن يقتل أباه فقال له ﷺ: «لا، ولكن بر أباك وأحسن صحبته».

ثانياً: الأسماء الشريفة المشروعة إذا قُصد بها تفريق المسلمين وتفتيت جماعتهم، تصير من دعوى الجاهلية، وهي مُنتنةٌ كما أخبر النبي ﷺ، فمع أن اسم المهاجرين واسم الأنصار من الأسماء الشريفة التي تدل على شرف

أصحابها، وقد سماهم الله -عز وجل- بهذه الأسماء على سبيل المدح لهم فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.

إلا أن هذه الأسماء لما استعملت الاستعمال الخاطئ لتفريق المسلمين وإحياء العصبيات الجاهلية أنكر ذلك رسول الله ﷺ وقال: «دعوها فإنها منتنة».

ومن هنا أقول: من المشروع ولا بأس في ذلك ولا حرج أن يقول الإنسان أنا عراقي أو مصري أو فلسطين أو أردني، ولكن إذا استعملت هذه الأسماء في العصبية والحمية التي تفرق المسلمين فهي من دعوى الجاهلية وهي منتنة.

ثالثاً: العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، والذل والهوان للكفرة والمشركين والمنافقين.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون:٨]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

فعندما أراد ابن سلول -زعيم المنافقين- أن يُعز نفسه بمعصية الله؛ أذلة الله وفضحه، كما حدث في غزوة بني المصطلق. فالعزة بالإسلام.

رابعاً: المفسدة الكبرى تُدفع بالمفسدة الصغرى

ويؤخذ ذلك مما حدث في غزوة بني المصطلق عندما قال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال له ﷺ: «دعه يا عمر، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه».

اللهم فقهنا في ديننا.

الخطبة الثامنة والثلاثون

حديث الإفك

عباد الله! في الجمعة الماضية تكلمنا عن غزوة بني المصطلق، وتبين لنا دور المنافقين الخبيث في تلك الغزوة، فقد حاولوا إثارة العصبية الجاهلية بين المهاجرين والأنصار ولكنَّ الله سلَّم.

وقال زعيمهم عبد الله بن أُبي بن سلول لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله.

وقال أيضاً: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وقد فضحه الله -عز وجل-، وأنزل في فضيحته قرآناً يتلى إلى يوم القيامة.

عباد الله! ولم يتوقف هذا المنافق ومَنْ معه من المنافقين إلى هذا الحد من الاعتداء والمكر، ولكنهم سَعوا إلى إيذاء الرسول ﷺ في نفسه وأهل بيته، فشنوا حرباً نفسية مريرة من خلال حادثة الإفك التي اختلقوها وليس لها أساس من الصحة.

عباد الله! ما هو الإفك؟ ومَنْ الذي اختلقه وتولى نشره بين الناس في غزوة بني المصطلق، وبعد الرجوع إلى المدينة؟

ومن هي البريئة التي رميت بهذا الإفك عدواً وظلماً؟

وكيف عاش الرسول ﷺ والمسلمون في المدينة شهراً كاملاً على أعصابهم بسبب هذا الإفك؟

وكيف برأ الله تعالى أم المؤمنين مِنْ فوق سبع سماوات، فأنزل فيها قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة؟

عباد الله! تعالوا بنا إلى أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- لنستمع لها وهي تخبرنا الخبر؛ عائشة -رضي الله عنها- أتعرفونها؟ هي الصديقة بنت الصديق، التي تربت في بيت أبي بكر الصديق، ثم انتقلت وهي طفلة إلى بيت رسول الله ﷺ ولم تعرف الشرّ.

عائشة -رضي الله عنها- التي قال ﷺ فيها: «أحب الناس إليَّ عائشةُ ومن الرجال أبوها».

عائشة -رضي الله عنها- التي قال ﷺ فيها: «إن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

عائشة -رضي الله عنها- التي قال ﷺ فيها: «عائشة زوجتي في الجنة».

عائشة -رضي الله عنها- التي قال لها رسول الله ﷺ: «يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام».

ثم بعد ذلك، تأتي الرافضة والشيعة الشنيعة، يتهمون أم المؤمنين عائشة بالفاحشة، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

عباد الله! روى الإمامُ البخاري في «صحيحه» والإمام مسلمٌ في «صحيحه» أن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين نسائهِ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه».

قالت -رضي الله عنها-: «فأقرع بيننا في غزوة غزاها» -وهي غزوة بني المصطلق- فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعد ما أُنزل الحجاب فأنا أُحملُ في هودجي، وأنزل فيه مسيرنا».

قالت -رضي الله عنها-: «حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه وقفل»

-أي: رجع- «ودنونا من المدينة آذن ليلةً بالرَّحيل، فقمت حين آذنوا بالرَّحيل، فمشيتُ حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرَّحلِ فلمستُ صدري فإذا عِقدي -من جزع أظفار- قد انقطع، فرجعت فالتمستُ عِقدي فحبسني ابتغاؤه» -أي: تأخرت وأنا ابحث عن عقدي-.

قالت: رضي الله عنها-: «وأقبل الرهطُ الذين كانوا يرحلون لي فحملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركبُ وهم يحسبون أني فيه، وكانت النساء إذا ذاك خِفافاً لم يغشهنَّ اللحم، فلم يستنكر القوم ثِقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السنِّ فبعثوا الجمل وساروا».

قالت -رضي الله عنها-: «ووجدت عِقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إليَّ».

قالت -رضي الله عنها-: «فبينما أنا جالسةٌ في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السُّلمي، قد عرّسَ مِن وراء الجيش» -أي: تأخر- «فأدّلج» -أي: جاء في آخر الليل- «فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يُضرب الحجابُ عليَّ».

قالت -رضي الله عنها-: «فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني» -أي: انتبهت من نومي على قوله «إنا لله وإنا إليه راجعون»- «فخمرتُ وجهي بجلبابي، ووالله ما يُكلمني كلمة، ولا سمعتُ منه كلمة غير استرجاعهِ، حتى أناخ راحلتهُ .. فركبتُها، فانطلق يقود بي الرَّاحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا مُوغرين في نحر الظهيرة» -أي: نزلوا في شدة الحر- «فهلك من هلك

في شأني وكان الذي تولى كِبَرهُ عبد الله بن أُبي ابن سلول».

عباد الله! عاد الجيش من غزوة بني المصطلق إلى المدينة، وفي المدينة أخذ المنافقون يتكلمون بهذا الإفك هنا وهناك -وهذه هي البيئة التي يترعرع فيها النفاق- تقول -رضي الله عنها-: «فقدمنا المدينة فاشتكيتُ» -أي: مرضت- «حين قدمنا المدينة شهراً، والناسُ يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو -أي والذي- يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسُلِّم ثم يقول: «كيف تيكم» فذاك يريبني، ولا أشعر بالشرِّ.

تقول -رضي الله عنها-: «حتى خرجت بعد ما نقهت وخرجتْ معي أم مسطح قِبلَ المناصع، وهو متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا .. فأقبلتُ أنا وأم مسطح قِبلَ بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مِرطها فقالت: تعس مِسطح. فقلتُ لها: بئس ما قلت أتسبين رجلاً قد شهد بدراً، قالت: أي هنتاهُ -أي يا مسكينة- أو لم تسمعي ما قال؟ قلتُ: وماذا قال؟

قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددتُ مرضاً إلى مرضي»

تقول -رضي الله عنها-: «فلما رجعت إلى بيتي، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فسلّم ثم قال: «كيف تيكم» قلتُ: أتأذِنُ لي أن آتي أبويَّ؟

قالت: وأنا حينئذ أُريد أن أتيقن الخبر من قِبلَهما، فأذن لي رسول الله ﷺ تقول -رضي الله عنها-: فجئت أبويَّ فقلت لأمي: يا أُمَّتاهُ ! ما يتحدث الناس؟

فقالت: يا بنيةُ هوِّني عليك. فو الله ! لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا كثَّرن عليها -أي الكلام- قالت: قلتُ: سبحان

الله ! وقد تحدث الناس بهذا؟

قالت: «فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع» -أي لا ينقطع- «ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي».

عباد الله! أبطأ الوحي في النزول؛ والرسول ﷺ يتألم مما يسمعُ من كلام الناس، فدعا بعض أصحابه يستشيرهما في فِراق أهله.

تقول -رضي الله عنها-: «ودعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالبٍ وأسامة بن زيد حين استلبث الوحيُّ -أي أبطأ ولم ينزل- يستشيرُهما في فراق أهله».

قالت: فأمَّا أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلمُ في نفسه لهم من الوُدِّ.

فقال: يا رسول الله! همُ أهلك ولا نعلمُ إلا خيراً.

وأمَّا عليُ بن أبي طالب فقال: لم يُضيق اللهُ عليك، والنساء سواهما كثيرٌ، وإن تسأل الجارية تصدُقك.

فدعا رسول الله ﷺ الجارية فقال لها: هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟

فقالت الجارية: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قطُّ أغمصه عليها -أي أعيبها به- أكثر من أنها جارية حديثة السنِّ، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الدَّاجن فتأكله».

تقول -رضي الله عنها-: «فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين! من يعذرني من رجل قد بلغ أذاهُ في أهل بيتي -يقصد عبد الله بن أبي ابن سلول- فوالله، ما علمتُ على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما

علمتُ عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي».

فقام سعد بن معاذ فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله! إن كان من الأوس ضربنا عنقه. وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

تقول: فقام سعد بن عبادة -وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن اجتهلتهُ الحمية- فقال لسعد بن معاذ: كذبت، لعمرُ الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله، فقام أُسيد بنُ حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت، لعمرُ الله! لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيَّان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر. فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت».

عباد الله! عائشة -رضي الله عنها- ازدادت حزناً على حزنها وألماً على ألمها.

تقول -رضي الله عنها-: «وبكيتُ يومي ذلك. لا يرقأ لي دمعٌ -أي لا ينقطع- ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمعٌ ولا أكتحل بنوم، وأبوايَّ يظنان أن البكاء فالقٌ كبدي، فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي، استأذنت عليَّ امرأة من الأنصار فأذنتُ لها، فجلست تبكي.

تقول -رضي الله عنها-: «فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلَم ثم جلس. ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء».

تقول -رضي الله عنها-: «فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أما بعدُ: يا عائشة فإنهُ قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرِّئك اللهُ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف

بذنبه ثم تاب تاب الله عليه».

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي -أي: ارتفع -أي: جف- حتى ما أحِسُ منه قطره -وهذه الحالة من الحزن والألم شبيه بالموت-، فقلتُ لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال.

فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ.

فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

تقول -رضي الله عنها-: «وأنا جارية حديثة السِّنِّ لا أقرأ كثيراً من القرآن»

فقلت: إني والله لقد عرفتُ أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به، فإن قلت لكم إني بريئة -والله يعلم أني بريئة- لا تُصدِّقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، -والله يعلم أني بريئة- لتصدُّقوني، وإني والله ما أجدُ لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

استعانت -رضي الله عنها- بالله على أمرها بعد أن انقطعت النصرة من أهل الأرض.

عباد الله! وجاء الفرج بعد الكرب.

تقول -رضي الله عنها-: «ثم تحولتُ فاضطجعت على فراشي وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مُبَرِّئي ببراءتي، ولكن والله ما كنتُ أظن أن ينزل في شأني وحيٌ يُتلى، ولشأني كان أحقرُ في نفسي من أن يتكلم الله -عز وجل- فيَّ بأمر يُتلى. ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في

النوم رُؤيا يُبرِّئني الله بها».

تقول -رضي الله عنها-: «فوالله ما رام -أي فارق- رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحدٌ حتى أنزل الله -عز وجل- على نبيه ﷺ، فأخذه ما كان يأخذه من البرُحاء -أي الشدة- عند الوحي حتى إنه ليتحدَّرُ منه مِثلُ الجُمان -أي مثل حبات اللؤلؤ- من العرق في اليوم الشات من ثقل القول الذي أنزل عليه».

تقول -رضي الله عنها-: «فلما سُرِّي -أي كُشِفَ- عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة! أما اللهُ فقد برَّأك».

تقول -رضي الله عنها-: «فقالت ليَ أمي: قومي إلى رسول الله ﷺ».

فقلتُ: والله لا أقوم إليه، ولا أحمدُ إلا الله، هو الذي أنزل براءتي، تقول -رضي الله عنها-: فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ..﴾.

تقول -رضي الله عنها-: «فلما نزلت براءتي قال أبو بكر -وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره-: والله! لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً وقد قال في عائشة ما قال، فأنزل الله -عز وجل-: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحبُ أن يغفر الله لي، فرجَّع إلى مسطح ما كان ينفقه عليه وقال: والله لا أقطع عنه النفقة بعد ذلك[1].

---

(١) رواه البخاري (رقم ٢٦٦١)، ومسلم (رقم ٢٧٧٠).

عباد الله! بسبب كلمة واحدة تلفظ بها منافق حاقد بين الناس ولاكتها الألسن، عاش رسول الله ﷺ وأهل بيته، وأبو بكر وأهل بيته والمسلمون كلهم شهراً كاملاً في غم وهم وحزن .. ولذلك أنزل الله -عز وجل- الآيات يؤدب فيها المسلمين ويعلمهم كيف يتعاملوا مع الشائعات، وهذا هو الذي نعرفه في الجمعة القادمة -إن شاء الله تعالى-

اللهم رد المسلمين إلى دينهم رداً جميلاً.

الخطبة التاسعة والثلاثون

الدروس والعظات والعبر والآداب التي تؤخذ من حديث الإفك

أيها الإخوة **عباد الله!** موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن الدروس، والعظات، والعبر، والآداب التي تؤخذ من حديث الإفك.

عباد الله! في الجمعة الماضية تكلمنا عن حديث الإفك، وتبين لنا أن الذي اختلقه ونشره بين الناس في غزوة بني المصطلق؛ هو زعيم المنافقين عبد الله بن أُبي ابن سلول، وانتشر هذا الإفك بين الناس في المدينة، وعاش الرسول ﷺ والمسلمون في المدينة شهراً كاملاً في همٍ وغمٍ وحزنٍ، وتأخر الوحيُ عن رسول الله ﷺ شهراً كاملاً.

والتي اتهمت بهذا الإفك هي أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وأنزل الله براءتها من فوق سبع سماوات قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة.

عباد الله! تعالوا بنا لنستمع إلى الآيات التي نزلت في سورة النور فيها براءةُ أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- لنأخذ منها الدروس والعظات والعبر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ

فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النور:١١-٢٦].

هذه الآيات التي نزلت على الرسول ﷺ بعد أن عاش ﷺ وعائشة وأبو بكر والمسلمون شهراً كاملاً على أعصابهم في هم وغم وحزن.

عباد الله! أما الدروس والعظات والعبر والآداب التي تؤخذ من هذه الآيات فهي:

أولاً: الصبر على الإشاعات الكاذبة التي يشُنُّها أعداء الإسلام على الإسلام والمسلمين.

عباد الله! أعداءُ الإسلام في كل زمان ومكان يشنون حرباً إعلامية على الإسلام والمسلمين ليشوهوا صورة الإسلام والمسلمين في العالم، قال تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران:١٨٦].

فعلى المسلمين أن يقابلوا ذلك بالصبر والإيمان، والاستعانة بالله -عز وجل- كما فعلت عائشة -رضي الله عنها- عندما افترى عليها زعيم المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول فقالت -رضي الله عنها-: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ فيا أمة الإسلام: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:١٢٨].

يا أمة الإسلام! اصبروا واتقوا الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف:١٢٩].

عباد الله! صَبَرَ الرسول ﷺ وعائشة -رضي الله عنها- وأبو بكر ﷺ والمسلمون في المدينة على إفك المنافقين فكان خيراً لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾.

ثانياً: إحسان الظنّ بالمؤمنين

عباد الله! إذا سمع المؤمن حرباً إعلامية على أحد من المؤمنين، فيجب عليه أن يُحسن الظن بأخيه المؤمن، كما أنه يحُسن الظن بنفسه، استجابة لقوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، واستجابة لقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

عباد الله! وهذا ما فعلته أمُ مسطح -رضي الله عنها- عندما كذَّبت الخبر وردّته، بل ودعت على ولدها عندما قالت: تعس مسطح -أي هلك- وهي بذلك أحسنت الظنَّ بعائشة -رضي الله عنها- وأعلنت لربها أنها لا توالي من عادى أولياءه، ولو كان ذا قربى إلا أن يتوب إلى الله كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢]

وهذا الذي فعلته زينب بنت جحش -رضي الله عنها- عندما سألها رسول الله ﷺ عن عائشة -رضي الله عنها- فقالت: يا رسول الله أحمى سمعي وبصري، ما رأيت إلا خيراً، وما سمعت إلا خيراً، والله ما علمت إلا خيراً»[2].

وهذا الذي فعله أسامة بن زيد ﷺ عندما استشاره النبي ﷺ في فِراق أهله فقال أسامة ﷺ: يا رسول الله! هم أهلك ولا نعلم! إلا خيراً وشهد لرسول الله ﷺ ببراءة أهله.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٣)، ومسلم (رقم ٤٥).

(٢) متفق عليه، وهو قطعة من حديث الإفك، تقدم تخريجه.

وهذا الذي فعله أبـو أيـوب الأنصـاري ﷺ عندمـا قـالت لـه زوجتـه أم أيوب: يا أبا أيوب أتسمع هذا الذي يقوله الناس في عائشة؟ قال أبو أيوب: نعم، وإنه والله الكذب، أكنت فاعلة ذلك يـا أم أيـوب؟ قـالت: لا والله مـا كنت لأفعله، فقال لها أبو أيوب: وعائشة والله خيرٌ منكِ[1].

فالواجب على المسلمين في كل مكان؛ إذا سمعوا أحداً من النـاس ينقـل إشاعة عن أحد من المسلمين، أن يُحسنوا الظن بأخيهم المسلم، وأن يُدَافعوا عنه في غيابه يقول ﷺ: «من ذبَّ عن عِرض أخيه بالغيبة، كان حقاً على الله أن يعتقه من النار»[2].

ويقول ﷺ: «مـن ردَّ عـن عـرض أخيـه، ردَّ الله عـن وجهـه النـار يـوم القيامة»[3].

ولذلك أدب الله المسلمين الذين نقلوا الإفك وتكلموا به.

فقـال تعـالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝١٢﴾.

ثالثاً: التثبـت مـن الأخبـار وإمسـاك اللسـان عـن الخـوض في أعـراض المسلمين.

عباد الله! يجب على المسلم إذا سمع خبراً أن يتثبت من صحتـه، ويفكـر فيه قبل أن يتكلم به ويقوم بنقله بين الناس. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

---

(١) ابن كثير (٣/ ٢٧٣).
(٢) صحيح الجامع (٦١١٦).
(٣) صحيح الجامع (٦١٣٨).

﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ وفي قراءة (فتثبتوا) لماذا نتبين ونتثبت؟ قال تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾.

ولذلك قال تعالى في الذين نقلوا الإفك هنا وهناك، ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

لو أن الذي سمع هذا الإفك من ابن سلول أول ما سمع فقال له: لابد أن تأتي على ما تقول بأربعة شهداء على هذا الافتراء، فما استطاع ابن سلول أن يأتي بأربعة شهداء لأنه يعلم أنه كذَّاب فإذا لم يأت ابن سلول بأربعة شهداء لبقى هذا الإفك في صدره، ولم ينتشر أبداً بين الناس ولكن عندما سمعوا وتكلموا قبل أن يتبينوا فانتشر الإفك بين المنافقين، حتى أنه تكلم به بعضُ المؤمنين الصادقين ولذلك يقول الله -عز وجل- للمؤمنين الصادقين الذين تكلموا بهذا الإفك: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

فمن أراد النجاة فعليه بوصية رسول الله ﷺ، قال ﷺ للرجل: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»[1].

رابعاً: لا تتبعوا خطوات الشيطان

عباد الله! الذين يروجون الإشاعات الكاذبة على المسلمين هم شياطين الأنس والجن، فحذر ربنا -جل وعلا- عبادة المؤمنين من خطوات

(١) رياض الصالحين (رقم ١٥٢٨) بتحقيق الألباني.

الشيطان، لأن الشيطان يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، ولأن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، ولأن الشيطان يأمر بالكفر والضلال.

ولذلك قال تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾.

خامساً: أن تُحسِنَ إلى من أساء إليك، وبذلك تنتصر عليه، وهذا ما فعله أبو بكر ﷺ مع مسطح، تقول عائشة -رضي الله عنها-: «فلما نزلت براءتي قال أبو بكر -وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره-: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً؛ وقد قال في عائشة ما قال، فأنزل الله -عز وجل-: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾، فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فأرجعَ إلى مسطح ما كان ينفقه عليه وقال: والله لا أقطع عنه النفقة بعد ذلك»[1].

عباد الله! يحذر ربنا -جل وعلا- الذين يخوضون بألسنتهم في أعراض المؤمنين بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا إمَّا بالإعلام، وإمَّا بالدعوة إلى التبرج والسفور والزنا والإشاعات الكاذبة، لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة.

---

(١) هو قطعة من حديث الإفك، وقد تقدم تخريجه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

عن أنس ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون مم أضحك؟» قلنا اللهُ ورسوله أعلم.

قال: «من مخاطبة العبد ربه فيقول ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى.

فيقول: فإني لا أجيز اليوم على نفسي شاهداً إلا مني، فيقول الله تعالى: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، قال: فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله ثم يُخلي بينه وبين الكلام فيقول -أي لأركانه- بُعداً لكنَّ وسحقاً، فعنكن كنت أناضل»[1]، أي: فكيف شهدتم علي.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [فصلت:١٩-٢٤].

---

(١) رواه مسلم (رقم ٢٩٦٩).

فاتقوا الله عباد الله في ألسنتكم، وإذا أردتم النجاة فعليكم بهذه الوصية من رسول الله ﷺ.

ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»[1].

فيا مروِّجاً للإشاعات، ويا مختلقاً للإفك، ويا طاعناً في أعراض المسلمين! أمسك عليك لسانك وإلا فالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

اللهم رد المسلمين إلى دينك رداً جميلاً.

---

(١) مضى قريباً

الخطبة الأربعون

غزوة الأحزاب (الخندق)

أيها الإخوة **عباد الله!** موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع اللقاء الأربعين من سيرة سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن غزوة الأحزاب (الخندق).

عباد الله! غزوة الأحزاب لم تكن معركة خسائر بل كانت معركة أعصاب، فقتلى الفريقين من المؤمنين والكافرين يعدون على الأصابع ومع ذلك فهي من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام.

فالأحزابُ الذين اجتمعوا على حرب الإسلام والمسلمين في تلك الغزوة هم:

- المشركون من أهل مكة.
- المشركون من قبائل العرب جميعاً.
- اليهود من خارج المدينة (يهود خيبر).
- اليهود من داخل المدينة (يهود بني قريظة).
- المنافقون.

اجتمعوا وتحزبوا لاستئصال المسلمين من المدينة.

عباد الله! وحديثنا عن غزوة الأحزاب سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

العنصر الثاني: الرسول ﷺ والصحابة -رضي الله عنهم- في المدينة يستعدون لملاقاة الأعداء.

العنصر الثالث: مواقف المؤمنين ومواقف المنافقين

العنصر الرابع: شدةٌ وكربٌ وبلاءٌ يعقبها نصرٌ وفرجٌ.

العنصر الخامس: الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من غزوة الأحزاب.

العنصر الأول: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

أعداء الإسلام قديماً وحديثاً يمكرون بالإسلام والمسلمين بالليل والنهار، كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل:٥٠-٥٢]

أمة الإسلام! أين عادٌ الذين مكروا بنبيهم؟ أين ثمود الذين مكروا بنبيهم؟ أين قوم نوح الذين مكروا بنبيهم؟! أين فرعون الذي مكر بموسى؟ أين هم؟ ذهبوا فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا.

عباد الله! وأساتذة المكر والغدر والخيانة ونقض العهود وإشعال الحروب هم اليهود -عليهم لعنة الله-

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنفال:٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة:١٠٠]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة:٦٤].

عباد الله! فها هم اليهود قديماً، خرج وفدٌ منهم من خيبر إلى كفار مكة يحرِّضونهم ويؤلبونهم على غزو رسول الله ﷺ، ووعدوُهم من أنفسهم بالنصر لهم، بل وشهدوا لهم بأنَّ الشرك الذي هم عليه خيرٌ من الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، وشهدوا لهم أيضاً بأنهم أهدى من محمد ﷺ وأصحابه وفيهم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء:٥١].

فأجابهم أبو سفيان لذلك، ثم انطلقوا إلى القبائل المجاورة ودعوهم إلى ما دعوا قريشاً إليه، فأجابتهم القبائل العربية أيضاً، وتواعدوا على المسير إلى المدينة، واجتمع بهذا التحريض -من اليهود- جيش قوامُهُ نحو عشرة آلاف مقاتل وذلك لاستئصال المسلمين في المدينة.

عباد الله! العنصر الثاني: الرسول ﷺ والصحابة -رضي الله عنهم- في المدينة يستعدون لملاقات العدو:

لما وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ بخروج هذا الجيش الكبير إلى المدينة، عقد مجلساً استشارياً مع أصحابه الكرام -رضي الله عنهم- ليشاورهم في خطة الدفاع عن المدينة فأشار عليه بعض الصحابة وهو سلمان الفارسي رضي الله عنه

بحفر خندق من الجهة الشمالية للمدينة، لأن هذه الجهة هي الجهة الوحيدة التي يستطيع العدو أن يدخل إلى المدينة منها، فإن المدينة تقع بين حرتين من جهة الشرق والغرب يعجز العدو أن يدخل من جهتهما، وأما جهة الجنوب ففيها مساكن يهود بني قريظة وبينهم وبين رسول الله ﷺ عهداً وميثاقاً على أن لا يدخل عدو من ناحيتهم.

عباد الله! وحفر الخندق مكيدة حربية -لم تكن العرب تعرفها من قبل- والحرب خدعة ولذلك أمر رسول الله ﷺ بحفر الخندق واستجاب الصحابة -رضي الله عنهم- لأمر رسول الله ﷺ وقاموا جميعاً بتنفيذ الأمر على الفور وبسرعة قبل وصول العدو.

عباد الله! وخرج رسول الله ﷺ إلى أصحابه ليحفر معهم في هذا الخندق، فوصل إليهم وهم يحفرون في غداةٍ باردة، وكان الوقت وقت شتاء وكان البردُ شديداً جداً، وكان الزمان زمان قحطٍ، فلما رأى ﷺ ما بهم من التعب والجوع دعا لهم فقال:

«اللهم إن العيشَ عيشُ الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة»

فقالوا مجيبين له:

«نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً»[1]

عباد الله! وأخذ ﷺ يعمل مع أصحابه في حفر الخندق؛ يحفر بيده وينقل التراب بنفسه، حتى أغبر بطنه من شدة التراب.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٨٣٤)، ومسلم (رقم ١٨٠٥).

يقول البراء بن عازب ﷺ: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه، وكان كثير الشعر فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلنّ سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأُولى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

ثم يقول: «أبينا أبينا» ويمد بها صوته(١).

عباد الله! الرسول ﷺ يحفر بنفسه في الخندق مع أصحابه، والصحابة - رضي الله عنهم - يحفرون في الخندق هنا وهناك، وإذا بصخرة عظيمة تقابلهم فعجزوا عنها، فلجأوا إلى رسول الله ﷺ فقال لهم: «إني نازل» فخلع ثيابه ثم هبط إليها.

عباد الله! تعالوا بنا لنستمع إلى البراء بن عازب ﷺ وهو يخبرنا الخبر يقول ﷺ: «أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق وعرض لنا صخرة في مكان من الخندق، لا تأخذ فيها المعاول قال: فشكوها إلى رسول الله ﷺ فجاء رسول الله ﷺ فوضع ثوبه ثم هبط إلى الصخرة، فأخذ المعول فقال: «باسم الله». فضرب ضربة، فكسر ثلث الحجر، وقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها من مكاني هذا».

ثم قال: «بسم الله» وضرب أخرى، فكسر ثلث الحجر.

فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن وأُبصِرُ

---

(١) رواه البخاري (رقم ٣٠٣٤).

قصرها الأبيض من مكاني هذا» ثم قال: «بسم الله» وضرب ضربة أُخرى، فقلع بقية الحجر فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأُبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا»[١].

عباد الله! وهكذا يبشر رسول الله ﷺ أصحابه بفتح هذه البلدان، وهم يُعانون من شدة الجوع والبرد، فرفع ذلك من روحهم المعنوية، فانطلقوا يعملون بجد ونشاط في حفر الخندق وهم يربطون الحجارة على بطونهم من شدة الجوع وهذا من أعلام نبوته ﷺ.

عباد الله! ومن معجزاته ﷺ في حفر الخندق أيضاً زيادة الطعام بين يديه ﷺ، تعالوا بنا لنستمع إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنه وهو يخبرنا الخبر.

يقول رضي الله عنه: «إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كُدَية شديدة -أي صخرة- فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال ﷺ: «أنا نازل». ثم قام وبطنه معصوب بحجر -ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً- فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب -أي الصخرة- فعاد كثيباً أهيل أو أهيم -أي صارت الصخرة رملاً سائلاً-

فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت.

فقلت لامرأتي: رأيتُ من النبي ﷺ شيئاً، ما كان لي في ذلك صبر فعندك شيءٌ؟

قالت: عندي شعيرٌ وعَنَاقٌ -والعناقُ أنثى المعز-

يقول: فذبحت العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرُمة

---

(١) قال الألباني: «إسناده حسن» انظر «فقه السيرة» (ص٢٩٧).

-وهي القدر من الحجر- ثم جئتُ النبيَّ ﷺ والعجينُ قد انكسر والبرمةُ بين الأثافيِّ قد كادت أن تنضج. فقلت: طُعَيِّمٌ لي فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان.

قال ﷺ: «كم هو؟» فذكرتُ له قال ﷺ: «كثيرٌ طيبٌ».

قال ﷺ: «قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي».

فقال ﷺ: «قوموا»، فقام المهاجرون والأنصار وهم ألفٌ.

فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم.

قالت: الله ورسوله أعلم.

فقال ﷺ: «ادخلوا ولا تضاغطوا -أي لا تزدحموا-».

فجعل ﷺ: يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم -ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه- ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية فقال ﷺ: «كُلي هذا وأهدى فإن الناس أصابتهم مجاعة»[١].

عباد الله! ومن الأحداث التي حدثت في حفر الخندق أيضاً.

يقول أبو سعيد الخدري ﷺ: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق، وفينا فتىً حديثُ عهد بعرس، فجعل يستأذن رسول الله ﷺ أثناء النهار ليرجع لأهله، فاستأذنه يوماً، فقال له رسول الله ﷺ: «خذ عليك سلاحك، فإني

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤١٠١، ٤١٠٢)، ومسلم (رقم ٢٠٣٩).

أخاف عليك قريظة» فأخذ سلاحه ورجع فإذا امرأتهُ قائمة بين البابين فأصابته الغيرة فأهوى إليها بالرمح ليطعنها فقال: اكفف عليك رمحك، وادخل الدار فانظر ما الذي أخرجني، فدخل الدار فإذا حية عظيمة منطوية على الفراش فأهوى إليها بالرمح -أي ضربها- ثم خرج فركز رمحه في الدار، فعدت عليه الحية فلم ندر أيهما أسرع موتاً الحية أم الفتى؟! فجئنا رسول الله ﷺ فأخبرناه.. فقال: «استغفروا لصاحبكم» ثم قال ﷺ: «إن بالمدينة جنّاً قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان»(١).

العنصر الثالث: مواقف المؤمنين ومواقف المنافقين.

عباد الله! انتهى الرسول ﷺ والمسلمون من حفر الخندق قبل وصول الأعداء، وأخذ رسول الله ﷺ يستعد لملاقاة الأعداء فوضع النبي ﷺ النساء والأطفال في حصنٍ هو من أقوى حصون المسلمين حفاظاً عليهم، ورتب النبي ﷺ الجيش، فأسند ظهرهم إلى سَلعٍ، وجعل وجوههم إلى الخندق الذي يفصل بينهم وبين العدو.

عباد الله! وها هو جيش العدو في طريقة إلى المدينة يريد أن يقضى على محمد ﷺ وأصحابه لتستريح اليهود ولتستريح قريش وهيهات هيهات.

عباد الله! وصل جيش الكفر إلى المدينة في عشرة آلاف مقاتل، فلما وصل الجيش إلى الخندق فوجئ برؤية الخندق، وأخذ الجيش بقيادة أبي سفيان يتحرك هنا وهناك يفكر في كيفية اقتحام الخندق، وكلما هموا بذلك

---

(١) رواه مسلم (رقم ٢٢٣٦).

أمطرهم المسلمون بالسهام.

عباد الله! النبي ﷺ مع جيش الإسلام في ثلاثة آلاف مقاتل، الخندق أمامهم والجبل خلف ظهورهم، وفي الجانب الآخر للخندق جيش الكفر بقيادة أبي سفيان في عشرة آلاف مقاتل، واليهود يغدرون.

يقول بعض العلماء: لو تركت الكلابِ نبَاحها وتركت الحميرُ نهيقها؛ لتركت اليهود غدرها.

عباد الله! هجمات الكفار لم تنقطع؛ وجيش الإسلام لهم بالمرصاد حتى إن الرسول ﷺ والمسلمين لم يتمكنوا من أداء صلاة العصر في أحدِ الأيام في وقتها بل صلوها بعد ما غربت الشمس ولم تكن صلاة الخوف قد شرعت بعد، يقول عمر ﷺ: يا رسول الله ما صليت العصر حتى كادت الشمس أن تغرب.

فقال ﷺ: «فوالله إن صليتها»[1].

ثم دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب الذين شغلوهم عن صلاة العصر.

فقال: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً»[2].

عباد الله! تعالوا بنا لننظر إلى الظروف الصعبة التي تحيط بأرض المعركة.

أولاً: أعداد الكفار كبيرة جداً بلغت عشرة آلاف مقاتل تحيط بالمدينة.

---

(١) رواه مسلم (رقم ٦٣١).
(٢) رواه مسلم (رقم ٦٢٧).

ثانياً: جوع شديد وبردٌ قارص.

ثالثاً: وصلت الأخبار أن يهود بني قريظة غدروا بالمسلمين؛ فنقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ليضربوا المسلمين من الخلف تعاوناً مع جيش الكفر.

رابعاً: ترك المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ أرض المعركة بحجج واهيةٍ زاعمين أن بيوتهم مكشوفة للأعداء، وإنما هم يريدون الفرار من المعركة.

خامساً: أخذ بعض المنافقين والذين في قلوبهم مرض؛ يدعون غيرهم لترك أرض المعركة والرجوع إلى بيوتهم وأهليهم، بحجة أنه لا قِبَلَ لكم بعدد الكفار.

سادساً: طال الحصار واشتد من الكفار للمدينة شهراً كاملاً.

عباد الله! والله -عز وجل- يخبرنا بهذه الظروف الصعبة على المسلمين، ويصورها لنا فيقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝١١﴾ [الأحزاب:٩-١١].

عباد الله! وكما أن الشدائد تُظهر نفاق المنافقين، فهي كذلك تُظهر إيمان المؤمنين، فالمؤمنون وهم يعيشون هذه الظروف الصعبة في أرض المعركة، وهم على أعصابهم، تذكروا قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ

﴿يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ -عندها- ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ [البقرة:٢١٤].

ولذلك ازداد المؤمنون إيماناً وتسليماً وتصديقاً لوعد الله فماذا قال المؤمنون؟

قال الله -عز وجل- في وصفهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ٢٢﴾ [الأحزاب:٢٢].

عباد الله! أما المنافقون والذين في قلوبهم مرض، عندما نظروا إلى جيش الكفر وإلى عدده الكبير ظنوا بالله ظن السوء، وأخذوا يشككون بل ويسخرون من البشارات التي بشرَّ بها النبي ﷺ أصحابه عندما ضرب الصخرة وقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن».

ويقول بعضهم لبعض: انظروا إلى محمدٍ يعدكم بفتح اليمن والشام وفارس؛ وأحدكم لا يستطيع أن يذهب لقضاء حاجته من الخوف، ولذلك ازداد المنافقون مرضاً على مرضهم.

قال تعالى عن المنافقين ومرضى القلوب: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢﴾ [الأحزاب:١٢]، ﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ١٣﴾ [الأحزاب:١٣]

وقال تعالى في وصفهم: ﴿۞قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ

فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب:١٨-١٩].

العنصر الرابع: شدة وكرب وبلاء، يعقبها نصر وفرج.

عباد الله! البلاء بالمسلمين يزداد يوماً بعد يوم، والخوف يزداد ساعة بعد ساعة، حتى بلغت القلوب الحناجر؛ بردٌ قارصٌ، وجوعٌ شديدٌ، وحصارٌ طالَ شهراً، فأتوا الصحابة رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله هل من شيءٍ نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر؟ -فماذا قال لهم؟ ربط قلوبهم بالله- فقال ﷺ لهم: «نعم، قولوا اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا.

فقال الصحابةُ: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا»(١).

عباد الله! وتوجه رسول الله ﷺ إلى ربه أيضاً بالدعاء ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾.

فقال ﷺ: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم، وزلزلهم»(٢).

وفي رواية: «اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم».

عباد الله! توجه رسول الله ﷺ والصحابة إلى ربهم بالدعاء أن يجعل لهم مخرجاً، وأن ينصرهم على عدوهم.

والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، والله -عز وجل- يستجيب الدعاء من

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (٢٠١٨).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٩٣٣)، ومسلم (رقم ١٧٤٢).

عباده الصالحين.

قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾، وجاء النصر والفرج من عند الله، فأرسل الله ريحاً وجنوداً من عنده على الأحزاب أطفئت نارهم، وقلعت خيامهم.

عباد الله! تعالوا بنا لنستمع إلى حذيفة ﷺ وهو يخبرنا عن الظروف الصعبة التي يعيش فيها المسلمون، ويخبرنا أيضاً عن الرعب والدمار والذعر الذي حل بالأعداء في الجانب الآخر من الخندق.

يقول ﷺ: «لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ يوم الخندق -أي يوم الأحزاب- فقام ﷺ فصلى هوياً من الليل ثم قال: «من يأتنا بخبر القوم - أي العدو- أشترط له الرجعة، وأضمن له الجنة».

قال حذيفة: فما قام أحدٌ من شدة الجوع والبرد والريح.

قال حذيفة: فصلى رسول الله ﷺ هوياً من الليل ثم التفت إلينا وقال: «من يأتنا بخبر القوم؟ اشترط له الرجعة وأسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة». قال حذيفة: فلم يقمْ أحد من شدة الخوف والجوع والبرد.

يقول حذيفة: فلما لم يقمْ أحدٌ قال رسول الله ﷺ: «قم يا حذيفة».

يقول حذيفة: فلما دعاني لم يكن لي بدٌّ من القيام فقمتُ.

فقال ﷺ: «اذهب فأتنا بخبر القوم ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا».

قال حذيفة: فخرجت وأنا شديد البرد، فلما مشيت في حاجة رسول الله ﷺ كأني أمشي في حمَّام -أي: لم أجد البرد الذي يجده الناس- لأنه خرج طاعة لله ولرسوله ﷺ - فأتيت القوم ودخلت فيهم، وإذا بأبي سفيان يقوم ويقول: يا معشر قريش: لينظر امرئٌ -أي كلُ واحد- من جارهُ!

قال حذيفة: فبادرت بيدي الذي جنبي، فقلت من أنت؟

قال: أنا فلان بن فلان.

وقال أبو سفيان: يا معشر قريش، والله ما بقي لنا هنا مقام، لقد أكفأت الريح قدورنا، وأطفأت نارنا، وهدمت خيامنا، وقد بلغنا عن بني قريظة ما نكرهُ، أنهم لن يفوا بعهدهم بالحرب معنا فارتحلوا، فإني مرتحلٌ.

قال حذيفة: ثم قام إلى جمله فركب عليه، فوثب الجمل على ثلاث فلم يحل عقاله حتى وثب.

قال حذيفة: ولولا عهد رسول الله ﷺ لا تحدثنَّ شيئاً حتى تأتينا، فلو شئت أن أقتله لقتلته بسهمي.

قال حذيفة: فلما ارتحل وبلغ الخبر سائر القبائل رجعوا من حيثُ جاءوا»[1].

قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب:٢٥]

عباد الله! ورجعت الأحزاب تجرُّ أذيال الخيبة والحزن لم ينالوا شيئاً مما جاءوا له.

وقال ﷺ: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم»[2].

وأمتن الله -عز وجل- على المؤمنين بنصرهم هذا في غزوة الأحزاب.

---

(١) رواه مسلم (رقم ١٧٨٨).

(٢) رواه البخاري (رقم ٤١٠٩، ٤١١٠).

فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب:٩].

ولذلك كان رسول الله ﷺ ينسب الفضل كله في هزيمة الأحزاب لله -عز وجل-.

يقول أبو هريرة ﷺ: كان رسول الله ﷺ يقول: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده»[(١)].

العنصر الخامس: الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من غزوة الأحزاب.

أولاً: الكفر ملةٌ واحدة هدفهم واحد وهو: دمروا الإسلام أبيدوا أهله.

عباد الله! الكفر ملةٌ واحدة في كل بلاد الدنيا هدفهم: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، ويفعل الكفر ذلك تحت ستار (مكافحة الإرهاب).

وهدف الكفار من القضاء على الإسلام والمسلمين هو السيطرة على خيرات المسلمين، وهذا يا عباد الله يظهر لنا من غزوة الأحزاب فقد جاءوا من كل مكان للقضاء على الإسلام والمسلمين والسيطرة على خيرات المسلمين في المدينة، ولتأمين طرق التجارة بين مكة والشام.

عباد الله! والتاريخ يُعيد نفسه فما من عام يمر علينا إلا ونسمع ونرى ملة الكفر يجتمعون لحرب المسلمين تحت شعارات كاذبة، لينهبوا خيرات بلاد المسلمين وليأمنوا مصالحهم في تلك البلاد ورسولنا ﷺ يخبرنا بذلك فيقول:

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤١١٤)، ومسلم (رقم ٢٧٢٤).

«يوشك إن تداعى عليكم الأمم» -أي: يدعو بعضها بعضاً، فتجيب- «كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» فقال قائل: أو من قلة نحن يومئذ؟

قال ﷺ: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاءٌ كغثاء السَّيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوَهنَ.

قالوا: يا رسول الله ! وما الوهنُ؟

قال ﷺ: «حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

عباد الله! وهذا الحديث يُشَخّص لنا حال الأمة الإسلامية إذا ضعفت وتفرقت مع أعدائها، ففي هذا الحديث:

أولاً: أن أعداء الإسلام يرصدون حالة أمة الإسلام؛ فإن رأوا أن الوهن دبّ إليها، والمرض نخر جسمها، وثبوا عليها ليقضوا على ما تبقى منها.

ثانياً: أن أمم الكفر تدعو بعضها بعضاً لتجتمع للتآمر على الإسلام وأهله.

ثالثاً: أن ديار المسلمين منبع خيرات وبركات، تحاول أمم الكفر الاستيلاء عليها ولذلك شبهها الرسول ﷺ بالقصعة المملوءة بالطيب من الطعام، التي أغرت الأكلة فتواثبوا عليها، كل يريد نصيب الأسد.

رابعاً: أن أمم الكفر لم تعد تهابُ المسلمين لأنهم فقدوا مهابتهم بين الأمم، بعد أن بعدوا عن دينهم.

خامساً: عناصر قوة الأمة الإسلامية ليس في عددِها وعُدتِها، بل في عقيدتها ومنهجها.

---

(١) صحيح: انظر «صحيح الجامع» «صحيح أبي داود».

ولذلك يقول ﷺ للسائل: «بل أنتم يومئذ كثير».

وتأمل درس حنين قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾.

وانظروا إلى يوم بدر كيف نصر الله المسلمين وهم قلة

وانظروا إلى غزوة الأحزاب كيف نصر الله عباده بجند من عنده

سادساً: أن الأمة الإسلامية إذا تركت دينها أصبحت لا وزن ولا قيمة لها بين الأمم، قال ﷺ: «ولكنكم غثاء كغثاء السيل».

ثانياً: من الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من غزوة الأحزاب (إن تنصروا الله ينصركم).

عباد الله! الرسول ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم - في غزوة الأحزاب أخذوا بكل أسباب النصر، مع توكلهم على الله واعتقادهم أن النصر من عند الله، ولذلك توجهوا جميعاً إلى الله -عز وجل- بالدعاء فاستجاب الله لهم، ونصرهم بنصر من عنده على عدوهم.

عباد الله! وكان من نتائج غزوة الأحزاب.

أولاً: فرق الله شمل الأحزاب واليهود بعد أن اجتمعوا لحرب المسلمين.

ثانياً: أرسل الله على المشركين ريحاً شديدة باردة تقلع خيامهم وتطفئ نارهم.

ثالثا: أرسل الله على المشركين جنداً من الملائكة؛ يزلزلونهم ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾.

رابعاً: رجع الكفار عن المدينة يحملون غيظهم في صدورهم، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ﴾.

خامساً: فشل الكفار في تحقيق أهدافهم ﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾.

سادساً: كفى الله المؤمنين القتال: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾.

عباد الله! ماذا فعل النبي ﷺ في يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ؟

هذا الذي نعرفه في الجمعة القادمة -إن شاء الله تعالى-

اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين.

الخطبة الحادية والأربعون

غزوة بني قريظة

أيها الإخوة **عباد الله**! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن غزوة بني قريظة.

عباد الله! وغزوة بني قريظة كانت نتيجة من نتائج غزوة الأحزاب، وأثراً من آثارها ولم تكن هذه الغزوة بتدبير من الرسول ﷺ، ولا بمشورة أحدٍ من الصحابة -رضي الله عنهم-، بل كانت بأمرٍ من الله تعالى؛ إذ لم يكد الرسول ﷺ ينفض يديه من آثار غزوة الأحزاب حتى نزل الوحي بأمر الله له أن يتوجه إلى بني قريظة التي نقضت عهدها مع رسول الله ﷺ، وتحالفت مع الأحزاب سراً لضرب المسلمين في المدينة من الخلف.

عباد الله!وحديثنا عن غزوة بني قريظة سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: أسباب هذه الغزوة

العنصر الثاني: الجزاء من جنس العمل

العنصر الثالث: الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من غزوة بني قريظة.

العنصر الأول: أسباب هذه الغزوة

السبب الرئيسي لغزوة بني قريظة هو: أنهم نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ، وتعاونوا مع الأحزاب للقضاء على المسلمين في المدينة.

عباد الله! خرج وفدٌ من اليهود وعلى رأسهم حُييٌّ بن أخطبٍ وأبو رافع بن أبي الحقيق إلى كفار مكة وإلى القبائل المجاورة، وحرضوهم على غزو المسلمين في المدينة للقضاء عليهم، وخرج بسبب هذا التحريض جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل.

عباد الله! ولما وصل هذا الجيش إلى المدينة ووجد الخندق الذي حال بينه وبين دخول المدينة، وطال الحصارُ من هذا الجيش للمدينة، ولم يتمكن من دخولها ذهب رأس العصابة حُييٌّ بنُ أخطب اليهودي إلى يهود بني قريظة الذين يسكنون في الجهة الجنوبية من المدينة، وبينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وميثاق، لينقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ حتى يتمكن جيش الأحزاب من الدخول إلى المدينة من الجهة الجنوبية ليضربوا المسلمين من الخلف، فأتي حييٌّ بن أخطب اليهودي كعباً القرظي وهو كبير بني قريظة، ثم ناداه يا كعب افتح لي! فأغلق كعب دونه الأبواب.

يا كعبُ افتح لي! قال له كعبٌ: ويحك يا حُييٌّ، إنك رجلٌ مشئومٌ وقد أعطيت محمداً عهداً وميثاقاً، ولم أر منه إلا وفاءاً وصدقاً فما أنا بناقض عهده.

عباد الله! فما زال حُييٌّ بن أخطب بكعب القرظي يُغريه حتى فتح له، فأخذ يحدثُّه عن كثرة جيش الأحزاب الذي جاء به، وعن شدة قوة هذا الجيش وعن الأسلحة التي معهم حتى طمأنه أن النصر سيكون بجانب الأحزاب لا لمحمدٍ وأصحابه -لتعلموا ماذا تفعل اليهود في ظلمات الليل، وهذا هو هدفهم في كل زمان ومكان؛ القضاء على الإسلام والمسلمين-

فلما أمِنَ كعبٌ القرظي عاقبة الغدر، وعلم أن الدولة للأحزاب لا لمحمدٍ وأصحابه؛ وافق حُييَّ بن الأخطب على ما دعاه إليه من الغدر، وهذا يدلُنا يا عباد الله على أن اليهود أهل غدر وخيانة، يوفون بالعهد إذا كان لمصلحتهم ويغدرون إذا كان الغدر لمصلحتهم.

عباد الله! ولما بلغ الخبرُ رسولَ الله ﷺ قال: «من يأتينا بخبر القوم؟» -أي بخبر بني قريظة- قال الزبير بن العوام ﷺ: أنا يا رسول الله قال ﷺ: «من يأتيني بخبر القوم؟» قال الزبير: أنا يا رسول الله.

قال ﷺ:«من يأتيني بخبر القوم؟» قال الزبير: أنا يا رسول الله ثلاث مراتٍ فقال النبي ﷺ: «إن لكل نبيٍ حوارياً، وحواريَّ الزبير بن العوام»[1].

يقول الزبير ﷺ فأتيتهم فأتيتهُ بخبرهم - أي أنهم فِعْلاً غدروا وخانوا، فازداد المؤمنون شدة على شدتهم وخوفاً على خوفهم، لأن الأحزاب إذا دخلوا من الخلف ضربوهم ضربة قاضية ولكن الله سلّم. فما إن وقعت الفرقة بين الأحزاب وبني قريظة.

العنصر الثاني: الجزاء من جنس العمل

عباد الله! عندما أراد اليهود -قاتلهم الله- بتحريضهم الكفار على المسلمين ويغدرهم أن يستأصلوا المسلمين من على وجه الأرض؛ وقع ذلك بهم فقتلهم رسول الله ﷺ وسبى نسائهم وذراريهم وأخذوا أرضهم وأموالهم ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

عباد الله! تعالوا بنا لنتعرف على ما نزل بيهود بني قريظة ومَنْ تعاون معهم بعد غدرهم برسول الله ﷺ في غزوة الأحزاب.

عباد الله! رجعت الأحزاب إلى ديارهم يجرون أذيال الخيبة والخسران، لم ينالوا خيراً بعد أن أرسل الله عليهم ريحاً وجنوداً من عنده، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٨٤٦)، ومسلم (رقم ٢٤٥١).

ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾، ورجع كذلك الوفد اليهودي -الذي خرج من خيبر لتحريض الأحزاب لغزو المدينة- إلى أرضهم.

عباد الله! فلما رأت بنو قريظة أنهم وحدهم في المدينة مع رسول الله ﷺ، ورأوا أنهم قد هلكوا بسبب غدرهم ونقضهم عهد النبي ﷺ، دخلوا حصونهم وأغلقوا أبوابهم، وجلسوا ينتظرون ما يُفعل بهم.

ودخل معهم حييٌّ بن أخطب اليهودي وفاءاً بعهده لسيدهم كعب القرظي، حيث كان حين دعاه إلى نقض العهد والغدر أعطاه عهداً وميثاقاً إن لم يكن ما أراد من استئصال المسلمين أن يرجع فيدخل معه في حصنه، ليصيبه ما أصابه.

عباد الله! ورجع النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة بعد هذا النصر المبين على الأحزاب ووضع ﷺ سلاحه وأخذ يغتسل ليزيل هذا التراب الذي غبَّر جسده الشريف، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا رسول الله! أو قد وضعت السلاح؟ قال ﷺ: «نعم».

قال جبريل: والله ما وضعناه -لتعلموا أن الملائكة كانوا يجاهدون مع المسلمين في غزوة الأحزاب-.

فقال ﷺ: «إلى أين»؟ فقال جبريل عليه السلام: ها هنا وأشار بيده إلى بني قريظة[1] -إلى الخونة الذين لا يتركون الغدر-.

عباد الله! فأصدر النبي ﷺ أوامره للجيش المسلم بالخروج إلى بني قريظة

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤١١٧)، ومسلم (رقم ١٧٦٩).

فوراً وبأسرع ما يمكن وقال لهم: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»(١)، وكان ذلك بعد الظهر، ولبس النبي ﷺ سلاحه وخرج مع الجيش.

عباد الله! ها هو جيش الإسلام بقيادة رسول الله ﷺ في طريقه إلى بني قريظة، وقد سبقهم جبريل عليه السلام.

ويقول أنس رضي الله عنه: «كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم موكب جبريل حين سار ورسول الله ﷺ إلى بني قريظة»(٢) .

وتقول عائشة -رضي الله عنها- خرج رسول الله ﷺ فمر على بني غنم، وهم جيران المسجد، فقال لهم: مَنْ مرَّ بكم؟

فقالوا: مر بنا دحية الكلبي، وكان دحية الكلبى تشبه لحيته ووجهه جبريل عليه السلام فعلم رسول الله ﷺ -أن جبريل قد سبقه إلى بني قريظة- تقول -رضي الله عنها- فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمسة وعشرين ليلةً، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء، قيل لهم: أنزلوا على حكم رسول الله ﷺ فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر، فأشار إليهم أنه الذبح.

فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ، فأُتي به على حمار قد حمل عليه وحفَّ به قومُهُ -أي من الأوس- وقالوا له: يا أبا عمرو حلفاؤك ومواليك، وأهل النكاية، ومَنْ قد علمت. فلم يرجع شيئاً ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٩٤٦)، ومسلم (رقم ١٧٧٠).

(٢) رواه البخاري (رقم ٤١١٨).

فقال: قد آن لي أن لا يأخذني في الله لومة لائم.

عباد الله! وسعد بن معاذ ﷺ قد أصابه سهم من رجل من المشركين في غزوة الأحزاب فأصاب أكحله فقطعه فدعا سعد ربه فقال: «اللهم لا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة».

عباد الله! فلما وصل سعد ﷺ إلى رسول الله ﷺ قال ﷺ لأصحابه: قوموا إلى سيدكم فأنزلوه، فأنزلوه.

فقال له رسول الله ﷺ: احكم فيهم -أي في بني قريظة-.

قال سعد ﷺ: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم -أي نساءهم وأطفالهم- وتقسم أموالهم.

فقال النبي ﷺ: «قد حكمت فيهم بحكم الله -عز وجل-، وحكم رسوله»[1].

وفي رواية قال ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الملك»[2].

عباد الله! ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله ﷺ في دار بالمدينة، ثم خرج ﷺ إلى سوق المدينة فخندق فيها خنادق، ثم طفق يبعث إليهم فيؤتي بهم أرسالاً -أي جماعات- فتضرب أعناقهم -العزة لله ولرسوله وللمؤمنين- وفيهم عدو الله حييُّ بنُ أخطب النضري اليهودي الذي قال -لعنه الله- عندما رأى النبي ﷺ: والله ما لمتُ نفسي في عداوتك، ثم جلس فضُرِبَتْ عنقُهُ لعنه الله.

---

(١) إسناده جيد انظر «مجمع الزوائد» (٦/ ١٣٧، ١٣٨)، و«مسند الإمام أحمد».

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٠٤٣)، ومسلم (رقم ١٧٦٨).

عباد الله! ولما قتل رجال بني قريظة وسبيت النساء والصبيان، وقرت عين سعد بن معاذ لذلك استجابة من الله لدعوته: توجه ﷺ إلى الله تعالى بدعوة ثانية فقال: «اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش على نبيك ﷺ شيئاً فأبقني لها، وإن كنت أنهيت الحرب بينه وبينهم فأقبضني إليك، فسال جرحه فلم يتوقف حتى مات ﷺ»[1].

عباد الله! وقد أخبرنا الله في كتابه بغزوة الأحزاب وغزوة بني قريظة فقال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب:٢٥-٢٧].

هكذا (الجزاء من جنس العمل) ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

أرادت بنو قريظة القضاء على رسول الله ﷺ وأصحابه فنزل ذلك بهم، وأراد عدو الله حيي بن أخطب اليهودي استئصال المسلمين فنزل ذلك به وضرب المسلمون عنقه مع أعناق بني قريظة.

عباد الله! وهذا أبو رافع بن أبي الحقيق اليهودي، الذي ذهب مع حيي بن الأخطب اليهودي إلى كفار مكة؛ ليحرضوهم على استئصال المسلمين في المدينة، لابد أن يأخذ جزاءه فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يقتلوه.

---

(١) «مسند أحمد» (٦/ ١٤٢).

عباد الله: تعالوا بنا لنستمع إلى البراء بن عازب ﷺ وهو يخبرنا الخبر قال البراء بن عازب ﷺ: «بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار، فأمر عليهم عبدالله بن عتيك».

وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم -أي رجعوا بمواشيهم- قال عبدالله لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلق ومتلطف للبواب، لعلي أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجة، وقد دخل الناس فهتف به البواب: يا عبدالله إن كنت تريد أن تدخل فأدخل، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأغاليق -أي المفاتيح- على وتد.

قال: فقمت إلى الأقاليد فأخذتها ففتحت الباب.

وكان أبو رافع يُسَمَّرُ عنده، وكان في علالي له، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه، فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت علي من داخل.

قلت إن القوم نذروا بي -أي علموا بي- لم يخلصوا إلي حتى أقتله، فانتهيت إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله لا أدري أين هو من البيت؟

فقلت: أبا رافع، فقال: مَنْ هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئاً؟ وصاح فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد ثم دخلت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟

فقال: لأُمِكَ الويلُ إن رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف.

قال: فأضربه ضربةً أثخنته، ولم أقتله، ثم وضعت ضبة السيف في بطنه حتى أَخذ من ظهره فعرفت أني قتلته، فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً حتى

انتهيت إلى درجة له فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟

فلما صاح الديك قام الناعي على السور، فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز فانطلقت إلى أصحابي فقتلتُ النجاء -أي أسرعوا- فقد قتل الله أبا رافع فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدثته فقال لي: «ابسط رجلك» فبسطتُ رجلي فمسحها فكأنها لم اشتكها قط»[1].

عباد الله! وهكذا تخلص رسول الله عليه وسلم والمسلمون من رؤوس الأفاعي من اليهود -لعنهم الله-، الذين تربوا على الغدر والخيانة ونقض العهود والمواثيق ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ فكل من كان على المسلمين وسعى في استئصالهم؛ هذا هو مصيره في الدنيا القتل والفضيحة، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

العنصر الثالث: الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من غزوة بني قريظة.

أولاً: الله -عز وجل- للظالمين بالمرصاد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ﴾ [ابراهيم:٤٢]، وقال تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

وقال ﷺ: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾».

---

(١) رواه البخاري رقم (٤٠٣٩)

عباد الله! ماذا فعل الله بالأحزاب عندما أرادوا ظلم المسلمين في المدينة؟

أرسلَ الله -عز وجل- عليهم ريحاً وجنوداً من عنده ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

ماذا فعل الله -عز وجل- بيهود بني قريظة عندما أرادوا أن يضربوا المسلمين من الخلف فخانوا وغدروا؟

أبادهم الله من فوق الأرض وأعطى أموالهم وأرضهم وديارهم للمسلمين، فأحذروا من الظلم يا عباد الله، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة.

وأعلموا أن الله -عز وجل- يستجيب دعوة المظلوم إذا دعا على الظالم.

ثانياً: المستقبل للإسلام.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة:٣٣].

الإسلام دين الله في الأرض: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:١٩].

والإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله للبشرية ديناً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال تعالى ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

عباد الله! والله -عز وجل- يحفظ هذا الدين ويحفظ أهله؛ إن هم نصروا الله في أنفسهم.

قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج:٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، وقال

تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ۝﴾ [غافر:٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ۝﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وقال ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر -أي هذا الدين- ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر؛ إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يُذل به الكفر»[١].

وقال ﷺ «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها»[٢].

عباد الله! ما من أمة حاولت أن تعتدي على هذا الدين وعلى أهله إلا أبادهم الله -عز وجل- ودمرهم، فانظروا عباد الله، ماذا فعل الله -عز وجل- بالأحزاب عندما جاءوا من كل مكان للقضاء على الإسلام وأهله؟

وانظروا عباد الله، ماذا فعل الله -عز وجل- بيهود بني قريظة؛ عندما أرادوا بغدرهم القضاء على الإسلام وأهله؟

ثالثاً: فضائل سعد بن معاذ ﷺ

عباد الله! سعد بن معاذ ﷺ الذي دعا فاستجاب الله له، قال: «اللهم لا تمتني حتى تقر عيني مِنْ بني قريظة».

سعد بن معاذ ﷺ الذي حكم في بني قريظة بحكم الملك، من فوق سبع سموات، سعد بن معاذ ﷺ الذي اهتز عرش الرحمن لموته.

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (٣).

(٢) «السلسلة الصحيحة» (٢)

قال ﷺ «اهتز العرش لموت سعد بن معاذ»[١].

سعد بن معاذ ﷺ الذي حملت الملائكة جنازته.

عن أنس ﷺ قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخف جنازته.

فقال النبي ﷺ: «إن الملائكة كانت تحمله»[٢].

اللهم رد المسلمين إلى دينك رداً جميلاً.

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٨٠٣)، ومسلم (رقم ٢٤٦٦).

(٢) «صحيح الترمذي» (٣٠٢٤).

الخطبة الثانية والأربعون

عمرة الحديبية (صلح الحديبية)

أيها الإخوة **عباد الله!** موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ. وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن عمرة الحديبية (صلح الحديبية).

عباد الله! والحديبية قرية قريبة من مكة أكثرها في الحرم[(١)].

عباد الله! وحديثنا عن عمرة الحديبية أو عن صلح الحديبية سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: سبب هذه العمرة وموقف المنافقين .

العنصر الثاني: الرسول ﷺ والصحابة الكرام يتحركون إلى مكة.

العنصر الثالث: الأحداث التي وقعت عند الحديبية قبل الصلح.

العنصر الرابع: صلح الحديبية.

العنصر الخامس: الأحداث التي وقعت بعد الصلح.

العنصر السادس: الفوائد والدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من صلح الحديبية.

العنصر الأول: سبب هذه العمرة وموقف المنافقين.

رأى النبي ﷺ -وهو بالمدينة- رؤيا بالمنام: أنه داخل مكة وطائف بالبيت العتيق، ورؤيا الأنبياء وحيٌّ، فأولها رسول الله ﷺ على أنها إذنٌ من الله -

---

(١) «فتح الباري» (٥/ ٣٣٤).

عز وجل- بدخول مكة.

فأذن مؤذنه في الناس بأن النبي ﷺ معتمر، فأجابه إلى العمرة ألف وأربعمائة من المؤمنين الصادقين.

عباد الله! وأما المنافقون فقد ظنوا بالله ظن السوء، ظنوا أن محمداً وأصحابه إن دنوا من مكة، فإن قريش والعرب سيستأصلونهم ويبيدونهم، فلا يرجع منهم واحد البتة.

ثم زَوَّروا في أنفسهم عذراً يعتذرون به للنبي ﷺ إن هو رجع، والله -عز وجل- يعلم ما يسرون وما يعلنون، فأنزل على رسوله قرآناً يفضح فيه المنافقين.

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الفتح:١١-١٣].

عباد الله! موقف المنافقين في كل الأحوال واحد لا يتغير إلا بأسلوبه وشكله الظاهري، وجزاؤهم على ذلك -عند الله تعالى- أيضاً واحد لا يتبدل.

فقال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح:٦].

العنصر الثاني: الرسول ﷺ والصحابة الكرام يتحركون إلى مكة.

عباد الله! خرج رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام من المدينة في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، ونظراً لتوقع الشر من قريش فإن المسلمين أخذوا سلاحهم فكانوا مستعدين للقتال، فلما وصلوا إلى ذي الحليفة -وهي ميقات أهل المدينة- أحرموا بالعمرة، وساقوا الهدى سبعين بدنة، وبعث النبي ﷺ عيناً إلى مكة ليأتيه بأخبار قريش.

ولما وصل رسول الله ﷺ وأصحابه إلى «عسفان» جاء الخبر إلى رسول الله ﷺ أن قريشاً قد جمعوا الجموع، وخرجوا يريدون أن يقاتلوه، ويصدوه عن البيت الحرام.

فاستشار النبي ﷺ أصحابه في أن يَغِيرَ على ديار الذين ناصروا قريشاً، واجتمعوا معها ليدعوا قريشاً ويعودوا للدفاع عن ديارهم.

فقال ﷺ: «أشيروا أيها الناس عليّ، أترون أن أميل إلى عيالهم، وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله -عز وجل- قد قطع عينا من المشركين وإلا تركناهم محروبين؟ -والمحروب هو من سلب ماله- فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه.

قال ﷺ: «امضوا على اسم الله»[1].

عباد الله! أخذ رسول الله ﷺ والصحابة يسيرون إلى مكة؛ حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم -مكان قريب من

---

(١) رواه البخاري (رقم ٤١٧٨، ٤١٧٩).

مكة- في خيل لقريش طليعة -أي في مقدمة الجيش- فخــذوا ذات اليمـين، فانحازوا ذات اليمين، فلم يشعر بهم خالد حتى رأى الغبار صـاعداً فـانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يـهبط عليـهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حلْ حلْ -وهـي كلمـة تقـال للناقـة إذا تركت السير- فألحت -أي تمادت على عدم القيام- فقالوا: خلأت القصواء -أي حرنت القصواء- فقال النـبي ﷺ: مـا خـلأت القصـواء ومـا ذاك لهـا بخلق، ولكن حبسـها حـابس الفيـل ثـم قـال ﷺ: «والـذي نفسـي بيـده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله -أي من ترك القتال في الحـرم- إلا أعطيتهم إياها -أي أجبتهم إليها- ثم زجرها فوثبت -أي قامت الناقة-.

فَعَدَلَ النبي ﷺ عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على بئر قليل المـاء، فمـا لبثوا أن نزحوه فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً مـن كنانتـه؛ ثم أمرهـم أن يجعلوه في البئر فما زال يجيش لهـم بـالري حتـى صـدروا عنـه -وهذه من معجزاته ﷺ-.

العنصر الثالث: الأحداث التي وقعت عند الحديبية قبل الصلح.

عباد الله! أراد رسول الله ﷺ أن يبعـث إلى قريـش رجـلاً مـن أصحابـه يخبرهم أنهم جاءوا عماراً، ولم يجيئوا لقتالٍ -ليعلـم الجميـع أن الإسـلام لا يطلب حرباً إلا إذا فرضت عليه، وإن الذين يشعلون الحرب هم أهل الكفر والشرك - فدعا عمر ﷺ فقال عمر: يا رسول الله ليس لي بمكة أحد من بـني كعب يغضب لي إن أوذيـت، فأرسـل عثمـان بـن عفـان، فأرسـله، فـانطلق عثمان فمر على نفر من قريش فقالوا له: أين تريد؟

فقال: بعثني رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام وأخبركم؛ أنـا لم نأت لقتالٍ وإنما جئنا عماراً.

فقالوا: قد سمعنا ما تقول فأنفذ لحاجتك.

وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، فحمله بين يديه وأجاره حتى بلّغَ رسالة رسول الله ﷺ، وتأخر عثمان ﷺ في مكة حتى أشيع أنه قد قتل.

فدعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى البيعة، فبايعوه تحت الشجرة بيعة الرضوان على أن لا يفروا، فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه وقال: هذه يد عثمان، ثم جاء عثمان ﷺ بعد أن تمت البيعة.

قال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

عباد الله! بينما رسول الله ﷺ والمسلمون على حالهم بالحديبية، إذ جاء بُديل بين ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة -وهم موضع سر رسول الله ﷺ وأهل النصح له- فأخبر رسول الله ﷺ أن قريشاً خرجت بكل ما تملك من قوة، ونزلت بالحديبية عند الماء الكثير، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب -أي أضعفت قوتهم وأموالهم- وأضرت بهم فإن شاءوا ماددتهم مدة -أي جعلت بيني وبينهم مدة يترك الحرب بيننا وبينهم فيها- ويُخلّو بيني وبين الناس -أي من الكفار العرب وغيرهم- فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد رحموا -أي فإن ظهر غيرُهم عليَّ كفاهم المؤنة، وإن أظهر أنا على غيرهم فإن شاءوا أطاعوني وإلا فلا تنقض مدة الصلح إلا وقد استراحوا وقووا-

ثم قال ﷺ: وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي -أي: حتى أموت- ولينفذن الله أمره -أي: وليمضين الله أمره في نصر دينه-.

فقال بُديل: سأبلغهم ما تقول، ثم انطلق حتى أتى قريشاً فقال: يا معشر قريش، إنا جئناكم من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا.

فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء.

وقال ذووا الرأي منهم: هات ما سمعته.

قال سمعته يقول كذا وكذا -وعرض عليهم الخطة التي عرضها عليه النبي ﷺ- فقال لهم عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا الرجل قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته. فقالوا ائته. فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ نحواً من قوله لبُديل، فقال له عروة عند ذلك: يا محمد جئت لقتال قومك، فإن قتلتهم فهل رأيت أحداً قبلك اجتاح قومه - أي أهلكهم- وإن كانت الأخرى -يعني إن هزمت أنت- فإني والله أرى حواليك أوباشاً خليقاً -أي: حقيقاً - أن يفروا عنك ويدعوك -أي يتركوك-.

فقال أبو بكر ﷺ لعروة: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟

فقال عروة: مَنْ هذا؟ قالوا له: هذا أبو بكر.

فقال عروة: والله لولا يَدٌ لك عندي -أي نعمة- لم أجزك بها -أي: لم أكافئك بها- لأجبتك.

عباد الله! وأخذ عروة يكلم النبي ﷺ، ويأخذ بلحيته، وكان المغيرة بن شعبة ﷺ قائماً عند رأس رسول الله ﷺ بالسيف وعلى رأسه المغفر، كلما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله ﷺ ضربها المغيرة بنعل السيف وقال له: نح يدك عن لحية رسول الله ﷺ.

فقال عروة: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة.

قال عروة: أي غدر! أولست أسعى في غدرتك؟ - وكان المغيرة ﷺ في الجاهلية صحب رجالاً من قريش فقتلهم ثم أخذ أموالهم، ثم أتى النبي ﷺ فأسلم فقال النبي ﷺ: أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء -لكونه أخذ غدراً-.

عباد الله! واستمر عروة يحدث رسول الله ﷺ وينظر في أصحابه كيف يحترمونه، ويعزرونه ويوقرونه، فما تنخم ﷺ نخامة إلا وقعت في يد أحد منهم، فدلك بها وجهه وجلده، ولا توضأ وضوءاً إلا كادوا يقتتلون على وضوئه، كلهم يريد أن يمس منه، ولا تكلم بكلمة إلا بادروا بالعمل بها ولا يحدون إليه النظر تعظيماً له.

فرجع عروة إلى قريش، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمد محمداً - وحدثهم بما رأى - ثم قال لهم: وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فأقبلوها.

عباد الله! فقام رجل من بني كنانة فقال دعوني آته. فقالوا ائته- فأتاه فلما أشرف على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: هذا رجل من بني كنانة قد أتاكم، وهو من قوم يعظمون البُدنَّ فابعثوها له فبعثوها، واستقبله القوم يلبون -لبيك اللهم لبيك- فلما رأى البُدن وسمع التلبية قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم ما رأى قال لقريش: استقبلوني ملبين يسوقون الهدي، جاءوا معتمرين ولم يجيئوا لقتال، وما أرى أن يُصدوا عن البيت.

فقالوا له: اجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك.

عباد الله! ثم أرسلت قريش مكرز بن حفص وأعقبته بسهيل بن عمرو

فلما رآه النبي ﷺ قال: قد سهل لكم من أمركم.

العنصر الرابع: صلح الحديبية:

عباد الله! عندما أرسلت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ أرادت بذلك الصلح مع رسول الله ﷺ، ولكن بشرط أن يرجع المسلمون دون عمرة في هذا العام.

عباد الله! عندما جاء سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ قال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبي ﷺ الكاتب:

فقال النبي ﷺ للكاتب: أكتب بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سهيل: أما (الرحمن) فوالله ما أدري ما هي، ولكن اكتب: «باسمك اللهم» كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا «بسم الله الرحمن الرحيم».

فقال النبي ﷺ: اكتب «باسمك اللهم».

ثم قال ﷺ: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله».

فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله، ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب «محمد بن عبدالله» .

فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني»، اكتب «محمد بن عبدالله».

والرسول ﷺ يفعل ذلك لأنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها».

ثم قال ﷺ للكاتب: اكتب: على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به.

فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطه، ولكن ذلك من

العام المقبل، فكتب.

فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا.

قال المسلمون: سبحان الله، كيف يُرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟

فبينما هم كذلك ! إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو، وكان قد أسلم فحبسوه وأوثقوه في الحديد، فهرب منهم وهو مقيد، حتى رمى بنفسه بين ظهراني المسلمين، فلما رآه أبوه قال: يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن تردَّه إليّ.

فقال ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد.

فقال سهيل: ردَّه عليَّ، وإلا والله لا أصالحك على شيء أبداً.

فقال ﷺ له: فأجزه لي - قال سهيل: ما أنا بمجيزه لك.

قال ﷺ: بلى فافعل، قال سهيل: ما أنا بفاعل.

فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين أردُّ إلى المشركين بعدما أسلمت وعذبت.

عباد الله! وغضب المسلمون لرد المسلمين الفارين من قريش إليها فقالوا: «يا رسول الله تكتب هذا؟ قال لهم: نعم. إنه مَنْ ذهب إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له مخرجاً وفرجاً»(١).

عباد الله! وظهر الغضب الشديد على عمر بن الخطاب ﷺ فراجع رسول الله ﷺ في ذلك فقال: «فأتيت نبي الله ﷺ»، فقلت: ألست نبي الله

---

(١) رواه مسلم (رقم ١٧٨٤).

حقاً؟ قال: بلى.

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى

قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟

قال: إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري.

قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟

قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قلت: لا

قال: فإنك آتيه ومطوف به.

قال عمر: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى.

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال:بلى .

قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟

فقال له: أبو بكر بمثل ما قال له رسول الله ﷺ.

وزاد: «يا عمر إلزم غرزه -أي: تمسك بأمره وترك مخالفته- حيث كان فإني أشهد أنه رسول الله قال عمر: وأنا أشهد»[١].

وقال عمر: «ما زلت أصوم وأتصدق وأعتق مِنَ الذي صنعتُ مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ، حتى رجوت أن يكون خيراً»[٢].

عباد الله! وكان عمر ﷺ يُراجع الرسول ﷺ ليقف على الحكمة من موافقته على شروط الصلح، وكان يرغب في إذلال المشركين فجميع ما

---

(١) «مسند أحمد» (٤/ ٣٢٥) بإسناد حسن.

(٢) «مسند أحمد» (٤/ ٣٢٥).

صدر منه كان معذوراً فيه بل هو مأجور لأنه مجتهد فيه[1].

العنصر الخامس: الأحداث التي وقعت بعد الصلح:

عباد الله! لما فرغ رسول الله ﷺ من الصلح قال لأصحابه:

قوموا فانحروا ثم احلقوا، فوالله ما قام منهم رجل واحد، قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة -رضي الله عنها- فذكر لها ما لقي من الناس.

قالت أم سلمة: يا نبي الله! أتحب ذلك، اخرج ولا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك.

فخرج ﷺ فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه وحلق، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً.

عباد الله! وقبل أن يرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة جاءه نسوة مهاجرات فماذا يفعل فيهن؟

فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٠].

عباد الله! وبعد أن رجع النبي ﷺ إلى المدينة جاءه رجل من قريش يقال له أبو بصير وهو مسلم، فبعثت قريش في طلبه رجلين، فأتيا النبي ﷺ

(١) «فتح الباري» (٥/ ٣٤٦- ٣٤٧).

وسألاه أن يرده عليهم فرده عليهم.

فانطلقا به فنزلا بذي الحليفة، ومعهم أبو بصير، وأخرجا تمراً كان معهما يأكلان منه، فبينما هم يأكلون أخرج أحدهما سيفه وأخذ يلوح به.

فقال له أبو بصير: أرى سيفك هذا سيفاً جيداً!

فقال الرجل: نعم إنه كذلك، وإني قد جربته وجربته.

فقال أبو بصير: أرنيه أنظر فيه قال الرجل: نعم خذه.

فأخذه أبو بصير وضرب به الرجل حتى قتله، فلما رآه صاحبه يُضرب، فرَّ مذعوراً هارباً إلى المدينة، فدخل المسجد يعدو فلما رآه النبي ﷺ قال: إن هذا قد رأى ذعراً.

فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول.

فبينما هو عند رسول الله ﷺ إذ جاء أبو بصير، فقال يا نبي الله! قد أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، فقال النبي ﷺ: «ويل أمه مسعر حرب، لو كان معه أحد» فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر -أي: ساحله- فعلم أبو جندل بن سهيل بن عمرو أن أبا بصير يقيم على سيف البحر، فاحتال حتى تَفَلَّتَ من قريش وأتى أبا بصير، فأقام معه على سيف البحر، وسمع رجال من المستضعفين من المسلمين من مكة أن أبا بصير وأبا جندل على سيف البحر، فخرجوا إليهم حتى كانوا عصبة، لا يسمعون بعِيْرٍ لقريش جاءت من الشام إلا خرجوا عليها، وقتلوا من فيها فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم، لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم فأنزل الله -عز وجل-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ

مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾

[الفتح:٢٤-٢٦].

وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينه وبين البيت.

العنصر السادس: الفوائد والدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من صلح الحديبية.

أولاً: كان صلح الحديبية فتحاً مبيناً على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين، ففي عودة النبي ﷺ والصحابة من الحديبية نزل على رسول الله ﷺ الوحي بسورة الفتح.

يقول ﷺ لعمر بن الخطاب: «لقد أنزلت علي الليلة سورة لهيَ أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾»[1].

يقول البراء ﷺ «تعدون أنتم الفتح؛ فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية»[2].

عباد الله! وقد اشتملت هذه السورة العظيمة على المبشرات الكثيرة

---

(١) رواه البخاري (رقم ٤١٧٧).

(٢) رواه البخاري (رقم ٤١٥٠).

الطيبة لرسول الله ﷺ وللصحابة الكرام -رضي الله عنهم- ومن هذه المبشرات:

١. المغفرة من الله -عز وجل- لرسول الله ﷺ ما تقدم وما تأخر من ذنبه.

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح:١ -٣].

٢. تبشير المؤمنين بالجنة.

قال تعالى ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ [الفتح:٥]

٣. بشرهم بفتح خيبر .

قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ..﴾ [الفتح:٢٠].

قيل هذه غنائم خيبر .

٤. بشرهم الله -عز وجل- برضاه عنهم.

قال تعالى ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨].

٥. بشرهم بالنصر والتمكين في الأرض وظهور هذا الدين.

فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى

﴿ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨﴾ [الفتح:٢٨].

ثانياً: في صلح الحديبية تطبيق النبي ﷺ لمبدأ الشورى في الإسلام.

حيث استشار المسلمين في الإغارة على ذراري المشركين عندما قال لهم: «أشيروا أيها الناس عليَّ» وأخذ برأي الصديق رضي الله عنه واستشار أم سلمة -رضي الله عنها- في أمر الناس؛ لما لم يبادروا بالنحر والحلق حين أمرهم بعد الصلح، وأخذ ﷺ برأيها.

ثالثاً: وقد ظهرت معجزات النبي ﷺ في صلح الحديبية عندما ازداد الماء بين يديه يقول جابر رضي الله عنه: عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة، فتوضأ منها ثم أقبل الناس نحوه فقال رسول الله ﷺ: «ما لكم؟» قالوا يا رسول الله ليس عندنا ما نتوضأ به ولا نشرب إلا ما في ركوتك، فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون.

قال جابر: فشربنا وتوضأنا.

قال رجل لجابر: كم كنتم يومئذ؟

قال جابر: لو كنا مائة ألفٍ لكفانا كنا خمس عشرة مائةً[1].

اللهم اجعل للمسلمين فرجاً ومخرجاً.

---

(١) رواه البخاري (١٥٢).

الخطبة الثلاثة والأربعون

غزوة خيبر

أيها الإخوة **عباد الله!** موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن غزوة خيبر.

عباد الله! خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع، تقع على بعد ستين أو ثمانين ميلاً من المدينة من جهة الشمال، وسكانها من اليهود.

عباد الله! ومدينة خيبر كانت حين غزاها الرسول ﷺ وأصحابه آخر معقل من معاقل اليهود في أرض الجزيرة.

عباد الله! وفتح خيبر وعداً وعده الله تعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين عند عَوْدَتِهم مِنْ صلح الحديبية، قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح:٢٠].

يعني صلح الحديبية، وبالمغانم الكثيرة خيبر.

عباد الله! وحديثنا عن غزوة خيبر سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: أسباب هذه الغزوة وموقف المنافقين.

العنصر الثاني: الجيش الإسلامي في طريقه إلى خيبر.

العنصر الثالث: أحداث الغزوة.

العنصر الرابع: معجزات النبي ﷺ في غزوة خيبر.

العنصر الأول: أسباب هذه الغزوة وموقف المنافقين:

ومن أسباب هذه الغزوة: أن اليهود في خيبر نقضوا المعاهدة التي بينهم

وبين رسول الله ﷺ، وعقدوا حلفاً مع قريش ضد الرسول ﷺ، يهدف إلى تطويقه من الشمال إلى الجنوب[١].

واليهود في خيبر هم الذين حزَّبوا الأحزاب ضد المسلمين في غزوة الأحزاب، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ويهود خيبر هم الذين وضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ.

فكان لابد من التخلص من يهود خيبر، الذين هم سبب لكل شر وبلاء في أرض الجزيرة.

عباد الله! وموقف المنافقين واحد لا يتغير إلا في أسلوبه وشكله فقط، وعندما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون إلى خيبر، أرسل رأس المنافقين عبدالله بن أبي ابن سلول إلى يهود خيبر: «أن محمداً قصدكم وتوجه إليكم فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه، فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون، عُزَلٌ لا سلاح معهم إلا قليل».

فلما علم ذلك يهود خيبر، أرسلوا إلى غطفان يستمدونهم -لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر، ومظاهرين لهم على المسلمين- وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين[٢].

وصدق الله العظيم حيث قال في وصف المنافقين: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩]، وقال

---

(١) «مختصر السيرة لابن هشام».

(٢) «الرحيق المختوم».

تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة:٦٧- ٦٨]

العنصر الثاني: الجيش الإسلامي في طريقه إلى خيبر.

عباد الله! رجع النبي ﷺ من الحديبية في ذي الحجة من السنة السادسة للهجرة، وبعد شهر واحد خرج بجيش المسلمين إلى خيبر، وهو على يقين من النصر والفتح، لما وعده الله تعالى أثناء عودته من صلح الحديبية.

قال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح:١٨-١٩].

عباد الله! وبينما يسير الجيش المسلم إلى خيبر ذات ليلة إذ قال رجل من الصحابة لعامر بن الأكوع: إلا تسمعنا من هنيهاتك- وكان عامر بن الأكوع رجلاً شاعراً- فنزل يحدو بهم وهو يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأغفر فداءً لك ما اتقينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
وأنزلن سكينةً علينا ... إنا إذا صيح بنا أتينا
وبالصياح عولوا علينا ... وإن أردوا فتنةً أبينا

فقال ﷺ: «من هذا السائق» فقالوا: عامر بن الأكوع.

فقال ﷺ: «يرحمه الله» فقال رجل من القوم: يا رسول الله وجبت -أي:

أنه يزرق الشهادة بدعائك له ووجبت له الجنة- لولا أمتعتنا به»[١].

وكان الصحابة ﷺ يعرفون أن رسول الله ﷺ إذا استغفر لرجل منهم يخصه؛ استشهد، فعلموا أن عامر بن الأكوع سيستشهد في غزوة خيبر.

عباد الله! وكان الصحابة -رضي الله عنهم- إذا صعدوا كبروا، وإذا نزلوا سبحوا[٢].

فأشرفوا على واد فرفعوا صوتهم بالتكبير: الله أكبر. الله أكبر. لا إله إلا الله.

فقال رسول الله ﷺ: «أربعوا على أنفسكم، أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً وهو معكم»[٣].

عباد الله! ولما أشرف الجيش المسلم على خيبر، قال لهم ﷺ «قفوا»، ثم تضرع ﷺ إلى ربه بهذا الدعاء «اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها. ونعوذ بك من شر هذه القرية، وشر أهلها، وشر ما فيها»[٤].

لتعلموا يا أمة الإسلام أن جيش الإسلام ذاكراً لله دائماً في سفره وحضره.

عباد الله! وصل جيش الإسلام إلى أسوار خيبر، وبات ﷺ والمسلمون خارج خيبر، واليهود لا يشعرون، فلما أصبح النبي ﷺ والمسلمون صلوا

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤١٩٦)، ومسلم (رقم ٢٤٧٧).
(٢) رواه البخاري (رقم ٢٩٩٣).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٢٠٥)، ومسلم (رقم ٢٧٠٤).
(٤) حسنه الألباني في «فقه السيرة» (ص ٣٤٠)

الفجر في أول وقته، ثم دخلوا خيبر واليهود خارجون إلى مزارعهم بالآت الزراعة.

فلما رأوا الرسول ﷺ والجيش قالوا: محمد والله، محمد والخميس: -أي الجيش- ثم فروا هاربين، ودخلوا حصونهم كما وصفهم الله في كتابه، فقال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ﴾ [الحشر:١٣-١٤].

عباد الله! فلما رأى الرسول ﷺ ما بهم من الرعب قال: «الله أكبر خربت خيبر، الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم،فساء صباح المنذرين»(١).

الرعب يدب في قلوب الكفار إذا كنا على ديننا، أمَّا إذا تركنا ديننا فقد أخبر النبي ﷺ «ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن».

قالوا: يا رسول الله ! وما الوهن؟

قال ﷺ: «حب الدنيا، وكراهية الموت»(٢).

عباد الله! وتحصنت يهود خيبر في ثمانية حصون أشدها تحصناً هو (حصن ناعم) وكان هذا الحصن هو خط الدفاع الأول لليهود لمكانه (الاستراتيجي).

وكان هذا الحصن هو حصن مرحب اليهودي: ملك اليهود -الذي كان يعد بالألف- أي: كان عندهم بألف رجل-

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٧١)، ومسلم (رقم ١٣٦٥).

(٢) صحيح: مضى تخريجه.

العنصر الثالث: أحداث الغزوة.

عباد الله! في ليلة الهجوم على خيبر، قال رسول الله ﷺ لأصحابه مبشراً لهم بالفتح: «لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه».

فبات الناس يدُوكون -أي: يتهامسون- أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها.

فقال ﷺ: «أين علي بن أبي طالب؟».

فقالوا: يا رسول الله ! هو يشتكي عينيه -أي: به رمد-

فقال ﷺ: «أرسلوا إليه» فأُتي به.

فبصق رسول الله ﷺ في عينيه، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية.

فقال علي رضي الله عنه: يا رسول الله! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟

فقال رسول الله ﷺ «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حمر النعم»[1].

يوجه النبي ﷺ الصحابة إلى أن يحرصوا على دعوة الناس إلى الإسلام، ولا يتطلعوا إلى الغنائم التي بعد الفتح.

عباد الله! أخذ علي رضي الله عنه الراية، وتحرك بجيش المسلمين إلى أول حصن من حصون اليهود، ألا وهو حصن ناعم وهو من أشد حصون اليهود تحصناً،

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٩٤٢)، ومسلم (رقم ٢٤٠٦).

ويوجد فيه مرحب ملك اليهود الذي يعد بالألف.

فدعاهم علي ﷺ للإسلام فرفضوا هذه الدعوة.

وخرج ملكهم مرحب إلى ميدان القتال ودعا إلى المبارزة وهو يقول:

أنا الذي سمتني أمي «مرحب» شاكِي السلاح[1] بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز إليه علي ﷺ وهو يقول:

أنا الذي سمتني أمي حيدره كليث غابات كريه المنظره

أوفيهم بالصاع كيل السندره

-أي: أقتل الأعداء قتلاً واسعاً- فتقدم علي ﷺ إلى مرحب فعلاه بالسيف فقطع رقبته، ثم تقدم نحو حصون اليهود ففتحها حصناً حصناً، وكان الفتح على يد عليٍّ ﷺ.

عباد الله! ولما اطمأن رسول الله ﷺ بخيبر بعد فتحها، أهديت إليه شاه فيها سم من امرأة يهودية، لتعلموا أن اليهود أهل غدر وخيانة ومكر، تعالوا بنا لنستمع إلى أبي هريرة ﷺ وهو يخبرنا الخبر:

يقول أبو هريرة ﷺ «لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم فعرف النبي ﷺ وقال لأصحابه: أمسكوا إنها مسمومة بعد أن مضغ النبي ﷺ منها مضغة.

---

(١) أي تام السلاح.

ثم قال ﷺ: «اجمعوا من كان هاهنا من اليهود».

فجمعوا له: فقال لهم رسول الله ﷺ: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقوني عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: من أبوكم؟

قالوا: أبونا فلان.

فقال رسول الله ﷺ: كذبتم بل أبوكم فلان -لتعلموا أن اليهود أهل الكذب-

فقالوا: صدقت وبررت.

فقال لهم رسول الله ﷺ: من أهل النار؟

فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها.

فقال رسول الله ﷺ: كذبتم، اخسئوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً.

ثم قال لهم: هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟

قالوا: نعم.

فقال ﷺ: هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟

قالوا: نعم.

فقال ﷺ: «ما حملكم على ذلك؟»

قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك»[1].

---

(١) رواه البخاري (رقم ٣١٦٩).

عباد الله! ثم جيء بالمرأة التي وضعت السم في الشاة فسألها رسول الله ﷺ: «لم وضعت السم في الشاة»؟

قالت اليهودية: أردت أن أقتلك؟

فقال ﷺ: «ما كان الله ليسلطك علي».

قال الصحابة -رضي الله عنهم- يا رسول الله؟ أفلا نقتلها؟ قال ﷺ: «لا»[1].

الله أكبر، إنها والله أخلاق النبوة، العفو عند المقدرة.

عباد الله! ثم عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد فتح الله له فتحاً ميناً، ونصره نصراً عزيزاً، وحقق للمسلمين ما وعدهم به: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾.

عباد الله! وقسّم رسولُ الله ﷺ هذه المغانم الكثيرة التي غنمها من يهود خيبر كما أمره الله تعالى، وأثناء القسمة أدركه مهاجره الحبشة، جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فضرب لهم بسهم، ولم يسهم لمن غاب عن خيبر إلا لمهاجرة الحبشة، وكان في السبي صفية بنت حيي بن أخطب فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، ثم دعاها إلى الإسلام فأسلمت فأعتقها رسول الله ﷺ وجعل عتقها صداقها، وبنى بها، وأولم عليها بالتمر والسمن، ولم يكن في وليمتها لحم قط.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٦١٧)، ومسلم (رقم ٢١٩٠).

عباد الله! ولما دخل رسول الله ﷺ على صفية وجد في وجهها خضرةً فقال لها ﷺ: «ما هذا»؟

قالت: رأيت كأن القمر زال من مكانه فوقع في حجري، فذكرت ذلك لزوجي ابن أبي الحقيق اليهودي، فلطمني على وجهي؛ وقال: تمنين هذا الملك الذي بالمدينة -يقصد رسول الله ﷺ- وأنا والله يا رسول الله لا أذكر من أمرك شيئاً[1].

ولكن هذه الرؤيا التي رأتها هي زواجها من النبي ﷺ.

عباد الله! وهكذا فتح رسول الله ﷺ خيبر، واستراح المسلمون من غدر وخيانة اليهود، وليعلم الجميع أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

العنصر الرابع: معجزات النبي ﷺ في غزوة خيبر:

أولاً: إخباره ﷺ باستشهاد عامر بن الأكوع وهم في طريقهم إلى خيبر، وقد حدث ذلك.

ثانياً: إخباره ﷺ بأن من يأخذ الراية غداً سيفتح الله على يديه، ففتح الله خيبر على يديه.

ثالثاً: بصق ﷺ في عين علي بن أبي طالب ﵁، ودعا له فشفي من ألم عينيه كأنما لم يكن بها وجع.

رابعاً: إخباره ﷺ بأن الشاة التي قدمت له مسمومة، عندما قال ﷺ

---

(١) «البداية والنهاية» (١٩٦، ١٩٧)، و«زاد المعاد» (٣/ ٣٢٧).

لأصحابه «أمسكوا فإنها مسمومة».

خامساً: إخباره ﷺ بأن رجلاً ممن معه من الذين خرجوا إلى خيبر من أهل النار.

يقول أبو هريرة ﷺ: خرجنا إلى خيبر، فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه ممن يدعي الإسلام: هذا من أهل النار.

فلما كان القتال، قاتل الرجل أشد ما يكون القتال، وكثرت به الجراحات حتى كاد بعض الناس أن يرتاب، فوجد الرجل ألم الجراحة، فأهوى بيده إلى كنانته فاستخرج منها أسهماً فنحر بها نفسه، فاشتد رجال إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: صدق الله حديثك، انتحر فلان فقتل نفسه.

فقال رسول الله ﷺ: «قم يا فلان فأذن في الناس أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن».

ثم قال الرسول ﷺ: «إن الله ليؤيد الدين بالرجل الفاجر»(١).

اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٠٦٢)، ومسلم (رقم ١١١).

الخطبة الرابعة والأربعون

كُتُبُ رسول الله ﷺ

إلى الملوك والرؤساء يدعوهم فيها إلى الإسلام

أيها الإخوة **عباد الله!** موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك والرؤساء يدعوهم فيها إلى الإسلام.

عباد الله! عندما قال الله -عز وجل- لرسوله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾، وقال له: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾، وقال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦﴾.

قام رسول الله ﷺ بدعوة الناس إلى هذا الدين العظيم، بالليل والنهار، سراً وعلانية، في السلم والحربَ.

ففي صلح الحديبية قال رسول الله ﷺ عندما وصله الخبر أن قريشاً اجتمعت لمنعه من دخول مكة: «إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا -أي قريش- ماددتهم مدة -أي: جعلت بيني وبينهم مدة يترك الحرب بيننا وبينهم فيها- ويخلّوا بيني وبين الناس» -أي: يتركوني أدعو الناس إلى الإسلام، وهذا هو الشاهد على أن رسول الله ﷺ كان حريصاً على دعوة الناس إلى الإسلام في السلم.

وفي غزوة خيبر: قال رسول الله ﷺ لعلي ﷺ: عندما أعطاه الراية

وأرسله إلى خيبر: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم أدعوهم إلى الإسلام» وهذا هو الشاهد على أن رسول الله ﷺ كان حريصا على دعوة الناس إلى الإسلام حتى في أيام الحرب.

عباد الله! وبصلح الحديبية أمن رسول الله ﷺ شر أقوى أعدائه، شر قريش، وبفتح خيبر قضى رسول الله ﷺ على شر اليهود في الجزيرة العربية -من الشمال-، وبذلك استقرت الأوضاع في المدينة، وأمن رسول الله ﷺ والمسلمون على المدينة عاصمة الدولة الإسلامية.

عباد الله! عند ذلك كتب رسول الله ﷺ إلى ملوك ورؤساء الدول الكبرى، كفارس، والروم يدعوهم إلى الإسلام.

عن أنس ﷺ «أن رسول الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر وإلى النجاشي، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه رسول الله ﷺ»[١].

عباد الله! وكسرى هو لقب لكل مَنْ ملك الفرس، وقيصر هو لقب لكل مَنْ ملك الروم، والنجاشي هو لقب لكل مَنْ ملك الحبشة.

عباد الله! وعندما عزم الرسول ﷺ على إرسال الكتب إلى الملوك والرؤساء قيل له: «إن العجم لا يقبلون إلا كتاباً مختوماً، فاتخذ رسول الله ﷺ خاتماً ونقشه محمد رسول الله»[٢].

«فكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر،

---

(١) رواه مسلم (رقم ١٧٧٤).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٦٥)، ومسلم (رقم ٢٠٩٢).

والله سطر»[١].

«وكان رسول الله ﷺ: يجعل هذا الخاتم في الخنصر من يده اليسرى»[٢].

عباد الله! وأول من كتب إليه من الملوك هو هرقل عظيم الروم.

وهذا هو نص الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام -أي بدعوة الإسلام وهي كلمة التوحيد- أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين -الفلاحين- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران:٦٤]»[٣].

عباد الله! وختم رسول الله ﷺ هذا الكتاب، وبعث به دحية الكلبي، فدفعه دحية إلى عظيم بصرى، فسلمه هرقل.

ماذا فعل هرقل عندما وصله الكتاب؟ وماذا كان رده؟

عباد الله! تعالوا بنا لنستمع إلى ابن عباس -رضي الله عنهما- وهو يخبرنا الخبر من فيّ أبي سفيان بن حرب.

يقول ابن عباس -رضي الله عنهما- حدثني أبو سفيان بن حرب من فيه إلى فيّ؛ قال -أي أبوسفيان- انطلقت في المدة التي كانت بيننا وبين رسول الله

---

(١) رواه البخاري (رقم ٥٨٧٨).

(٢) رواه مسلم (رقم ٢٠٩٥).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٧)، ومسلم (رقم ١٧٧٣).

ﷺ -يعني صلح الحديبية- فبينما أنا بالشام إذا جئ بكتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل -يعني عظيم الروم- جاء به دحية الكلبي، فدفعه إلى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل.

فقال هرقل: هل ها هنا أحدٌ من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

قالوا: نعم.

قال: -أي: أبوسفيان- فدُعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل فأجلسنا بين يديه .

فقال: -أي هرقل- أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

قال: أبوسفيان: أنا -يقول أبوسفيان- فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي ثم دعا ترجمانه؟

فقال قل لهم: إني سائل هذا الرجل -يقصد أبا سفيان- عن هذا الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبني، فكذبوه ..

قال أبو سفيان: والله لولا مخافة أن يؤثر عني الكذب، لكذبته -أي: لولا خفت أن رفقتي ينقلون عني الكذب إلى قومي، ويتحدثون به في بلادي، لكذبت عليه، لبغضي إياه -

ثم قال لترجمانه: سلة كيف حسبه فيكم؟

قال أبو سفيان: هو فينا ذو حسب .

قال هرقل: فهل كان مِن آبائه ملك؟

قال أبو سفيان: لا.

قال هرقل: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قال أبو سفيان: لا

قال هرقل: ومن يتبعه؟ أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟

قال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم.

قال هرقل: أيزيدون أم ينقصون؟

قال أبو سفيان: بل يزيدون.

قال هرقل: هل يرتد أحد منهم عن دينه، بعد أن يدخل فيه سخطه له؟

قال أبو سفيان: لا

قال هرقل: فهل قاتلتموه؟

قال أبو سفيان: نعم

قال هرقل: كيف كان قتالكم إياه؟

قال أبو سفيان: تكون الحرب بيننا وبينه سجالاً -يصيب منا ونصيب منه-.

قال هرقل: فهل يغدر؟

قال أبو سفيان: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها، -يقصد بها صلح الحديبية- قال أبو سفيان: ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه-.

قال هرقل: فهل قال هذا القول أحد قبله؟

قال أبو سفيان: لا .

ثم قال هرقل لترجمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه فيكم، فزعمت أنه فيكم ذو حسب، فكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها، وسألتك: هل كان في آبائه ملك، فزعمت أن لا، فقلت: لو كان في آبائه ملك، قلت: رجل

يطلب ملك آبائه، وسألتك عن أتباعه: أضعفاء الناس أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم: وهم أتباع الرسل. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، وقد عرفت انه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله. وسألتك: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخله سخطةً له، فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون وكذلك الإيمان حتى يتم.

وسألتك: هل قاتلتموه؟ فزعمت أن الحرب بينكم وبينه سجال، تنالون منه وينال منكم، وكذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أن لا يغدر وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: هل قال هذا القول أحد قبله؟ فزعمت أن لا.

فقلت: لو كان قال هذا القول أحد قبله، قلت: رجل يأتم بقول قيل قبله.

ثم قال هرقل: بم يأمركم؟

قال أبو سفيان: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف.

قال هرقل: إن يكن ما تقول فيه حقاً؛ فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه، لأحببت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم».

سلام على ما تبع الهدى .. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم

تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾. فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده، وكثر اللغط -وهي الأصوات المختلطة- وأمر بنا فأخرجنا. فقال أبو سفيان: فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أَمِرَ أمرُ ابن أبي كبشة -أي: عظم أمر رسول الله ﷺ. إنه ليخافه ملك بني الأصفر- يعني الروم. قال أبوسفيان: فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام»[١].

عباد الله! وكتب رسول الله ﷺ إلى كسرى ملك الفرس يدعوه إلى الإسلام، وهذا هو نص الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين. فأسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس»[٢].

عباد الله! عندما وصل الكتاب إلى كسرى مزقه.

---

(١) تقدم قريباً.

(٢) قال الشيخ الألباني: حديث حسن انظر «فقه السيرة» (ص٣٦٨).

فلما وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ قال: «مزق الله ملكه»[1].

فاستجاب الله لدعاء رسوله ﷺ ومزق ملك كسرى، وذلك عندما قام ابنه بقتل إخوته ثم قتل والده ليرث الملك وحده ثم بعد ذلك بقليل مات هذا الابن فتمزق ملك كسرى جزاءً وفاقاً ولا يظلم ربك أحداً.

عباد الله! أما الفوائد والدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك والرؤساء فهي كثيرة جداً منها:

أولاً: محمد رسول الله ﷺ بُعث بالإسلام إلى الناس كافة، والدليل على ذلك في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

والدليل على ذلك من السنة:

قوله ﷺ «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»[2].

الشاهد أرسلت للناس كافة.

ويؤخذ أيضاً من رسائله ﷺ إلى الملوك والرؤساء والقادة، في داخل الجزيرة وخارجها يدعوهم فيها إلى الإسلام، ويقول: «فإني أنا رسول الله إلى

---

(١) رواه البخاري (رقم ٦٤).

(٢) رواه مسلم (رقم ٥٢٣).

الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين».

ثانياً: الكذب خلقٌ قبيح في الجاهلية، وقبيح وحرام في الإسلام. ويؤخذ هذا من قول أبي سفيان عندما سأله هرقل فقال: «فوالله لولا الحياء مِنْ أن يأثروا عليَّ كذباً لكذبت عليه».

فيا أمة الإسلام! الكذب قبيح في الجاهلية وقبيح عند الكفار، أما يستحي المسلم الذي يصلي ويصوم أن يكذب على الله، وعلى رسول الله، وعلى الناس.

وقد جاء الإسلام يأمر بالصدق ويحذر من الكذب، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

وقال ﷺ: «عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر ..»(١).

ثالثاً: المؤمن الصادق إذا تمكن الإيمان من قلبه لا يرتد عن دينه أبداً، وإن نشر بالمناشير ومشط بأمشاط الحديد، وهذا يؤخذ من قول هرقل: «سألتك هل يرتد أحدٌ منهم سخطه عن دينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، أما المنافقون والذين في قلوبهم مرض، والذين دخلوا في الإسلام طمعاً في الدنيا الفانية، فهم الذين يرتدون عن دينهم، وفيهم قال تعالى لرسوله ﷺ ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٦٠٩٤)، ومسلم (رقم ٢٦٠٧).

يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠]، وقال تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج:١١].

وقال ﷺ: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، أويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»(١).

أما المؤمنون الصادقون؛ فقد قال الله تعالى في وصفهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات:١٥].

وقال ﷺ لخباب بن الأرت ﷺ: «قد كان قبلكم يؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها ثم يؤتي بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»(٢).

رابعاً: الإسلام دين الله، ومن وقف في وجه دعوة الإسلام دمره الله،

---

(١) رواه مسلم (رقم ١١٨).

(٢) رواه البخاري (رقم ٣٦١٢).

وهذا يؤخذ من رسالته ﷺ إلى كسرى عظيم فارس عندما مزقها فدعا عليه النبي ﷺ فمزق الله ملكه.

وهذا الذي فعله الله في جميع الأمم السابقة عندما وقفت في وجه دعوة الإسلام.

قوم نوح عندما وقفوا في وجه الإسلام الذي جاء به نوح عليه السلام أبادهم الله.

عاد عندما وقفوا في وجه الإسلام الذي جاء به هود عليه السلام أبادهم الله.

ثمود عندما وقفوا في وجه الإسلام الذي جاء به صالح عليه السلام أبادهم الله.

فرعون عندما وقف في وجه الإسلام دمره الله.

قريش عندما وقفت في وجه الإسلام ودعوة رسول الله ﷺ دمرهم الله.

فليحذر الذين يكيدون للإسلام فإن الله -عز وجل- يقول في كتابه، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾ [الطارق:١٥- ١٧].

اللهم دمر كلَّ من وقف في وجه الإسلام .

الخطبة الخامسة والأربعون

غزوة مؤتة

أيها الإخوة **عباد الله!** موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ. وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن غزوة مؤتة.

عباد الله! غزوة مؤتة وقعت في السنة الثامنة للهجرة وكانت نصراً وفتحاً للمسلمين، لأن الرسول ﷺ قال: «فأخذ الراية خالد ففتح الله عليه».

غزوة مؤتة رفعت من شأن المسلمين، وقذفت الرعب في قلوب الكافرين.

عباد الله! وحديثنا عن غزوة مؤتة سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: سبب هذه الغزوة.

العنصر الثاني: رسول الله ﷺ والجيش الإسلامي في المدينة قبل التحرك إلى الشام.

العنصر الثالث: الجيش الإسلامي في طريقه إلى أرض الشام.

العنصر الرابع: أحداث الغزوة.

العنصر الخامس: الفوائد والدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من غزوة مؤتة.

العنصر الأول: سبب هذه الغزوة.

سبب هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني -أحد أمراء قيصر إلى

أرض الشام- فأوثقه رباطاً، ثم قدمه فضرب عنقه. ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين نُقلت إليه الأخبار لأن الرسل لا يُقتلون، فجهز لغزو الروم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وهو أكبر جيش إسلامي لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب[1].

العنصر الثاني: رسول الله ﷺ والجيش الإسلامي في المدينة قبل التحرك إلى الشام.

عباد الله! أَمَّرَ رسول الله ﷺ على هذا الجيش الكبير زيد بن حارثة ﷺ وقال ﷺ للجيش: «إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحه»[2].

ووصى رسول الله ﷺ الأمير في خاصة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً، وكان ﷺ يفعل ذلك دائماً إذا أرسل جيشاً في سبيل الله .

عن بريدة ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّرَ أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ..» الحديث[3].

عباد الله! وودع المسلمون الجيش، وسلموا على الأمراء فبكى عبدالله بن رواحه ﷺ فقالوا له: ما يبكيك يا ابن رواحه؟

فقال: والله ما بي حب الدنيا ولا صبابه بكم، ولكني سمعت رسول الله

---

(١) «الرحيق المختوم» (ص ٣٦٩)، «زاد المعاد» (٣/ ٣٨١).
(٢) رواه البخاري (رقم ٤٢٦١).
(٣) رواه مسلم (رقم ١٧٣١).

ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ۝٧١﴾ [مريم:٧١]، فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟

فقال المسلمون للجيش: صحبكم الله بالسلامة، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين -أي: سالمين-.

فقال عبدالله بن رواحه يرد على هذا الوداع:

ولكنني أسألُ الرحمن مغفرةً وضربةً ذات فرغ[١] تقذف الزَّبدا
أو طعنةً بيدي حَرَّان مجهزة بحربةٍ تنفذ[٢] الأحشاء والكبدا
حتى يُقال إذا مرُّوا على جَدثي[٣] يا أرشد الله من غازٍ وقد رشدا[٤]

عباد الله! وودع النبي ﷺ جيش المسلمين.

وكان النبي ﷺ إذا أراد أن يستودع الجيش: قال «أستودع الله دينكم وأمانتكم وخواتيم أعمالكم»[٥].

العنصر الثالث: الجيش الإسلامي في طريقه إلى أرض الشام:

عباد الله! تحرك الجيش الإسلامي بقيادة زيد بن حارثة -رضي الله عنه- قاصدين أرض الشام، فلما وصلوا إلى «معان» -وهي مدينة معروفة على الحدود

---

(١) أي ذات سعة.

(٢) أي تخترق.

(٣) أي قبري.

(٤) «زاد المعاد» (٣/ ٣٨٢).

(٥) «صحيح سنن أبي داود» (٢٢٦٦).

الأردنية-، وصلتهم الأخبار أن الروم قد تجهزوا لهم بمئتي ألف مقاتل لقتالهم؛ مائة ألف من الروم، ومائة ألف أخرى من نصارى العرب.

عباد الله! وجيش المسلمين ثلاثة آلاف مقاتل فقط، وكأن النسبة واحد إلى سبعين. وبات الجيش الإسلامي بمعان ليلتين يتشاورون في الأمر، أيتقدمون للهجوم على عدوهم على بركة الله، معتصمين بالله، واثقين به؟ أم يبعثون إلى رسول الله ﷺ من يخبره الخبر فيرى رأيه، فإما أن يمدهم بمدد من عنده، وإما أن يأمرهم بأمره فيمضوا له.

فقام عبدالله بن رواحه ﷺ خطيباً في الجيش فقال: يا قوم: والله إن الذي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وإنا ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظفر -أي نصر- وإما شهادة.

فقال الناس: صدق والله ابن رواحه، ثم تشجعوا وتحركوا نحو العدو[1].

العنصر الرابع: أحداث الغزوة:

عباد الله! وصل جيش الإسلام إلى «مؤتة» وعسكروا هناك، وتعبأوا للقتال في ثلاثة آلاف مقاتل، ووصل جيش الروم بقوته في مئتي ألف مقاتل يقول أبو هريرة ﷺ -وهو ممن أسلموا بعد صلح الحديبية، وكانت مؤتة أول غزوة يحضرها-: «شهدت مؤتة فلما دنا المشركون -أي الروم- رأيت ما لا قبل لأحد به، رأيت عدداً وعدةً وسلاحاً وخيلاً، وديباجاً وحريراً وذهباً، فبرق بصري.

فقال لي ثابت بن أرقم: يا أبا هريرة كأنك ترى جُموعاً كثيرة؟

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٣٨٢)، «مختصر سيرة ابن هشام» (ص ٢١٥).

قال: إي والله.

فقال له ثابت: إنك لم تشهد معنا بدراً، إنا لا نُنصر بالكثرة»[١].

وصدق ثابت - ﷺ لأن الله قال في كتابه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال:٢٦].

عباد الله! وهناك في «مؤتة» التقى الجمعان، وبدأ القتال المرير، ودخل ثلاثة آلاف مقاتل من المسلمين في مئتي ألف مقاتل من المشركين، معركة عجيبة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجائب.

عباد الله! أخذ الراية زيد بن حارثة ﷺ حب رسول الله ﷺ وجعل يقاتل بضراوة وبسالة لا يوجد لها نظير إلا في أمثاله من أبطال الإسلام، فلم يزل يقاتل حتى شاط في رماح القوم -أي: سال دمه- فقتل ﷺ.

ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب ﷺ ابن عم النبي ﷺ، فقاتل على فرسه الشقراء حتى أرهقه القتال، فنزل عن فرسه فعقرها -أي: ضرب قوائمها بالسيف وهي قائمة- ورفع الراية بيده، والسيف في يده الأخرى وأخذ يقاتل القوم وهو يقول:

---

(١) «البداية والنهاية» (٤/ ٢٤٤) وعزاه للبيهقي.

يـا حبـذا الجنـة واقترابـها طيبـة وبـارداً شرابـها
والـروم روم قـد دنـا عذابـها كـافرة بعيـدة أنسـابها
علـيَّ إن لاقيتها ضِرابها

عباد الله! فما زال ﷺ يقاتل القوم حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله فقطعت شماله، فاحتضن الراية بعضديه حتى قتل ﷺ، فعوضه الله عن يديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء.

«ولذلك كان ابن عمر - رضي الله عنهما - إذا سلم على عبدالله بن جعفر بن أبي طالب يقول: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين»[(١)].

ولذلك لقب جعفر بن أبي طالب بجعفر الطيار.

عباد الله! يقول ابن عمر -رضي الله عنهما- «وقفت على جعفر يومئذ، وهو قتيل فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره - يعني في ظهره»[(٢)].

وفي رواية أخرى: يقول ﷺ «كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورميةٍ»[(٣)].

عباد الله! لما قتل جعفر بن أبي طالب أخذ الراية عبدالله بن رواحه الأمير الثالث المعين بأمر رسول الله ﷺ فرفعها، فوجد في نفسه تردداً عن

---

(١) رواه البخاري (رقم ٣٧٠٩).
(٢) رواه البخاري (رقم ٤٢٦٠).
(٣) رواه البخاري (رقم ٤٢٦١).

الاقتحام فأكرهها على النزول وقال:

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلنّه إن أجلب الناسُ وشدُّوا الرنَّه
لتنزلنه أو لتكرهنّه مالي أراك تكرهين الجنة

وقال أيضاً:

يا نفسُ إلا تُقتلي تموتي! هذا حمام الموت قد صليت!
وما تمنيت فقد أُعطيت! إن تفعلي فعلهما هُديت!

ثم نزل، فأتاه ابن عم له بِعَرْقٍ من لحم فقال: شُدَّ بهذا صلبك فقد لقيت ما لقيت، فنهس منه نهسه، ثم سمع جلباً -أي صوتاً- فقال: وأنت في الدنيا -يعني القتال دائر بين المسلمين والمشركين وأنت يا ابن رواحه في الدنيا -ثم رمى بقطعة اللحم، وأخذ سيفه، ودخل في صفوف المشركين فقاتل حتى قتل- ﷺ.

عباد الله! تقدم ثابت بن أرقم ﷺ فرفع الراية وقال: يا قوم اصطلحوا على أميرٍ منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، لست لها، فاصطلح الناسُ على خالد بن الوليد ﷺ وكانت هذه الغزوة أول غزوة يشهدها خالد في صفوف المسلمين، لأنه أسلم بعد صلح الحديبية.

عباد الله! أخذ خالد ﷺ الراية وقاتل قتالاً مريراً.

يقول خالدٌ ﷺ: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤته تسعة أسياف فما بقي في يدي إلا صفيحة لي يمانية»[1]، ولذلك سماهُ رسول الله ﷺ يومها سيف الله،

---

(١) رواه البخاري (٤٢٦٦).

قال ﷺ: «فأخذها سيف من سيوف الله ففتح الله له»(١).

عباد الله! ولما كان الليل أعاد خالد بن الوليد ﷺ تنظيم الجيش وغير فيه وبدل، فجعل الميمنة ميسرة، والميسرة ميمنة، والمقدَّمة ساقة، والساقة مقدمة، ووضع خطة للانسحاب بالجيش في صباح اليوم التالي في عزة وكرامة دون أن يُشعر العدو أنه منسحب، فلما طلع النهار وتراءى الجمعان رأى العدو أن الجيش قد تغير وتبدّل، فقذف اللهُ الخوف في قلوب الكفار، فظنوا أن خالداً قد أُمِدَّ بمددٍ من المدينة لأنَّ صورة الجيش قد تغيرت، وأخذ خالد يقاتل وهو يرجع إلى الوراء بالجيش قليلاً قليلاً قليلاً، فألقى الله الرعب أيضا في قلوب الكفار، وظنوا أن خالداً يريدُ استدراجهم ليبيدهم، فانسحبوا قبل المسلمين، وقتل المسلمون من المشركين كثيراً، وأوقع جيش الإسلام بالعدو خسائر كبيرة، وولّى العدو مهزوماً واكتفى خالد بهذه النتيجة، وآثر الانصراف بمن معه.

وكانت النتيجة في غزوة مؤته لصالح المسلمين، وكانت نصراً وفتحاً.

عباد الله! ومن أرض المعركة بمؤته إلى المدينة حيث قام رسول الله ﷺ يخبر المسلمين في المدينة بنتائج المعركة.

يقول أنس ﷺ: خطب النبي ﷺ فقال: أخذ الراية زيدٌ فأصيب -أي: قتل-، ثم أخذها جعفر فأصيب -أي: قتل- ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب -أي: قتل- ثم أخذها خالد بن الوليد مِن غير إمره ففتح الله له وعيناه تذرفان(٢).

عباد الله! فلما جاءه من يخبره قال النبي ﷺ: تُخبرني أم أُخبرك؟

---

(١) رواه البخاري (٤٢٦٢).

(٢) رواه البخاري (رقم ٤٢٦٢).

قال: أخبرني أنت يا رسول الله؟ فأخبره بما كان، فقال الصحابيُّ: والله يا رسول الله ما نقصت مما دار حرفاً. قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [النجم:٣-٤][1].

العنصر الخامس: الفوائد والدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من غزوة مؤتة:

أولاً: المسلمون ينتصرون على أعدائهم في المعارك بالإسلام العظيم الذي أكرمهم الله به، وهذا يؤخذ من قول عبد الله بن رواحة ﷺ عندما قال لأصحابه في غزوة مؤته: والله ما نقاتل القوم - أي العدو - بعدَّة ولا عدد ولا كثرة، والله ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فامضوا يا قوم على بركة الله، فهي والله إحدى الحسنيين: إما الظفر وإما الشهادة».

ويؤخذ أيضاً من قول ثابت ﷺ لأبي هريرة عندما قال له: «يا أبا هريرة كأنك ترى جُموعاً كثيرة. قال أبو هريرة: أي والله، قال ثابت: إنك لم تشهد معنا بدراً، إنا لا ننصر بالكثرة».

ففي بدرٍ نصر الله المسلمين وهم قلة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣].

ويوم حنين أُعجب المسلمون بكثرتهم فلم تُغنِ عنهم شيئاً.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٣٨٤).

مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٦﴾ [التوبة:٢٥-٢٦].

فالنصر من عند الله تعالى؛ ولو كان المسلمون قلة إذا رجعوا إلى دينهم ونصروا الله في أنفسهم، قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٢٦].

وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران:١٦٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨﴾ [محمد:٧-٨].

وقال ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد في سبيل الله سلط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»(١).

ثانياً: رحمة النبي ﷺ بالمسلمين، ويؤخذ ذلك من حزنه وبكائه عندما نعى الأمراء الذين استشهدوا في غزوة مؤته، وعيناه تذرفان -أي تدمعان-.

عباد الله! وقد تكرر ذلك منه ﷺ، يوم أرسلت إليه إحدى بناته تقول له: إن ابني قد احتُضر فاشهدنا، فردّ مع رسولها يقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيءٍ عنده بأجل مسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب». فأرسلت إليه تُقسمُ عليه ليأتينها، فأتاها في نفرٍ من أصحابه، فرُفع إليه

---

(١)«السلسلة الصحيحة» (رقم ١١)، «صحيح الجامع» (٤١٦).

الصبيّ ونفسه تقعقع، فذرفت عيناه ﷺ فقيل له: ما هذا يا رسول الله؟ فقال: «هذه رحمة، جعلها الله في قلوب من شاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[1].

ولما دخل ﷺ على ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه بكى أيضاً وقال: «إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزنون ولا نقول إلا ما يرضى ربنا»[2]، كيف لا والله -عز وجل- يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾.

وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝١٢٨﴾ [التوبة:١٢٨].

عباد الله! وفي هذا دلالة على جواز البكاء والحزن على الميت من غير نياحة، ولا رفعٍ للصوت لأن ذلك حرامٌ.

ثالثا: معجزات النبي ﷺ في غزوة مؤتة.

المعجزة الأولى: أنه حين عيّن الأمراء أشار من طرفٍ خفيٍّ إلى استشهادهم حيث أمّر زيد بن حارثة ثم قال، فإن أصيب فجعفر، ثم قال: فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة.

المعجزة الثانية: أن الله أطلعه على كل ما دار في أرض المعركة بمؤته، وأراهُ ما كان فيها، فنعى الشهداء إلى أهليهم قبل أن يأتيه الخبر من أرض المعركة.

اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٢٨٤)، ومسلم (رقم ٩٢٣).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٣٠٣)، ومسلم (رقم ٢٣١٥).

الخطبة السادسة والأربعون

الفتح الأكبر (فتح مكة)

أيها الإخوة عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن الفتح الأكبر (فتح مكة).

عباد الله! فتح مكة: هو الفتح الأعظم الذي أعزّ الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، فتح مكة هو الفتح الأكبر الذي استنقذ الله به بلده الحرام وبيته الذي جعله هدى للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين.

فتح مكة: هو الفتح الذي دخل الناس به في دين الله أفواجاً

قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [سورة النصر]

فتح مكة هو الفتح الذي تحطمت فيه الأصنام، وزهق فيه الباطل، وانكسرت رؤوس الكفر، وعلت فيه كلمة التوحيد في مكة خاصة وفي كل الدنيا عامة، قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ [الإسراء:٨١].

عباد الله! وحديثنا عن فتح مكة سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: سبب هذا الفتح.

العنصر الثاني: رسول الله ﷺ يستعد للخروج إلى مكة في سريةٍ تامةٍ.

العنصر الثالث: رسول الله ﷺ والجيش الإسلامي في طريقهم إلى مكة وأحداث الطريق.

العنصر الرابع: أحداث الفتح.

العنصر الخامس: الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من فتح مكة.

العنصر الأول: سبب هذا الفتح

صَالَحَ النبي ﷺ قريشاً صلح الحديبية، وأعطاهم فيه كل ما سألوه مما يعظم حرمات الله، وكان من بنود هذا الصلح:

أولاً: وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين.

ثانياً: من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءاً من ذلك الفريق، فأي عدوان تتعرض له أي من تلك القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريق، وحسب هذا البند دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ودخلت بنو بكر في عهد قريش.

عباد الله! وظل رسول الله ﷺ وفياً لقريش بعدها، ملتزماً بكل شروط الصلح، حتى إذا كانت السنة الثامنة للهجرة عَدَتْ بنو بكر حليفة قريش على خزاعة حليفة رسول الله ﷺ، وقتلت منهم رجالاً، وعاونتهم قريش على هذا الاعتداء فنقضت بذلك عهدها مع رسول الله ﷺ، وتعرف قريش أن هذا نقض صريح لصلح الحديبية، وعدوان سافرٌ على حلفاء المسلمين؛ ولذلك رأى النبي ﷺ أن الوقت قد حان للقضاء على قريش.

العنصر الثاني: رسول الله ﷺ يستعد للخروج إلى مكة في سرية تامة.

عباد الله! أصدر رسول الله ﷺ أمره للجيش المسلم بالتجهيز والاستعداد للخروج للغزو، ولم يُعلمهم بوجهته، وحرص ﷺ على السرية التامة لئلا تستعد قريش للقتال، وقد استنفر رسول الله ﷺ القبائل التي حول المدينة:

أسلمُ وغفار وَمُزينه وجهينة وأشجع وسليم وخرج المهاجرون والأنصار فلم يتخلف منهم أحد.

عباد الله! وقد بلغ عـدد الجيـش الإسـلامي عشـرة آلاف مقـاتل، وهـذا العدد الكبير يدل على تعاظم قوة المسلمين ما بين صلح الحديبية وفتح مكة.

عباد الله! ولما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكـة، كتـب أحـد الصحابـة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمـر في المسـير إليهم لغزوهم، وحملت الكتاب إمـرأةٌ، إلا أن الوحـي مـن السـماء كـان إلى رسول الله ﷺ أسـبق مـن الكتـاب إلى قريـش، فبعـث رسـول الله ﷺ مـن أصحابه من أتاه بهذا الكتاب الذي بعث إلى قريش.

عباد الله! تعالوا بنا إلى عليٍّ بن أبي طالب ﷺ لنستمع إليه وهو يخبرنا الخبر:

يقول عليٌّ ﷺ: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال ﷺ: «انطلقـوا حتى تأتوا روضة خاخ -مكان بين مكة والمدينة وهو من المدينة أقرب- فإن بها ظعينة -امرأة في هودج- معها كتاب من حاطب فأتوني به».

قال عليٌّ: فانطلقنا تتعادى (أي تجري) بنا خيلُنا حتى أتينـا روضـة خـاخ فإذا نحن بالظعينة فقلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي من كتـابٍ، فقلنـا: لتخرجنَّ الكتاب أو لَنُلْقِين الثياب، فأخرجته من عِقاصِها -ضفائرها- فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبـي بلتعـة إلى نفـر مـن قريـش، يخبرهم فيه ببعض أمر رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: «ما هذا يا حاطب؟»

فقال: يا رسول الله لا تعجل عليّ! ما فعلته كفراً بعد الإسـلام، ولا ردَّة عن الدين بعد إذ هداني اللهُ إليه، ولكني كنـت امـرءاً مُلصقـاً في قريـش ولم

أكن مِن أنفسهم، وما من أحدٍ من أصحابك إلا لـه أهـلٌ في قريـش يحمـون ماله وأهله، فأردت إن فاتني ذلك من النسب أن أتخذ بهذا الكتـاب عندهـم يداً يحمون بها أهلي ومالي.

فقال رسول الله ﷺ:«إنه قد صَدَقكُم».

فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عُنق هذا المنافق.

فقال ﷺ: يا عمر أو ليس قد شهد بدراً؟

وما يدريك لعلَّ الله قد اطلع على أهل بدرٍ فقال اعملـوا مـا شئتـم فقـد غفرتُ لكم، فأنزل الله -تبارك وتعالى - في حـاطب بـن أبـي بلتعـه وكتابـه الذي بعث به إلى قريش سورة الممتحنة.

قـــال تعـــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾ [الممتحنة:١][(١)].

عباد الله! وهكذا أخفى الله -تبـارك وتعـالى- عـن قريـش خـبر خـروج رسوله ﷺ إليهم، وكذلك ما يستطيع أحد أبـداً أن يتكلـم في حق حـاطب الصحابي الجليل ﷺ لأنه شهد بدراً وشفعت له حسنته الكبـيرة بشـهوده في بدر ما فعل.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٠٠٧)، ومسلم (رقم ٢٤٩٤).

العنصر الثالث: رسول الله ﷺ والجيش الإسلامي في طريقهم إلى مكة وأحداث الطريق.

عباد الله! خرج رسول الله ﷺ بالجيش الإسلامي من المدينة، في رمضان من السنة الثامنة للهجرة في عشرة آلاف مقاتل.

وخرج ﷺ صائماً، وصام الجيش معه، حتى إذا كان بالكديد -مكان بين مكة والمدينة- أفطر ﷺ وأظهر فِطرهُ أمام الجيش ليروه ليقتدوا به فيفطروا، فلما رأوه قد أفطر أفطروا، ومازال رسول الله ﷺ يفطر في رمضان عام الفتح، ويقصر الصلاة حتى رجع إلى المدينة.

عباد الله! الجيش الإسلامي بقيادة رسول الله ﷺ في طريقه إلى مكة.

وفي الطريق: يلتقي العباس بن عبد المطلب عمُّ رسول الله ﷺ بجيش المسلمين، وذلك عندما خرج العباس بعياله مُهاجراً من مكة إلى المدينة، وهو لا يدري أن رسول الله ﷺ قادمٌ من المدينة فلقي رسول الله ﷺ في الطريق فلزمه، وكان العباس مسلماً ولكنه كان مقيماً في مكة.

عباد الله! وفي الطريق: نزل رسول الله ﷺ بجيش المسلمين في مكان بالقرب من مكة يُسمى «مرَّ الظهران» بالليل. فنزل الجيش، ونصبت الخيام، وأُوقدت النيران في معسكر يضم عشرة آلاف مقاتل، حتى أضاء منها الوادي، وفي هذه الليلة خرج أبو سفيان عظيم قريش وحكيم بن حزام وبُديل بن ورقاء يلتمسون الأخبار، فلما رأوا تلك النار قال أبو سفيان: كأنها نيران عرفة، فقال حكيم بن حزام: كأنهم بنو عمرو فقال أبو سفيان: بنو عمرو أقل من هذا.

وبينما هم يتحدثون إذ مرَّ عليهم عيون رسول الله ﷺ فأخذتهم إلى رسول الله ﷺ، فوقع ثلاثة من كبراء مكة أسرى للجيش الإسلامي.

هذا أبو سفيان الذي قال في غزوة أُحد: أعل هُبل، أبو سفيان الذي قال في غزوة أحد لنا العُزى ولا عزى لكم، فها هو بين يدي رسول الله ﷺ أسيراً.

فما تظنون أن يفعل به رسول الله ﷺ؟ دعاه ﷺ طوال الليل إلى الإسلام فأسلم أبو سفيان.

عباد الله! تعالوا بنا لنستمع إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - وهو يخبرنا الخبر:

يقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: لما نزل رسول الله ﷺ «مرَّ الظهران»، قال العباس: والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن تستأمنه قريش لقد هلكت قريش.

فركب العباس بغلة رسول الله ﷺ وانطلق يبحث عن ذي حاجةٍ يأتي مكة، فيأمرهم أن يخرجوا إلى رسول الله ﷺ فيستأمنوه قبل أن يدخل عليهم مكة.

قال العباس: فبينما أنا أسيرُ إذ سمعت صوت أبي سفيان وبُديل بن ورقاء يتحدثان.

فقلت: أبا سفيان، فعرف صوتي فقال: العباس، فقلت: نعم.

قال أبو سفيان: مالك فداك أبي وأمي؟ قال العباس: رسول الله والناسُ.

قال أبو سفيان: ويحك فما الحيلة؟

قال العباس لأبي سفيان: اركب ورائي، فركب وراءه فأتى به النبي ﷺ فأسلم.

فقال العباس للنبي ﷺ: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له منه شيئاً.

فقال النبي ﷺ: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»(١).

فأراد أبو سفيان أن ينصرف فيأتي أهل مكة فيخبرهم؛ فقال النبي ﷺ للعباس: «يا عباس أحبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها».

قال العباس: فانطلقت بأبي سفيان فحبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه، فجعلت القبائل تمرُّ علينا قبيلةً بعد قبيلةٍ، كلما مرت قبيلة سألني أبو سفيان: من هؤلاء؟ أقول بني سُليم، يقول:ماليَ ولبني سُليم ثم تمر القبيلة فيقول من هؤلاء؟ أقول مُزينة، يقول: مالي ولمزينة، فجعلت القبائل تمرُّ قبيلة قبيلة، كلما رأى قبيلة قال: يا عباسُ من هؤلاء؟ أقول بني فلان، يقول ماليَ ولبني فلان، حتى مرَّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء معه الأنصار والمهاجرون لا تُرى منهم إلا الأعين فلما رآهم أبو سفيان قال: يا عباس من هؤلاء؟

قلت: هذا رسول الله ﷺ معه المهاجرون والأنصار.

قال أبو سفيان: يا عباس! ما لأحدٍ بهؤلاء من قبل ولا طاقة.

ثم قال أبو سفيان: يا عباس! لقد أصبح ملك ابن أخيك الآن عظيماً.

فأراد العباس أن يصحح هذه المفاهيم لأبي سفيان فقال له: يا أبا سفيان ليس الملك ولكنها النبوة؛ ليعلم الجميع أن محمداً ﷺ ما جاء يوماً يبحث عن الملك ولا عن الدنيا إنما جاء بالنبوة ليدعو الناس إلى هذا الدين العظيم.

---

(١) رواه مسلم (رقم ١٧٨٠) وانظر «صحيح أبي داود» (٢٦١١).

قال العباس له: ويحك! النجاة النجاة ! أدرك قومك.

فانطلق أبو سفيان ليأتي أهل مكة ليخبرهم بخبر رسول الله ﷺ، فلما دخل مكة صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش! إنَّ محمداً قد جاءكم بما لا قبل لكم به اليوم ولا طاقة.

فأقبلت إليه هندُ بنت عتبة زوجته تأخذ بشاربه؛ وتقول: اقتلوا الأحمق، قبَّحك الله من طليعة قوم.

فقال أبو سفيان: يا معشر قريش لا تغرنكُم هذه ولا مقالُها، بادروا، من دخل دار أبي سفيان فهو آمنٌ.

قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟

قال لهم أبو سفيان: ومن أغلق عليه داره فهو آمنٌ، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى المسجد وأغلق بعضهم عليه داره»[1].

العنصر الرابع: أحداث الفتح

عباد الله! قسم النبي ﷺ جيش المسلمين إلى ميمنة وميسرة وقلب، وعين ﷺ قادة الجيش كلٌ في مكانه.

ودخل النبي ﷺ مكة فاتحاً منتصراً، مؤيداً من الله -تبارك وتعالى- وكان ﷺ خاشعاً لله، شاكراً لأنعمه، يقرأ سورة الفتح، ويرجِّع في قراءتها وهو على راحلته.

عباد الله! وكانت قريش قد وبَّشت أوباشاً -أي: جمعت جموعاً متفرقة من

---

(١) «البداية والنهاية» (٤/ ٢٩٠و٢٩١).

قبائل متفرقة لا أنساب بينهم- وقالت قريش: نقدِّم هـؤلاء الأوبـاش -أي: نجعلهم في المقدمة- فإن أصابوا -أي انتصروا- كنا معهم، وإن أُصيبوا -أي قُتلوا- أعطينا الذي سئلنا -أي: صالحنا المسلمين-

عباد الله! تعالوا بنا لنستمع إلى أبي هريرة ﷺ وهو يخبرنا الخبر، يقول أبو هريرة: دخل رسول الله ﷺ مكة فنظر فرآنـي فقـال: «يـا أبـا هريـرة نـادِ في الأنصار لا يأتيني إلا أنصاري».

قال أبو هريرة: فاجتمعوا حوله، فأقاموا به.

فقال ﷺ: «أرأيتم إلى أوباش قريش، احصدوهم حصداً ولا تبقـوا منـهم أحداً، ووضع يمينه على شماله».

قال أبو هريرة: فانطلقنا فما شاء أحدٌ منا أن يقتل أحـداً منـهم إلا قتلـه، وما فعلوا بنا شيئاً.

فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله أُبيدت خضراء قُريـش، لا قريـش بعد اليوم.

ثم قال أبو سفيان: من دخل دار أبي سفيان فـهو آمـن، ومـن أغلـق عليـه داره فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فردَّد رسول الله ﷺ مقولة أبي سفيان -تأكيداً وإقراراً لها- فقـال ﷺ: «مـن دخـل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن».

فلما سمع الأنصار مقولة رسول الله ﷺ قالوا فيما بينهم:

أمَّا الرجل -يعنون رسول الله ﷺ- فأدركته رغبة في قريتــه -أي: مكـة- وأسرُّوها في أنفسهم، والله سميعٌ عليمٌ فأوحى الله بها إلى رسوله ﷺ.

فقال ﷺ: «يا معشر الأنصار ! قلتم أمَّا الرجل فأدركته رغبة في قريته؟».

قالوا: إي والله يا رسول الله، لقد قلنا هذا.. يعزُ علينا أن تتركنا يا رسول الله وتقيم في أهلِك، فقال ﷺ: «إن الله ورسوله يُصدِّقانكم ويعذرانكم»، ثم قال ﷺ لهم: «كلا، ما أفعل الذي ظننتم، إني رسول الله هاجرتُ إلى الله وإليكم، المحيا محياكم، والممات مماتكم».

عباد الله! وأمر رسول الله ﷺ جيش المسلمين بتحطيم الأصنام، وتطهير البيت الحرام منها، وشارك ﷺ في ذلك بيده، فكان يهوي بقوسه إليها فتتساقط على الأرض تحت الأقدام وهو يقرأ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ وكانت الأصنام ستين وثلاث مئة.

عباد الله! ولطخ النبي ﷺ صور إبراهيم وإسماعيل وإسحق وهم يستقسمون بالأزلام -وكانت هذه الصور داخل الكعبة- وقال ﷺ: قاتلهم الله ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام.

ولم يدخل الرسول ﷺ الكعبة إلا بعد أن محيت هذه الصور منها، ثم دخل ﷺ الكعبة فصلى فيها ركعتين، ثمَّ استلم الرسول ﷺ الحجر الأسود، وطاف بالبيت سبعاً مهللاً مكبراً ذاكراً شاكراً، فلما فرغ ﷺ من الطواف بالبيت سبعاً، رقي الصفا فاستقبل الكعبة وهلَّل وحمد الله، وأثنى عليه، ومجدَّه بما هو أهله ودعا بما شاء الله أن يدعو به، ولم يطف بين الصفا والمروة لأنه لم يكن محرماً بعمرة[1].

عبادة الله! وأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فوق ظهر الكعبة، فيؤذن

---

(١) انظر «صحيح مسلم» (رقم (١٣٣٠)، و«صحيح البخاري» (رقم ٣٣٥٢).

للصلاة، فصعد بلال وأذن للصلاة، وأنصت أهل مكة للنداء الجديد على آذانهم كأنهم في حُلمٍ، إن هذه الكلمات تقصف في الجو فتقذف بالرعب في أفئدة الشياطين، فلا يملكون أمام دويِّها إلا أن يولوا هاربين، أو يعودوا مؤمنين، الله أكبرُ الله أكبرُ، اللهُ أكبر اللهُ أكبر.

ذلك الصوت الذي كان يهمس يوماً تحت أسواط العذاب وهو يقول: أَحدٌ أَحدٌ، ها هو اليوم يُجلجل فوق كعبة الله قائلا: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، والكل خاشعٌ منصت خاضع.

ها هي الآن كلمة التوحيد هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فها هي الأصنام تحت الأقدام، إنها لحظة والله يبكى فيها القلب فرحاً على هذا النصر العظيم.

عباد الله! ثم أخذ رسول الله ﷺ يبايع الناس على الإسلام، فبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا؛ بايعهم رجالاً ونساءً صغاراً وكباراً. وما مست يدُ رسول الله ﷺ يد امرأة قط[1].

وقال ﷺ للنساء: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأةٍ كقولي لمئة امرأة»[2].

عباد الله! فلما بايع النبي ﷺ الرجال والنساء على الإسلام والسمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ واستقر الأمن .. خرج ﷺ فدخل بيت أمِّ هانئ بنت أبي طالب بنت عمه، فاغتسل ﷺ ثم صلى ثماني ركعات شكراً لله تعالى على هذا الفتح.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٥٢٨٨)، ومسلم (رقم ١٨٦٦).
(٢) «صحيح النسائي» (٤١٩٢).

وأجارت أم هانيء حموين لها، فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا من أجرتِ يا أمَّ هانيء»(١).

عباد الله! فلما مكن الله رسوله ﷺ من أهل مكة، واستقر الفتح أمَّن رسول الله ﷺ الناس جميعاً، وعفا عنهم كلهم ولم يأخذهم بجريرتهم السابقة، إلا أربعة رجالٍ وامرأتين كانوا قد آذوه إيذاءً شديداً.

فقال ﷺ: «اقتلوهم ولو وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة» فمنهم من قتل ومنهم من أسلم.

عباد الله! فلما كان الغد من يوم الفتح قام النبي ﷺ في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ومجَّدهُ بما هو أهله، ثم قال: «يا أيها الناس إن مكة حرَّمها الله، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يحل لأحدٍ أن يسفك فيها دماً، ولا أن يعضد فيها شجرة، فإن أحدٌ ترخص بقتال رسول الله ﷺ يوم الفتح -أي بفعل رسول الله ﷺ- فقولوا: إن الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم، وإنما أحلها الله لي ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب»(٢).

عباد الله! وفي فتح مكة نزلت سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾.

العنصر الخامس: الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من فتح مكة.

أولاً: كان فتح مكة بداية فتحٍ عظيم للمسلمين، فقد كان الناس تبعاً

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٥٧)، ومسلم (رقم ٣٣٦).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٠٤)، ومسلم (رقم ١٣٥٤).

لقريش في جاهليتهم كما أنهم تبعٌ لقريش في إسلامهم، وكانت القبائل تنتظر ما يفعل رسول الله ﷺ مع قومه وعشيرته، فإن نصره الله عليهم دخلوا في دينه، وإن انتصرت قريش عليه يكونون بذلك قد كفوهم أمره.

فلما نصر الله رسوله والمسلمين، وفتحوا مكة عرف الناس جميعاً أنه رسول الله صدقاً، فدخل الناس في دين الله أفواجاً. قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢..﴾.

ثانياً: سورة النصر علامة على أجل رسول الله ﷺ.

قالت عائشة -رضي الله عنها -: كان رسول الله ﷺ يُكثر من قوله: «سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه».

فقال ﷺ: «أخبرني ربي أنى سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتُها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه»، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾(١).

عباد الله! وهذه السورة تسمى سورة التوديع، حيث جاءت مخبرة بقرب أجل المصطفى ﷺ فعن ابن عباس: قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدرٍ فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لِمَ تُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله. فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعاني ذات يومٍ فأدخلني معهم فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٨١٧)، ومسلم (رقم ٤٨٣ بعد ٢١٧) واللفظ له.

قال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾.

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمده ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً.

فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلتُ: لا، قال: فما تقول؟

قلت: هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، -وذلك علامة أجلك- ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

فقال عمر: «ما أعلم منها إلا ما تقولُ»[1].

ثالثاً: التحذير من الشفاعة في حدٍ من حدود الله

قال عروة بن الزبير: إن امرأةً سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح، ففزع قومُها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه.

قال عروة: فلما كلمة أسامة فيها تلون وجه رسول الله ﷺ، فلما كان العشيّ قام رسول الله ﷺ خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإنما أهلك الناس قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفسي محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها، فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت.

قالت عائشة: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ[2].

---

(١) رواه البخاري (رقم ٤٩٧٠).

(٢) رواه البخاري (رقم ٢٦٤٨).

رابعاً: الكبيرة دون الشرك لا تخرج صاحبها من الإيمان وقد تكفر بالحسنة الكبيرة، وهذا يؤخذ من فعل حاطب بن أبي بلتعه ﷺ عندما أرسل كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بخبر رسول الله ﷺ، وشفع له شهوده بدراً فقال ﷺ لعمر بن الخطاب: يا عمر أو ليس قد شهد بدراً؟ وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدرٍ فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

عقيدتنا في أصحاب الكبائر أنهم في مشيئة الله إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم، ولا نكفرهم، ولا نخرجهم من الملة كما تفعل الخوارج.

اللهم رد المسلمين إلى دينهم رداً جميلاً.

الخطبة السابعة والأربعون
غزوة حُنين

أيها الإخوة **عباد الله!** موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع اللقاء السابع والأربعين من سيرة محمد ﷺ سيدُ الأنبياء وإمام المتقين، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن غزوة حنين.

عباد الله! غزوة حنين وقعت بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة وتعتبر من أكبر المعارك التي خاضها المسلمون في عصر السيرة ومن أكثرها خطورة.

عباد الله! وحديثنا عن غزوة حنين سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: جيش المشركين بقيادة مالك بن عوف سيد هوزان يستعد لمحاربة المسلمين.

العنصر الثاني: جيش المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ يستعد في مكة للقضاء على بقايا الشرك والوثنية. وأحداث الطريق.

العنصر الثالث: أحداث الغزوة.

العنصر الرابع: حكمة رسول الله ﷺ في تقسيم الغنائم.

العنصر الخامس: الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من غزوة حنين.

العنصر الأول: جيش المشركين بقيادة مالك بن عوف سيد هوزان يستعد لمحاربة المسلمين:

كان فتح مكة بمثابة الضربة القاضية للشرك والمشركين في مكة ومن حولها من قبائل العرب، ولما فتح الله مكة على رسوله والمؤمنين، وأعلى كلمته،

ونصر دينه، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وخضعت قريش لرسول الله ﷺ؛ خافت هوزان و ثقيف -وهي من أشرس وأقوى القبائل العربية- وقالوا: قد فرغ محمد لقتالنا، فلنغزُه قبل أن يغزونا، وأجمعوا أمرهم على هذا، وولّوا عليهم مالك بن عوف سيد هوزان.

عباد الله! وكان مالك بن عوفٍ شجاعاً مقداماً، إلا أنه سقيمُ الرأي سيءُ المشورةِ، فلما اجتمعت قبائِل العرب إليه، وجعلوا أمرهم بين يديه؛ أمرَ الناس أن يُخرجوا نساءهم وأبناءَهم وأموالهم معهم؛ ظنّاً منه أن هذه الأموال وتلك الأولاد؛ تحمل الرجال على الثبات عند اللقاء دفاعاً عنها.

عباد الله! ورفض هذا الرأي أعرابيٌّ كبيرٌ مُحنّك، هو دُرَيدُ بنُ الصِّمة وقال له: إنك إن نُصرت لن ينفعك إلا رجلٌ بسفيه ورمحه، وإن كانت الأخرى فُضحت في نسائِك وأَموالك، فسفَّه مالك رأيه وأصرَّ على خُطتِه.

عباد الله! ووضع مالك بن عوفٍ قائد المشركين خطته لخوض المعركة ضد المسلمين على النحو التالي:

أولاً: حشر نساء المقاتلين وأطفالهم وأموالهم خلفهم، وقصد من وراء هذا التصرف؛ دفع المقاتلين إلى الاستبسال والثبات أمام أعدائهم لأن المقاتل -من وجهة نظره- إذا شعر أن أعزّ ما يملك وراءه في المعركة، صعُبَ عليه أن يلوذ بالفرار مخلفاً ما وراءه في ميدان المعركة.

ثانياً: رتب قومه بشكل صفوفٍ؛ قدَّم الخيل ثم المقاتِلة ثم النساء ثم الغنم ثم الإبل.

ثالثاً: رفع الروح المعنوية لدى جنوده؛ بأن وقف فيهم خطيباً يحثهم على الثبات والاستبسال وأمرهم أن يُجردوا سيوفهم، وقال لهم: «إذا أنتم رأيتم القوم فاكِسروا جفون سيوفكم، وشدوا شدة رجل واحدٍ عليهم».

رابعاً: وضع الكمائن لمباغتة جيش المسلمين والانقضاض عليهم، وقد كادت هذه الخطة أن تقضي على قوات المسلمين لولا لطف الله -سبحانه وتعالى- وعنايته.

خامساً: أمر جيشه بالمبادرة بالهجوم على المسلمين، لأن النصر في الغالب يكون للمهاجم، أما المدافع فغالباً ما يكون في مركز الضعف.

ولهذا أتت هذه الخطةُ ثمارها بعض الوقت -أي: في بداية المعركة- ثم اختلتْ موازين القوى -بفضل الله تعالى- ثم بثبات رسول الله ﷺ حيث كسب المسلمون الجولة، وانتصروا على أعدائهم.

العنصر الثاني: جيش المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ يستعد في مكة للقضاء على بقايا الشرك والوثنية. وأحداث الطريق.

عباد الله! ولما وصلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ، أن مالك بن عوفٍ -قائد المشركين- خرج بجيشٍ قوامُهُ عشرين ألفاً لقتال المسلمين بعد فتح مكة، قام رسول الله ﷺ بما يلي:

أولاً: أرسل أبا حدرد الأسلمي فقال له: اذهب فادخل في القوم حتى تعلم لنا مِن علمهم، فدخل فمكث فيهم يوماً أو يومين ثم أقبل فأخبره الخبر[1].

ثانياً: جهز ﷺ جيشاً إسلامياً قوامه اثني عشر ألفاً، يقول أنسٌ ﷺ-: «لما كان يوم حنين أقبلت هوازان وغطفانُ بذراريهم ونعمهم، ومع النبي ﷺ يومئذٍ عشرةُ آلافٍ، ومعه الطلقاء - الذين أطلقهم النبي ﷺ بعد فتح

---

(١) «المستدرك» للحاكم (٣/ ٤٨، ١٤٩).

مكة وخلى سبيلهم - وهم ألفان»[1].

ثالثاً: وزيادة في الاحتياط وأخذاً بالأسباب، أرسل رسول الله ﷺ إلى صفوان بن أمية -وهو لا يزال على شركه- يستعير منه أسلحةً ودروعاً، فقال له: «أعطنا سلاحك هذا، نلقي به عدوَّنا غداً -إن شاء الله-».

فقال صفوان: أغصبٌ يا محمد؟

قال ﷺ: «لا بل عارية مؤداةٌ » فأعاره ثلاثين درعاً وثلاثين بعيراً[2].

عباد الله! خرج رسول الله ﷺ بجيش المسلمين من مكة، وفي الطريق عيون رسول الله ﷺ تتقدم الجيش لتأتي بأخبار العدو، وجاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنِّي انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم ونسائهم، اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «تِلك غنيمة المسلمين غداً -إن شاء الله تعالى-»[3] وهذه بُشرى.

وفي الطريق وجيش المسلمين يسير بهذا العدد الكبير؛ نظر المسلمون بعضهم إلى بعض والأرض قد امتلأت بهم، فقال بعضهم: لن نُغلبَ اليوم من قلةٍ، ولذلك عاتبهم الله في كتابه فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٣٣٧)، ومسلم (رقم ١٥٠٩ بعد ١٣٥).
(٢) «صحيح أبي داود» (٣٠٤٥).
(٣) «صحيح أبي داود» (٢١٨٣).

مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ [التوبة:٢٥].

عباد الله! وفي الطريق وقعت مخالفة من الطلقاء -أي الذين دخلوا في الإسلام حديثاً- تعالوا بنا لنستمع إلى أحدهم وهو يخبرنا الخبر.

يقول الحارث بن مالك: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثو عهدٍ بالجاهلية، قال: فسرنا معه إلى حنين وكانت كفار قريش ومن سواهم من العرب لهم شجرةٌ عظيمة خضراء يقال لها: ذات أنواط؛ يأتونها كل سنةٍ فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوماً.

قال: فرأينا ونحن نسيرُ مع رسول الله ﷺ سدرة خضراء عظيمةُ.

قال: فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذاتُ أنواطٍ.

قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ إنها السُنن لتركبنُ سَنَنَ من كان قبلكم»[1].

عباد الله! معلوم أن هذا القول لم يصدر من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وإنما كان من مُسلمة الفتح، الذين أسلموا قريباً وصدق الله إذ يقول: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات:١٤].

فلا يستوي إيمانُ مسلمة الفتح وإيمان من سبقوهم من المهاجرين والأنصار، لأن مُسلمة الفتح لم ينهلوا بعدُ من المورد العذب، لم ينهلوا بعد

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» (١٧٧١).

من الوحي، ولذلك لم يوبِّخهم رسول الله ﷺ، لأنَّ هذا جهلٌ لا يُكفِّرْ، ولـذا لم يُكفرهم النبي ﷺ بقولهم.

العنصر الثالث: أحداث الغزوة

عباد الله! وصل الجيش الإسلامي إلى وادي حنين، وكان مالك بن عوف -قائد جيش الشرك والوثنية حينئذ- قد سبقهم، فأدخل جيشه بالليل في ذلك الوادي، وصنع كميناً للمسلمين في الطرق والمداخل والشعاب والمضايق، وأصدر أمره للجيش بأن يرشقوا المسلمين إذا طلعوا عليهم ثم يشدوا عليهم شدة رجل واحدٍ.

عباد الله! وبالسَّحرِ عبأ رسول الله ﷺ جيشه، وعقد الألوية والرايات وفرقها على الناس، وفي عماية الصبح -أي ظلامه-، استقبل المسلمون وادي حنين وشرعوا ينحدرون فيه، وهم لا يدرون بوجود كمناء العدو في مضايق هذا الوادي.

فبينما هم ينحطون إذا هم تمطر عليهم النبال، وإذا كتائب العدو قد شدَّتْ عليهم شدَّة رجلٍ واحد، فانشمر المسلمون راجعين -أي انفضوا وانهزموا- لا يلوى أحدٌ على أحدٍ، وكانت هزيمة منكرة، وشمت الأعداءُ بهزيمة المسلمين، فقال بعضهم: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر -يريد أن المسلمين هُزموا هزيمة لا قائمة لهم بعدها أبداً-، وقال آخرُ: ألا بطل السحرُ اليوم، وقال ثالث: اليوم أدركُ ثأري من محمدٍ، اليوم أقتلُ محمداً.

عباد الله! وانحاز النبي ﷺ ذات اليمين وأخذ ينادي: أين أيها الناس؟ هلموا إليَّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله فلا يردُ عليه أحدٌ، وركبت الإبل بعضها بعضاً وهي موليةٌ بأصحابها.

ولم يبق حول النبي ﷺ إلا عددٌ قليل من المهاجرين والأنصار، وأهل

بيته، ورسول الله ﷺ تركض بغلته قبل الكفار، ويقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

يقول العباس: وأنا آخذٌ بلجام بغلة رسول الله ﷺ، أكفّها إرادة أن لا تسرع، وأمر النبي ﷺ العباس -وكان جهير الصوت- أن ينادي: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار، يا أصحاب بيعة الرضوان، فأجابوا لبيك لبيك، حتى إذا اجتمع إلى رسول الله ﷺ نفرٌ منهم، استقبلوا العدو واقتتلوا وتلاحقت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى، وتجالد الفريقان مجالدة شديدة، ونظر النبي ﷺ إلى ساحة القتال، وقد احتدم القتالُ فقال: «الآن حَمِيَ الوطيسُ» وتوجه النبي ﷺ إلى ربه بالدعاء فقال ﷺ:

«اللهم نزل نصرك»، ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: «انهزموا ورب محمد» وقال: «شاهت الوجوه» فما خلق الله إنساناً من الكفار إلا ملأ عينيه تراباً من تلك القبضة -وولوا من أرض المعركة مدبرين، والمسلمون يحصدونهم حصداً-

يقول العباس: فو الله ما هو إلا أن رماهم حتى رأيت حدَّهم كليلاً، وأمرَهم مدبراً، وفي غزوة حنين نزل قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة:٢٥-٢٦].

عباد الله! وليَّ المشركون الأدبار، واعتصموا بناحيةٍ يقالُ لها: (أوطاس) فأرسل النبي ﷺ في أعقابهم أبا عامر الأشعري فقاتلهم حتى قُتِلَ فأخذ

الراية منه ابنُ أخيه أبو موسى الأشعري فمـا زال يقـاتل العـدو حتـى بـدَّد شملهم وهُزموا شر هزيمةٍ.

ومالك بن عوف -قائد المشركين يومئذ- ومن معـه مـن رجـالات قومـه قرروا أن يمضوا في الفرار حتـى يصلـوا إلى «الطـائف»، فيتحصنـوا بحصنـها تاركين في هذا الفرار مغـانم هائلـة، فخلـف العـدو في أرض المعركـة أربعـة وعشرين ألفاً من الإبل، وأكثر من أربعين ألفاً من الغنم، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، هذا إلى جانب ستة آلاف من السبي[1].

عباد الله! وكره رسول الله ﷺ أن يُقسم على الناس هذه الغنائم، وتـأني يبتغي أن يرجع القوم إليه تائبين، فيأخذوا ما فقدوا، ومكث ينتظرهـم بضـع عشرة ليلة فلم يجئه أحد، فجمع النبي ﷺ هذه الغنائم في (الجعرانـة) وعـين عليها حارساً، ثم خرج ﷺ بنفسه حتى أتى حصن الطائف الذي تحصن بـه مالك بن عوف ومن معه، وحاصرهم النبي ﷺ وطال الحصـار، فلمـا طـال الحصار ولم ينزلوا؛ رجع رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين.

العنصر الرابع: حكمة رسول الله ﷺ في تقسيم الغنائم:

عباد الله! عاد رسول الله ﷺ من الطائف بجيش المسـلمين إلى (الجعرانـة) وفي (الجعرانة) كانت غنائم حنـين الجليلـة، وبـدأ رسـول الله ﷺ في تقسـيم الغنائم بسياسة خفيت حكمتها على بعـض الصحابـة آنـذاك، حيـث حظـي بهذه الغنائم الطلقاء والأعراب تأليفـاً لقلوبـهم لقـرب عـهدهم بالإسـلام، وعدم تمكن معاني الإيمان من قلوبهم.

---

(١) انظر «فقه السيرة» (ص٤٢٥) الغزالي.

فأعطى مائة من الإبل لكل من عيينه بن حصن -من زعماء غطفان-، والأقرع بن حابس -من زعماء تميم-، والعباس بن مرداس، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وأبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية - من زعماء قريش[١].

عباد الله! وشاع في الناس أن محمداً ﷺ يُعطى عطاءً من لا يخشى الفقر، فجاء الأعراب من كل مكان يسألونه، حتى اضطروه إلى مضيق وحبسوه عن المسير فتعلق رداؤه بشجرة فقال ﷺ: «أيها الناس أعطوني ردائي فوالله لو كان لي مثل هذه العضاة -أي: الوادي- نَعَما لقسمته فيكم، لا أحبس عنكم شيئاً، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً»[٢].

عباد الله! وقد أثر عطاء رسول الله ﷺ في قلوب هؤلاء الزعماء وأتباعهم، فأظهروا الرضا بها وزادتهم رغبة في الإسلام، ثم حَسُنَ إسلامهم جميعاً، فأبلوا في الإسلام بلاءً حسناً، وخدموه بأنفسهم وأموالهم إلا يسيراً منهم.

قال أنس ﷺ: «إن كان الرجل ليُسلِمُ ما يريد إلا الدنيا، فما يُسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»[٣].

وقد عبر بعض المؤلفة قلوبهم عن أثر ذلك فقال صفوان بن أمية: «لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ»[٤].

---

(١) رواه مسلم (رقم ١٠٦٠).
(٢) رواه البخاري (رقم ٢٨٢١).
(٣) رواه مسلم (رقم ٢٣١٢).
(٤) رواه مسلم (رقم ٢٣١٣).

عباد الله! وقد تأثر بعض المسلمين -في بداية الأمر- بهذا التقسيم لأنه لم يشملهم، فكان لابدَّ من بيان الحكمة لهم من ذلك.

فقال ﷺ: «والله إني لأعطي الرجل وأدعُ الرجل، والذي أدعُ أحبُ إليَّ من الذي أُعطي، ولكن أُعطي أقواماً لِما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير»(١).

وقال ﷺ: «إني لأعطي رجالاً حُدثاء عهد بكفر أتألفهم»(٢).

وقال ﷺ: «إني لأعطي الرجل وغيرهُ أحبُ إلي منه مخافة أن يكبه الله في النار»(٣).

عباد الله! وقد بلغ رسول الله ﷺ أن الأنصار وجدوا في أنفسهم؛ لعدم أخذهم شيئاً من غنائم حنين، وأن بعض أحداثهم قالوا: «إذا كانت الشدة فنحن نُدعى، وتُعطى الغنائم غيرنا».

وقالوا: «يُعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم».

فأمر النبي ﷺ سعد بن عبادة أن يجمع له الأنصار، فجمعهم له في قبةٍ من أُدمٍ -أي: في خيمة من جلد- فخرج رسول الله ﷺ، فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: يا معشر الأنصار! ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم بي».

قالوا: بلى!

---

(١) رواه البخاري (رقم ٩٢٣).
(٢) رواه البخاري.
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٧، ١٤٧٨)، ومسلم (رقم ١٥٠).

قال ﷺ: ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟

قالوا: وما نقول يا رسول الله وبماذا نجيبك؟ المنُّ لله ورسوله.

قال ﷺ: والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدُقتم: جئتنا طريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك، وخائفاً فأمناك ومخذولاً فنصرناك ..

فقالوا: المنُّ لله ورسوله.

فقال ﷺ: أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفتُ بها قوماً أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام !! أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفسي بيده، لو أن الناس سلكوا شعباً، وسلكت الأنصار شِعباً لسلكت شِعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت أمراً من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.
فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا بالله رباً، ورسوله قسماً، ثم انصرف.. وتفرقوا..[1].

عباد الله! ولما فرغ النبي ﷺ من توزيع الغنائم وهو بالجعرانة، أراد أن يعتمر قبل أن يرجع؛ فأحرم بالعمرة من الجعرانة ليلاً، ووصل مكة فطاف وسعى ثم تحلل، وخرج منها ليلاً فبات بالجعرانة.

ثم عاد ﷺ إلى المدينة وقد كان خرج منها في رمضان ودخلها في أواخر ذي القعدة.

عباد الله! وشتان بين هذا الدخول والدخول يوم الهجرة، لقد دخلها يوم الهجرة خائفاً يترقب، وقريش قد بعثت من يأتي به حياً أو ميتاً.

---

(١) قال الشيخ الألباني: حديث صحيح «فقه السيرة» (ص٣٩٦).

أما اليوم فقد دخلها منصوراً نصراً مؤزراً، وصدقه الله وعده حيث قال له: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]. قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: لرادُّك ربك إلى مكة[1].

فصدق الله رسوله وعده وردَّه إلى مكة، وفتح له غيرها، ثم عاد ﷺ إلى المدينة.

العنصر الخامس: الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من غزوة حنين:

أولاً: التوكل على الله تعالى لا ينافي الأخذ بالأسباب: ويؤخذ هذا من فعل النبي ﷺ في غزواته، فكان يستعد للقاء العدو بالعددِ والعُدة.

وفي غزوة حنين استعار النبي ﷺ أسلحة من صفوان بن أمية، وخرج بجيش كبير.

فلا يجوز لرجلٍ أن يُقدم على عدو دون أن يُعِدَّ العدة ويقول: أنا متوكل على الله، فرسول الله ﷺ سيد المتوكلين، ولكنه أخذ بالأسباب. لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

فهؤلاء الذين يتسرعون لملاقاة الأعداء -قبل أن يستعدوا إيمانياً ومادياً- يضيعون الوقت والجهود فلابد أن يعتبروا بفعل رسول الله ﷺ.

ثانياً: الإعجاب بالكثرة يحجب نصر الله:

وهذا ما حدث في غزوة حنين فقال بعض المسلمين: «لن نُهزم اليوم من قلة»، فحجب هذا الإعجاب النصر في بداية المعركة.

---

(١) رواه البخاري (رقم ٤٧٧٣).

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة:٢٥].

عباد الله! بعد الأخذ بأسباب النصر، لابدَّ أن يعلم المسلمون أن النصر من عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣].

وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد:٧].

وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران:١٦٠].

فالمسلمون لا ينتصرون على أعدائهم بالعدد والعُدة، إنما ينتصرون بهذا الدين العظيم؛ بالإسلام. وهذا ما قاله عبد الله بن رواحة في غزوة مؤتة، قال: «يا معشر الناس! إن الذي تخافون منه هو الذي خرجتم له؛ الشهادة! والله ما نقاتِلهم بقوة ولا بكثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به».

ثالثاً: الدعاء ينفع مما ومما لم ينزل.

وهذا يؤخذ من دعائه ﷺ في غزوة حنين، عندما توجه إلى ربه وقال: «اللهم نزل نصرك»، فاستجاب الله له ونصره على أعدائه، ولذلك قال ﷺ: «الدعاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء»[١].

وقال ﷺ: «ما من مسلم يدعو الله بدعوة، ليس فيها إثم ولا قطيعة

---

(١) صحيح الجامع (٣٤٠٢).

رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته. وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها»[١].

والله -عز وجل- يقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾.

رابعاً: حلمهُ ﷺ على جفاء وغلظة الإعراب:

يقول ابن مسعود ﷺ: .. فلما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة.. فقال رجل: والله إن هذه القسمة ما عُدِلُ فيها، وما أُريد فيها وجه الله.

قال: فقلت والله! لأخبرنَّ رسول الله ﷺ.

قال: فأتيته فأخبرته بما قال، قال ابن مسعود: فتغير وجهه ﷺ حتى كان كالصرف.

ثم قال: «فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله».

ثم قال: «يرحم الله موسى أوذي بأكثر من هذا فصبر»[٢].

ويقول أنس ﷺ: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُردٌ نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ فجذبه جذبة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ، قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته قال: مُر لي من مال الله الذي عندك! فالتفت إليه ﷺ، فضحك «ثم أمر له بعطاء»[٣].

والله إنها لأخلاق النبوة.

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

---

(١) «صحيح الترمذي» (٣/ ١٤٠).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٤٠٥)، ومسلم (رقم ١٠٦٢).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣١٤٩)، ومسلم (رقم ١٠٥٧).

الخطبة الثامنة والأربعون

غزوة تبوك

أيها الإخوة **عباد الله!** موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن غزوة تبوك.

عباد الله! غزوة تبوك هي آخر غزوةٍ غزاها رسول الله ﷺ مع أصحابه، وهي أول غزوة خارج الجزيرة.

غزوة تبوك هي: غزوة العُسرة، وذلك لأن الصحابة خرجوا إليها في قلةٍ من الظهر، وفي حرٍ شديد، حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء.

قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة:١١٧].

غزوة تبوك هي الفاضحة؛ لأنها كشفت عن حقيقة المنافقين، وهتكت أستارهم، وفضحت أساليبهم العدائية الماكرة، وأحقادهم الدفينة ونفوسهم الخبيثة، وجرائمهم البشعة بحق رسول الله ﷺ والمسلمين.

عباد الله! وحديثنا عن غزوة تبوك سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: سبب هذه الغزوة وتاريخها.

العنصر الثاني: موقف المؤمنين وموقف المنافقين من غزوة تبوك.

العنصر الثالث: أحداث في الطريق، والوصول إلى تبوك.

العنصر الرابع: العودة من تبوك إلى المدينة.

العنصر الأول: سبب هذه الغزوة وتاريخها

عباد الله! سبب غزوة تبوك هو الاستجابة لأمر الله تعالى بالجهاد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ [التوبة:١٢٣].

وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة:٢٩].

ولذلك عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله.

فأمر رسول الله ﷺ المسلمين في المدينة وغيرها بالجهاد، وأعلمهم بغزوه الروم، وكان ذلك في رجب من السنة التاسعة للهجرة

يقول كعب بن مالك -رضي الله عنه-: «كان رسول الله ﷺ قلَّما يريد غزوة يغزوها إلا ورَّى بغيرها حتى كانت غزوة تبوك، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدداً كثيراً فجلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أُهبة عدوِّهم، وأخبرهُم بوجهه الذي يريد»[1].

عباد الله! وقال المؤرخون: إن أسباب غزوة تبوك هو: أن الأخبار قد وصلتْ من الشام بأن الروم قد عزموا على غزو المدينة، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ، رأى أنه لا بُدَّ من أن يستنفر المسلمين للخروج لهذا العدو قبل أن يأتيهم في أرضهم.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٩٤٨)، ومسلم (رقم ٢٧٦٩).

العنصر الثاني: موقف المؤمنين وموقف المنافقين من غزوة تبوك.

عباد الله! كما أنَّ الشدائد تظهر نفاق المنافقين، فهي كذلك تظهر إيمان المؤمنين، وغزوة تبوك كانت في ظروف صعبة جداً؛ حر شديدٌ، وعُسَرةٌ في الماء وقلة في المال، وطول في الطريق، فظهر فيها نفاق المنافقين، وكذلك ظهر فيها إيمان المؤمنين الصادقين.

فعندما حثَّ النبي ﷺ المسلمين على الإنفاق في سبيل الله لتجهيز جيش المسلمين؛ جاء بعض المؤمنين الصادقين بكل ماله، ومنهم من جاء بنصف ماله، وجاء عثمان بن عفان ﷺ بألف دينار، فنثرها في حجر رسول الله ﷺ، فسُرَّ بذلك رسول الله ﷺ، وجعل يقبلها في حجره وهو يقول:

«ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم»[1].

عباد الله! وجعل فقراء المسلمين يتصدقون بما يجدونه وإن كان يسيراً، والمنافقون يسخرون من هؤلاء وهؤلاء؛ فيتهمون أهل الغنى والبذل العظيم بالرياء والسمعة! والفقراء بأنّ الله عن يسير صدقتهم لغنى، وفضحهم الله عز وجل في كتابه.

فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة:٧٩].

عباد الله! وحاول بعض المنافقين أن يتستر خلف نفقته، ففضحهم الله -عز وجل-، فَرَدَّ عليهم نفقاتهم قال تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ

---

(١) «صحيح الترمذي» (٣٧٠١).

إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٣-٥٤].

عباد الله! وعندما أعلن رسول الله ﷺ النفير العام في المدينة، وكان ذلك وقت جني التمر وطيب الثمار واشتهاء الظلال، شقَّ ذلك على بعضهم، فعاتب الله الذين تباطئوا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨].

وقد طالبهم الله في كتابه بأن ينفروا شباباً وشيوخاً، وأغنياء وفقراء. بقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة:٤١].

عباد الله! ولقد استطاع رسول الله ﷺ أن يحشد ثلاثين ألف مقاتل من المهاجرين والأنصار وأهل مكة والقبائل العربية الأخرى.

وحزن الفقراء من المؤمنين الصادقين لأنهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد.

جاء سبعة رهطٍ من الفقراء إلى النبي ﷺ يسألونه أن يحملهم فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه»، فرجعوا يبكون حزناً ألا يجدوا ما ينفقون فهذا عُلَيَّةُ ابن زيد ﷺ أحد البكاءين، قام بالليل فصلى لله وبكى ثم ناجى الله - تبارك وتعالى - قائلا: اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه، ولم تجعل في يدي ما أتقوى به، ولم تجعل عند رسولك ما يحملني عليْه، اللهم إنِّي تصدَّقت الليلة على كل مسلم بأي مظلمة أصابني بها، في عرضي أو مالي أو جسدي، ثم أصبح بين الناس، فقال رسول الله ﷺ: «أين المتصدِّق الليلة؟» فليقم، فقام

عُلَيَّة بن زيد فأخبر رسول الله ﷺ الخبر فقال ﷺ: «أبشر فوالذي نفسي بيده لقد كُتبت في الزكاة المتقبلة»[(١)].

وفي رواية أن النبي ﷺ أخبره أنه قد غُفِرَ له[(٢)].

عباد الله! وبلغ الأمر بالضعفاء والعجزة -ممن أقعدهم المرض، أو النفقة عن الخروج- إلى حد البكاء شوقاً للجهاد، وتحرجاً من القعود حتى نزل فيهم قرآن:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة:٩١ -٩٢] وقد خصَّ النبي ﷺ هؤلاء المتخلفين المعذورين ممن حسنت نياتهُم، واستقامت طويتهم بقوله: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً؛ إلا كانوا معكم: قالوا: يا رسول الله! وهم بالمدينة؟!

قال ﷺ: «وهم بالمدينة، حبسهم العذر»[(٣)].

وقد حكى كعب بن مالك في حديثه الطويل إنه لم يبق بالمدينة إلا المنافقون وأهل الأعذار من الضعفاء[(٤)].

---

(١) صحيح: انظر «فقه السيرة» (ص٤٠٥)، «البداية والنهاية» (٥/ ٥).
(٢) انظر «السيرة النبوية الصحيحة» العمري (٢/ ٥٣٠).
(٣) «فتح الباري» (٨/ ١٢٦).
(٤) «فتح الباري» (٨/ ١٢٦).

عباد الله! أما المنافقون فسلكوا مسالك شتى، فمنهم من اعتذر قبل الخروج وتعلل بالعلل الباطلة، قال تعالى عنهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة:٤٩]. فأذن لهم النبي ﷺ فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة:٤٣].

ثم قال الله عز وجل لرسوله ﷺ: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة:٤٤-٤٥].

ومنهم من أخذ يثبط هِمَمَ الناس، قائلين لهم: لا تنفروا في الحرّ فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة:٨١-٨٢].

العنصر الثالث: أحداث في الطريق، والوصول إلى تبوك

عباد الله! في يوم الخميس من شهر رجبٍ من السنة التاسعة للهجرة، خرج رسول الله ﷺ بجيش المسلمين من المدينة، قاصداً غزو الروم؛ واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة ﷺ وخلَّف علياً ﷺ على أهله فناله المنافقون بألسنتهم، وقالوا: ما خلَّفه إلا استثقالاً له، وتخففاً منه فسمعها عليٌّ فأخذ سلاحه وانطلق يعدو خلف رسول الله ﷺ حتى أتاه فقال: يا رسول الله! قال المنافقون: إنك خلَّفتني استثقالاً لي وتخفُّفاً مني فقال ﷺ:

كذبوا، كذبوا، ارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون مِن موسى؛ إلا أنه لا نبيٌّ بعدي»[١].

عباد الله! وانطلق رسول الله ﷺ في ثلاثين ألف مقاتل عبر الصحراء إلى تبوك، وفي الطريق أصاب جيش المسلمين جوع شديد، لأنَّ الزمان كان زمان عُسرةٍ، فلما تجهَّزوا لم يتجهزوا بما يكفيهم، إنما تجهزوا بما وجدوا.

يقول أبو سعيد الخدري ﷺ: لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا -جمع ناضحٍ وهي الإبل التي يسقى عليها- فنأكل وندَّهن، فقال رسول الله ﷺ: «افعلوا»، فجاء عمر بن الخطاب ﷺ فقال: يا رسول الله! لا تفعل، إنهم إن فعلوا نفذ الظهر -وهو ما يُحمل عليه من الإبل- ولا يجدون ما يركبون، ولكن يا رسول الله ادعهُم بفضل أزوادهم ثم ادع الله لهم بالبركة، فعسى الله أن يفعل.

فدعا رسول الله ﷺ -أي: بساطٍ من الجلد- فبسطهُ، وأمرهم أن يأتوا بأزوادهم، فجعل الرجل يجيء بكفٍ من ذرة، وآخر يجيء بكف من تمر، وثالث يجيء بكسرة خبز حتى اجتمع على النَّطع شيءٌ قليل من الزاد، فدعا النبي ﷺ ربَّه بالبركة في الطعام، فبارك الله لهم في الطعام فقال ﷺ: «خذوا واملأوا أوعيتكم» فملأوا أوعيتهم حتى لم يبق في الجيش وعاء إلا مُلئ.

فقال رسول الله ﷺ: «أشهدُ أن لا إله إلا الله، وإني رسول الله، لا يلقى الله بها عبدٌ غير شاكٍ فيحجبُ عن الجنة»[٢].

---

(١) أصل الحديث: متفق عليه، انظر «البداية والنهاية» (٧/ ٥).

(٢) رواه مسلم (رقم ٢٧).

الله أكبر .. الله أكبر مَن الذي أطعم هذا الجيش في هذه الصحراء؟

إنه الله -عز وجل- ثم ببركة دعاء النبي ﷺ.

عباد الله! وفي الطريق أصاب الجيش عطشٌ شديد، يقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: قيل لعمر بن الخطاب ﷺ: حدثنا عن غزوة العُسرة -وهي غزوة تبوك-، فقال عمر: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في قيظ شديد -أي في حرٍ شديد- فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطشٌ شديدٌ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويضعُه على بطنه.

فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله! إن الله عودك في الدعاء خيراً فادع.

فقال النبي ﷺ: «أتحب ذلك يا أبا بكر؟» قال: نعم.

فرفع رسول الله ﷺ يديه -أي: إلى السماء- فلم يرجعهما حتى قَالَتْ السماء -أي: تهيأت واستعدت للمطر- ثم سكبت الماء عليهم، فاستقوا وملأوا أوعيتهم قال عمر: ثم ذهبنا ننظر حدود المطر فرأينا أن المطر لم يتجاوز مكان الجيش[1].

الله أكبر .. الله أكبر مَن الذي سقى هذا الجيش في هذه الصحراء؟ إنه هو الله -عز وجل- ثم ببركة دعاء النبي ﷺ.

ويقول معاذ بن جبل ﷺ: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك،

---

(١) رواه البزار والطبراني في «الأوسط»، وقال الهيثمي: ورجال البزار ثقات «مجمع الزوائد» (٦/ ١٩٤)، وقال الشيخ الألباني: حسن انظر «فقه السيرة» (ص٤٠٧).

فكنا نجمع الظهر والعصر جميعاً، والمغرب والعشاء جميعاً.

فلما كان ذات ليلةٍ قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستأتون غداً عين تبوك - إن شاء الله تعالى- وإنكم لن تأتَوها حتى يُضحي النهار، فمن جاءها منكم فلا يمسَّ من مائها شيئاً حتى آتي»، فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين تبضُّ بشيءٍ من ماء، فسألهما رسول الله ﷺ: «هل مسستما من مائها شيئاً؟».

قالا: نعم. فسبَّهُما، وقال لهما ما شاء اللهُ أن يقول، ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع شيءٌ، وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماءٍ كثير، فاستقى الناسُ.

فقال رسول الله ﷺ: «يا معاذ! يوشك إن طالت بك حياةٌ، أن ترى ما هاهنا قد ملئ جناناً»[1].

عباد الله! وفي الطريق إلى تبوك ضلَّت ناقة رسول الله ﷺ. فقال رجل من المنافقين: أليس يزعم أنَّه نبي، ويخبركم عن السماء وهو لا يدري أين ناقته؟

فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ رجلا يقول: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟

وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها» فذهبوا فجاؤوا بها[2].

عباد الله! وفي الطريق مرَّ رسول الله ﷺ بجيش المسلمين على الحِجر

---

(١) رواه مسلم (رقم ٧٠٦ بعد ١٠).
(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٥٣٣).

-وهي ديار ثمود- فأمر النبي ﷺ المسلمين أن لا يدخلوا مساكنهم، وأن يُسرعوا الخطى، وأن يكونوا باكين، ونهاهم عن التزود من مياههم إلا بئر الناقة.

عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: لما مرَّ النبي ﷺ بالحِجر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم؛ أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين، ثم قنع رأسه ﷺ، وأسرع السير حتى أجاز الوادي»[1].

وقال ﷺ: «إن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر -أرض ثمود- فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا، ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردُها الناقة»[2].

عباد الله! وهذا منهج نبويٌّ كريم، في توجيه رسول الله ﷺ صحابته والمسلمين إلى الاعتبار بديار ثمود، وأن يتذكروا بها غضبُ الله على الذين كذَّبوا رسوله، وأن لا يغفلوا عن مواطن العظة، ونهاهم عن الانتفاع بشيءٍ مما في ربوعها؛ حتى الماء، لكيلا تفوت بذلك العبرة، وتخف الموعظة بل أمرهم بالبكاء، وبالتباكي، تحقيقاً للتأثر بعذاب الله.

عباد الله! وصل رسول الله ﷺ بجيش المسلمين إلى تبوك، وأخبر الجيش بأن ريحاً شديدة ستهُب، وأمرهم بأن يحتاطوا لأنفسهم ودوابهم، فلا يخرجوا حتى لا تؤذيهم، وليربطوا دوابهم حتى لا تُؤذى، وتحقق ما أخبر به رسول الله ﷺ، فهبت الريح الشديدة، وحملت من قام فيها إلى مكان بعيد. روى مسلم في «صحيحه» بإسناده إلى أبي حُميد قال: وانطلقنا حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله ﷺ: «ستهب عليكم الليلة ريحٌ شديدة فلا يقم منكم أحدٌ،

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٣٣)، ومسلم (رقم ٢٩٨٠).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٣٣٧٩)، ومسلم (رقم ٢٩٨١).

فمن كان له بعيرٌ فليشدَّ عقاله».

فهبت ريحٌ شديدة فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طيء»[1].

عباد الله! وهناك في تبوك لم يلق النبي ﷺ وجيش المسلمين أي جُنديٍّ من جنود العدو، وألقى الله الرعب في قلوب الرومان على كثرتهم وقوة عدّتهم، فآثروا السلامة على الفناء، فجلسوا في أرضهم بالشام ولم يتحركوا أدنى مسافة للقاء رسول الله ﷺ.

فقام رسول الله ﷺ بتبوك بضعة عشر ليلة، لم يجد أدنى مقاومة وجاءت القبائل العربية المتنصرّة حلفاء الرومان، فصالحت رسول الله ﷺ على الجزية، وكتب لها كتاب صُلحٍ، ثم عاد رسول الله ﷺ من تبوك إلى المدينة سالماً غانماً.

عباد الله! وغزوة تبوك تشبه غزوة الأحزاب.

فغزوة الأحزاب لم يكن فيها قتال، وغزوة تبوك لم يكن فيها قتال.

غزوة الأحزاب أولها شدة وبلاء، كما قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب:١٠-١١].

وغزوة تبوك أولها أيضا شدة وبلاءٌ وعُسرة، في الظَهرِ والمال والماء، كما قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة:١١٧].

---

(١) رواه مسلم (رقم ٧٠٦ بعد ١٠).

ونهاية الأحزاب نصرٌ على الأعداء بدون قتال، وكذلك في غزوة تبوك نصرٌ على الأعداء بدون قتال، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾ [الأحزاب:٢٥].

العنصر الرابع: العودة من تبوك إلى المدينة:

عباد الله! عاد رسول الله ﷺ بجيش المسلمين من تبوك إلى المدينة سالماً غانماً منتصراً.

وفي طريق العودة حاول مجموعة من المنافقين أن يغتالوا رسول الله ﷺ، وآذوا رسول الله والمؤمنين بألسنتهم.

وفي هؤلاء المنافقين نزل قول الله تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾ [التوبة:٧٤]. قال ابن كثير: أن الضحاك قال: إن نفراً من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك في بعض الليالي في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً نزلت فيهم هذه الآية[١].

عباد الله! وفي طريق العودة، جاء رسول الله ﷺ خبر مسجد الضرار الذي بناهُ المنافقون بالمدينة وكانوا قد طلبوا من النبي ﷺ أن يُصلي فيه.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٢).

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة:١٠٧-١٠٨].

فأمر النبي ﷺ أصحابه بهدم هذا المسجد.

عباد الله! لما دنا رسول الله ﷺ والمسلمون من المدينة قال ﷺ: «هذه طابة وهذا أحدٌ جبلٌ يحبنا ونحبه»(١).

وخرجت النساء والصبيان والولائد يستقبلن أكبر جيش خرج لقتال المشركين في عصر السيرة؛ يقلنَّ.

طلع البدرُ علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع(٢)

عباد الله! ودخل رسول الله ﷺ المدينة، فبدأ بالمسجد؛ فصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس، فجاءه المتخلفون من المنافقين يعتذرون إليه بشتى الأعذار، ويحلفون له، فقبل منهم علانيتهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله -عز وجل-.

عباد الله! أما كعب بنُ مالك أحدُ ثلاثةٍ من المؤمنين الصادقين تخلَّفوا من

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٤٨١)، ومسلم (رقم ١٣٩٢).
(٢) انظر «زاد المعاد» (٣/ ٥٤٩).

غير عذر، فقد جاء هو وصاحباه إلى رسول الله ﷺ فاعترف بذنبه، فماذا قال كعب لرسول الله ﷺ؟ وماذا قال له رسول الله ﷺ. وماذا أمر بهم رسول الله ﷺ؟ وما هي نتيجة الصدق؟

هذا الذي نعرفه في الجمعة القادمة -إن شاء الله تعالى-

اللهم رد المسلمين إلى دينك رداً جميلاً.

الخطبة التاسعة والأربعون

قصة كعب بن مالك وصاحبيه

أيها الإخوة عباد الله! موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع لقاء جديد من سيرة المصطفى ﷺ، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن قصة كعب بن مالك وصاحبيه؛ عندما تخلفوا عن غزوة تبوك.

عباد الله! تكلمنا في الجمعة الماضية عن غزوة تبوك، وقد تخلف عنها ثلاثة من الصحابة وهم: كعبُ بن مالك، وهلالُ بن أُمية الواقفي، ومرارة بن الربيع العمري، والثلاثة من الأنصار المعروفين بحسن إيمانهم.

فكعب بن مالك ﷺ شهد جميع الغزوات مع رسول الله ﷺ قبل غزوة تبوك سوى بدرٍ، وشهد أيضاً بيعة العقبة الثانية، وهلال بن أمية، ومرارةُ بن الربيع شهدا بدراً.

عباد الله! الثلاثة من المؤمنين الصادقين تخلفوا عن غزوة تبوك بدون عذرٍ، فلما رجع رسول الله ﷺ من الغزوة، جاء كلٌ منهم إلى رسول الله ﷺ واعترف بذنبه، فماذا قال لهم رسول الله ﷺ؟ وماذا قالوا له؟ وماذا فعل بهم؟ هذا الذي نعرفه في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى-.

تعالوا بنا عباد الله لنستمع إلى كعب بن مالك ﷺ وهو يخبرنا الخبر:

يقول كعب ﷺ: «لم أتخلفْ عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني قد تخلفت في غزوة بدرٍ ولم يُعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوِّهم، على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة

-وهي الليلة التي بايع رسول الله ﷺ الأنصار فيها على الإسلام، وأن يؤوه وينصروه- حين تواثقنا على الإسلام -أي تبايعنا عليه وتعاهدنا- يقول ﷺ: «وما أُحِبُ أن لي بها مشهد بدرٍ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها -أي: أشهر عند الناس بالفضيلة-

يقول ﷺ: «وكان من خبري، حين تخلّفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قطُ أقوى ولا أيسر مني حين تخلفتُ عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قطُّ، حتى جمعتهما في تلك الغزوة».

يقول ﷺ: «فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدداً كثيراً، فَجَلَّىّ للمسلمين أمرهم» -أي كشفه وبينه وأوضحه- «ليتأهبوا أهبة غزوهم» -أي: ليستعدوا بما يحتاجون إليه في سفرهم ذلك- «فأخبرهم بوجههم الذي يريد» -أي: عرفهم جميعاً أنه يريد أن يغزو الروم- يقول ﷺ: «والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثيرٌ، ولا يجمعهم كتابُ حافظ -يريد بذلك الديوان- فقلَّ رجل يريد أن يتغيب إلا يظنُّ أن ذلك سيخفى به، ما لم ينزل فيه وحيٌ من الله عز وجل».

يقول ﷺ: «وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أَصعُر -أي: أميل- فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم؛ فأرجعُ ولم أقضِ شيئاً، وأقول في نفسي: أنا قادرٌ على ذلك إذا أردتُ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمَّر بالناس الجدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض منِ جهازي شيئاً، ثم غدوت فرجعتُ ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو -أي تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا- فهممت أن أرتحل فأدركهم، فياليتني فعلتُ، ثم لم يُقَّدر ذلك لي.

يقول ﷺ: «فطفقت إذا خرجتُ في النـاس، بعـد خـروج رسـول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوةً، إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق» -أي: متهماً به- أو رجلاً ممن عذر اللهُ من الضعفاء.

يقول ﷺ: «ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جـالسٌ في القوم بتبوك: «ما فعل كعبُ بن مالك؟» قـال رجـل مـنِ بـني سـلمة: يـا رسول الله: حبسهُ بردَاهُ والنظـر في عِطفيـه» -أي: جانبيـه، وهـو إشـارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه- «فقال له معاذ بـن جبـل: بئـس مـا قلـت، والله! يـا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ».

يقول ﷺ: «فبينا هو على ذلك رأى رجلاً مبيضاً» -أي: لابسا البيـاض- «يَزُولُ به السَّراب فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة» فإذا هو أبـو خيثمـة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون».

قال كعب ﷺ: «فلمـا بلغـني أنَّ رسـول الله ﷺ قـد توجـه قـافلاً» -أي: راجعاً- «من تبوك، حضرني بثيٌّ» -أي: حزنـي الشديـد- «فطفقـت أتذكـر الكذب وأقول: بم أخرج من سخطه غـداً؟ وأستعين علـى ذلـك بكـل ذي رأي من أهلي، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً، زاح عني البـاطل حتى عرفت أني لم أنجُ مِنه بشيءٍ أبداً، فأجمعت صِدقهُ» -أي: عزمـت علـى أن أصدقه-.

يقول ﷺ: «وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكـان إذا قَـدِمَ مِـن سـفر بـدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك، جاءهُ المخلَّفون يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعاً وثمانين رجلاً، فقبـل منـهم رسـول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واسـتغفر لهـم، ووكـل سـرائرهم إلى الله تعـالى»، يقول ﷺ: «حتى جئت، فلما سلمت تبسَّم تبسُّمَ المُغضب ثم قال:

«تعال» فجئت أمشي حتى جلستُ بين يديه فقال لي: «ما خلّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟» -أي: اشتريت راحلتك؟- قال ﷺ: «قلتُ: يا رسول الله! إني والله! لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر؛ لقد أعطيتُ جدلاً» -أي: فصاحة وقوة في الكلام- «ولكني والله! لقد علمت لئن حدَّثتك حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يُسخطك عليَّ، وإن حدَّثتُك حديث صدق تجد عليَّ فيه» -أي: تغضب- إني لأرجو فيه عُقبى اللهِ -أي: العاقبة الحسنة بتوبة الله عليَّ- والله! ما كان لي عذر، والله! ما كنت قطُّ أقوى ولا أيسر منيِّ حين تخلفت عنك، قال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي اللهُ فيك»، فقمتُ».

يقول كعب ﷺ: «وسار رجال مِن بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا، لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المخلفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك».

يقول ﷺ: «فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذِّب نفسي، ثم قلتُ لهم: هل لَقِيَ هذا معي من أحد قالوا: نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، قال: قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمريُّ، وهلال بن أمية الواقِفي».

يقول ﷺ: «فذكروا لي رجلين صالحين، قد شهدا بدراً فيهما أسوة».

يقول ﷺ: «فمضيت حين ذكروهما لي».

يقول ﷺ: «ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامِنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس -أو قال تغيروا لنا- حتى تنكرت لي في

نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان»، «وأما أنا فكنت أشبَّ القوم» -أي: أصغرهم سناً- «وأجلدهم فكنت أَخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلِّمُني أحدٌ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي: هل حركَ شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر» -أي: أنظر إليه خفية- «فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ وإذا التفت نحوه أعرض عني».

يقول ﷺ: «حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة» -أي: علوت سور بستانه- «وهو ابن عميٌّ وأحبُ الناس إليَّ، فسلمت عليه فوالله ما ردَّ عليّ السلام» فقلت له: يا أبا قتادة! أنشدك بالله -أي: أسألك بالله- «هل تعلمني أحِبُّ الله ورسوله ﷺ، فسكت، فعدتُ فناشدته فسكت، فعدت فناشدتهُ فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي وتوليت حتى تسوَّرت الجدار، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطيٌّ من نبط أهل (الشام) -أي: فلاح- ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إليَّ حتى جاءني فدفع إليَّ كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً. فقرأته فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرتُها، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحيُ» -أي: أبطأ- «إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل فقال: لا بل اعتزلها فلا تقربنها، وأرسل إلى صاحِبيَّ بمثل ذلك فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. فجاءت امرأة هلال بن

أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم فهل تكرهُ أن أخدمه؟ قال: لا ولكن لا يقربنك، فقالت: إنه والله ما به من حركة إلى شيء، ووالله مازال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو أستأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ماذا يقول رسول اله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب».

يقول ﷺ: «فلبثت بذلك عشر ليالٍ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منَّا، قد ضاقت على نفسي وضاقت على الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على سَلْع» -وهو جبل بالمدينة- «يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجداً، وعرفت أنه قد جاء الفرج».

يقول ﷺ: «فآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله -عز وجل- علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا».

يقول ﷺ: «فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرُني نزعت له ثوبيَّ فكُسوتهما إياه ببشراه، والله! ما أملك غيرهما يومئذ».

يقول ﷺ: «واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أتأمَّم رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئوني بالتوبة، ويقولون لي:

لتهنِكَ توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام طلحةَ بن عبيد الله ﷺ يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره، فكان كعب لا ينساها لطلحة يقول ﷺ: «فلما سلمتُ على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور:

أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك» فقلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا بل من عند الله عز وجل» يقول ﷺ: «وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه، حتى كأن وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه».

يقول ﷺ: «فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنْخَلِعَ من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله» -أي: أخرجه في سبيل الله- «فقال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك»، قلت: إني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله! إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أُحدِّث إلا صِدقاً ما بقيتُ».

يقول ﷺ: «فو الله ما علمت أحداً من المسلمين أبلاه الله تعالى» -أي: أنعم عليه- «في صدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لِرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله تعالى به، والله ما تعمدت كذبةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله تعالى فيما بقي».

ثم قال ﷺ: «فأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ حتى بلغ: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٧-١١٩].

يقول كعب ﷺ: «والله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قطُّ بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ؛ أن لا أكون كذبته. فأهْلِكَ كما هلك الذين كذبوا.

إن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝﴾ [التوبة:٩٥-٩٦][(١)].

عباد الله! أما الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من قصة كعب بن مالك وصاحبيه فمنها:

أولاً: الصدق سفينة النجاة.

عباد الله! عليكم بالصدق فإنه ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة.

ففي الدنيا: نجا كعب بن مالك بالصدق هو وصاحباه.

وفي الآخرة: قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة:١١٩].

عباد الله! عليكم بالصدق، فهو طريق إلى الجنة، قال ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة»[(٢)].

ثانياً: بعد الكرب والشدة يأتي الفرج، فهذا كعب بن مالك بعد أن ضاقت عليه نفسه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، جاء الفرج فسمع صارخاً يصرخ: يا كعب بن مالك! أبشر فخر ساجداً لله وقال: قد جاء الفرج.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٤١٨)، ومسلم (رقم ٢٧٦٩).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٦٠٩٤)، ومسلم (رقم ٢٦٠٧).

والرسول ﷺ يقول لابن عباس: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»[1].

ثالثاً: أعداء الإسلام يتربصون بنا الدوائر، ويرصدون ما وقع بين المسلمين، فانظروا في اللحظة المناسبة أرسل ملك غسان إلى كعب بن مالك يطلبه: «الحق بنا نواسك».

رابعاً: التأسف على ما فات من الخير، وتمني المتأسف أنه كان فعله، لقول كعب بن مالك: «فياليتني فعلت».

خامساً: ردّ الغيبة عن المسلم، لقول معاذ بن جبل: «بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً».

سادساً: الحكم بالظاهر والله يتولى السرائر.

سابعاً: يُشرع لمن بُشر بنعمة ما يلي:

- سجود الشكر كما فعل كعب بن مالك ﷺ عندما بشروه بتوبة الله عليه.
- مكافأة الذي يحملُ البشرى: فقد نزع كعب ثوبيه اللذين كان يلبسها، فكساهما الذي سمع صوته بالبشرى، وما كان يملك وقتئذ غيرهما.
- التصدق بالمال:

كما فعل كعب بن مالك ﷺ فقد تصدق ببعض ماله.

ثامناً: خير أيام العبد على الإطلاق وأفضلها؛ يوم توبته إلى الله، وقبول

---

(١) صحيح: «رياض الصالحين» تحقيق الألباني.

الله توبته، لقول النبي ﷺ: «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك».

تاسعاً: استحباب بكاء الإنسان على نفسه إذا وقعت منه معصية، وهذا ما وقع من كعب بن مالك وصاحباه.

عاشراً: في الحديث عظم أمر المعصية يقول الحسن البصري -رحمه الله- «يا سبحان الله ما أكل هؤلاء الثلاثة مالاً حراماً، ولا سفكوا دماً حراما، ولا أفسدوا في الأرض، أصابهم ما سمعتم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فكيف بمن يواقع الفواحش والكبائر؟».

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وارنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه.

الخطبة الخمسون

حجة الوداع

أيها الإخوة **عباد الله!** موعدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع اللقاء الخمسين من سيرة حبيب رب العالمين محمد ﷺ، النبي الأمين، وحديثنا في هذا اللقاء سيكون عن حجة الوداع.

عباد الله! حجة الوداع كانت في السنة العاشرة للهجرة، واتفق العلماء على أن النبي ﷺ لم يحج بعد هجرته إلى المدينة، سوى حجةٍ واحدةٍ وهي حجة الوداع.

عباد الله! وفي حجة الوداع؛ ودّع النبيُّ ﷺ أمته وأصحابه فقال لهم: «خذوا عني مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه».

عباد الله! كيف حجَّ النبي ﷺ.

تعالوا بنا لنستمع إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وهو يصف لنا حجة النبي ﷺ، يقول جابر رضي الله عنه:

إن رسول الله ﷺ مكث بالمدينة تسع سنين لم يَحُجَّ، ثم أذّنَ في الناس في العاشرة: أن رسول الله ﷺ حاجٌّ هذا العام.

فقدم المدينة بشر كثير (وفي رواية: فلم يبق أحد يقدر أن يأتي راكباً أو راجلاً إلا قدم) فتدارك الناس ليخرجوا معه، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله.

وقال جابر رضي الله عنه: سمعت -قال الراوي: أحسبه رفع إلى النبي ﷺ (وفي رواية قال: خطبنا رسول الله ﷺ) فقال: «مُهَلّ أهل المدينة من ذي الحليفة

ومهل أهل الطريق الآخر الجُحفة، ومهل أهل العراق من ذات عـرق -أي: مكان بالبادية، وهو الحد الفاصل بين نجد وتهامه- ومـهل أهـل اليمـن مـن يلمَلمَ».

قال جابر ﷺ: فخرج رسول الله ﷺ لخمس بقين من ذي القعدة أو أربـع وساق هدياً: فخرجنـا معـه معنـا النسـاء والولـدان: حتـى أتينـا ذا الحليفـة فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر.

فأرسلت إلى رسول الله ﷺ: كيف أصنع؟

فقال: اغتسلي واستثفري -وهو أن تشد فرجـها بخرقـة عريضـة بعـد أن تحتشى قطناً وتوثق طرفِها في شيء تشده علـى وسـطها فتمنـع بذلـك سـيل الدم- بثوب وأحرمي.

فصلى رسول الله ﷺ في المسجد وهو صامت -يعني أنه لم يُلب بعدُ-.

الإحرام:

ثم ركب القصواء -وهـي ناقتـه ﷺ- حتـى إذا اسـتوت بـه ناقتـه علـى البيداء أهل بالحج -أي رفع صوته بالتلبيـة- (وفي روايـة: أفـرد الحـج) هـو وأصحابه.

قال جابر: فنظرت إلى مدِّ بصري -أي: منتهى بصري- من بين يديه مـن راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثـل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن، وهـو يعـرف تأويلـه، وما عمل به من شيء عملنا به.

فأهل بالتوحيد: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

وأهل الناس بهذا الـذي يـهلون بـه، (وفي روايـة: ولـبي النـاس والنـاس يزيدون لبيك ذا المعارج لبيك ذا الفواضل، فلم يـرد رسـول الله ﷺ عليـهم شيئاً منه.

ولزم رسول الله ﷺ تلبيته.

قال جابر: ونحن نقول لبيك اللـهم لبيـك بـالحج: نصـرخ صراخـاً لسـنا ننوي إلا الحج مفرداً: لا نخلطه بعمرة: (وفي رواية: لسنا نعرف العمرة) وفي أخرى: أهللنا أصحاب النبي ﷺ بـالحج خالصـاً ليـس معـه غـيره، خالصـاً وحده).

قال: وأقبلت عائشة بعمرة حتى إذا كانت بـ «سرِف» -أي: موضع قرب التنعيم- عرُكت أي: حاضت.

دخول مكة والطواف:

قال جابر ﷺ حتى إذا أتينا البيت معه صبح رابعة مضت من ذي الحجة، (وفي رواية: دخلنا مكة عند ارتفاع الضحى).

فأتى النبي ﷺ باب المسجد فأناخ راحلته ثم دخل المسجد.

استلم الركن (وفي رواية: الحجر الأسود).

ثم مضى عن يمينه.

فرمل حتى عاد إليه ثلاثا -والرملُ هو أسراعُ المشي مـع تقـارب الخطـأ- ومشى أربعاً على هينته.

ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقــرأ (واتخـذوا مـن مقـام إبراهيـم مصلى)، ورفع صوته يُسمعُ الناس.

فجعل المقام بينه وبين البيت [فصلى ركعتين].

قال: فكان يقرأ في الركعتين: (قل هو الله أحد) و(قل يا أيها الكافرون) (وفي رواية «قل يا أيها الكافرون» و«قل هو الله أحد»).

ثم ذهب إلى زمزم فشرب منها، وصب على رأسه ثم رجع إلى الركن فاستلمه.

الوقوف على الصفا والمروة

ثم خرج من الباب (وفي رواية: باب الصفا) إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: (إن الصفا والمروة من شعائر الله) أبدأ (وفي رواية: نبدأ) بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت.

فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره ثلاثا وحمده وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد [يحيي ويميت] وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده ثم دعا بين ذلك، وقال مثل هذا ثلاث مرات.

ثم نزل ماشياً إلى المروة، حتى إذا انصبت قدماه -أي انحدرت -في بطن الوادي سعى، حتى إذا صعدتا -يعني قدماه- الشق الآخر مشى حتى أتى المروة فرقى عليها حتى نظر إلى البيت.

ففعل على المروة كما فعل على الصفا.

الأمر بفسخ الحج إلى العمرة

حتى إذا كان آخر طوافه (وفي رواية: كان السابع) على المروة. فقال: يا أيها الناس: لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي ولجعلتها عمرة.

فمن كان منكم معه هدي فليحل وليجعلها عمرة، (وفي رواية: فقال: أحلوا من إحرامكم، فطوفوا بالبيت، وبين الصفا والمروة، وقصروا، وأقيموا حلالا. حتى إذا كان يوم التروية -وهو اليوم الثامن من ذي الحجة- فأهلوا بالحج واجعلوا التي قدمتم بها متعة).

فقام سراقة بن مالك بن جعْشُمُ (وهو في أسفل المروة:) فقال: يا رسول الله أرأيت عمرتنا (وفي لفظ: متعتنا:) هذه: ألعامنا هذا أم لأبد الأبد: قال: فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في أخرى وقال: دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة، لا بل لأبد أبد، لا بل لأبد أبد، ثلاث مرات قال: يا رسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أو فيما نستقبل؟ قال: لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير. قال: ففيم العمل إذن؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له.

(قال جابر: فأمرنا إذا حللنا أن نهدي، ويجتمع النفر منا في الهدية كل سبعة منا في بدنة فمن لم يكن معه هدي، فليصم ثلاثة أيام وسبعة إذا رجع إلى أهله.

قال: فقلنا: حل ماذا؟ قال: الحل كله قال: فَكَبُرَ ذلك علينا، وضاقت به صدورنا.

النزول في البطحاء

قال: فخرجنا إلى البطحاء، قال: فجعل الرجل يقول: عهدي بأهلي اليوم.

قال: فتذاكرنا بيننا فقلنا: خُرجنا حجاجاً لا نريد إلا الحج، ولا ننوي غيره، حتى إذا لم يكن بيننا وبين عرفة إلا أربع (وفي رواية: خمس ليال أمرنا أن نفضي إلى نسائنا فنأتي عرفة تقطر مذاكيرنا المنى من النساء، قال: يقول

جابر بيده، (قال الراوي): كأني أنظر إلى قوله بيده يحركها، قالوا: كيف نجعلها متعة وقد سمينا الحج؟ قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فما ندري أشيء بلغه من السماء. أم شيء بلغه من قِبل الناس.

خطبته ﷺ بتأكيد الفسخ وإطاعة الصحابة له.

فقام فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه فقال: أبالله تعلموني أيها الناس قد علمتم أني أتقاكم لله وأصدقكم وأبركم، افعلوا ما آمركم به فإني لولا هديي لحللت كما تحلون ولكن لا يحل مني حرام حتى يبلغ الهدي محله ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي، فحلوا.

قال: فواقعنا النساء وتطيبنا بالطيب ولبسنا ثيابنا وسمعنا وأطعنا. فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي.

قال: وليس مع أحد منهم هدي غير النبي ﷺ وطلحة.

قدوم علي من اليمن مهلاً بإهلال النبي ﷺ

وقدم علي من سعايته من اليمن ببدُن النبي ﷺ.

فوجد فاطمة -رضي الله عنها- ممن حل: ترجلت ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت، فأنكر ذلك عليها، وقال: من أمرك بهذا؟!، فقالت: إن أبي أمرني بهذا قال: فكان علي يقول بالعراق: فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشاً على فاطمة للذي صنعت مستفتياً لرسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه، فأخبرته أني أنكرت ذلك عليها فقالت: أبي أمرني بهذا فقال: صدقت، صدقت، صدقت أنا أمرتها به.

قال جابر: وقال لعلي: ماذا قلت حين فرضت الحج؟ قال: قلت: اللهم إني أهل بما أهل به رسول الله ﷺ.

قال: فإن معي الهدي فلا تحل، وامكث حراماً كما أنت.

قال: فكان جماعة الهدي الذي قدم به علي من اليمن، والذي أتى به النبي ﷺ من المدينة مائة بدنة.

قال: فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي-

التوجه إلى مِنى محرمين يوم الثامن وهو يوم التروية:

فلما كان يوم التروية وجعلنا مكة بظهر توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج من البطحاء.

قال: ثم دخل رسول الله ﷺ على عائشة -رضي الله عنها- فوجدها تبكي فقال: ما شأنك؟ قالت: شأني أني قد حضت، وقد حل الناس ولم أحلِلْ، ولم أطف بالبيت، والناس يذهبون إلى الحج الآن، فقال: إن هذا أمر كتبه الله بنات آدم، فاغتسلي ثم أهلي بالحج ثم حجي واصنعي ما يصنع الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت ولا تصلى ففعلت (وفي رواية: فنسكت المناسك كلها غير أنها لم تطف بالبيت.

وركب رسول الله ﷺ وصلى بها (يعني منى، وفي رواية: بنا) الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر.

ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس.

وأمر بقبة له من شعر تضرب له بنمرة -وهو موضع بجانب عرفات وليس من عرفات-.

التوجه إلى عرفات والنزول بنمرة:

فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة ويكون منزله ثم كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز -أي

جاوز المزدلفة ولم يقف بها- رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها.

حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فركب حتى أتى بطن الوادي.

خطبة عرفات

فخطب الناس وقال:

«إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا وإن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي هاتين موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا: ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وإن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإني قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعد إن اعتصمتم به، كتاب الله وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك وأديت ونصحت لأمتك، وقضيت الذي عليك فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم أشهد، اللهم أشهد».

الجمع بين الصلاتين والوقوف على عرفة:

ثم أذن بلال ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئاً.

ثم ركب رسول الله ﷺ القصواء حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حبل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس، وذهبت الصُّفرة قليلاً حتى غاب القُرصُ، وأردف أسامة خلفه.

الإفاضة من عرفات

ودفع رسول الله ﷺ (وفي رواية: أفاض وعليه السكينة) وقد شنق للقصواء الزمام، حتى أن رأسها ليصيب مورِك رحله - وهو قطعة أدمٍ يتورك عليها الراكب تجعل في مقدم الرحل، شبه المخدة الصغيرة - ويقول بيده اليمنى «أيها الناس! السكينة السكينة..».

الجمع بين الصلاتين في المزدلفة والبيات بها:

حتى أتي المزدلفة فصلى بها، فجمع بين المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئاً، ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر.

وصلى الفجر حين تبين له الفجر، بأذان وإقامة.

الوقوف على المشعر الحرام

ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام.

فاستقبل القبلة، فدعا (وفي لفظ: فحمد الله) وكبره وهلله ووحده. فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً. وقال: وقفت ههنا، والمزدلفة كلها موقف.

الدفع من المزدلفة لرمي الجمرة

فدفع من جمع قبل أن تطلع الشمس وعليه السكينة.

وأردف الفضل بن عباس -وكان رجلا حسن الشعر أبيض وسيماً-.

فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظعن تجرين -الظعينة البعير الذي عليه

امرأة، ثم سمى به المرأة مجازاً لملابستها البعير- فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر، فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل، يصرف وجهة من الشق الآخر.

حتى أتى بطن محسر، فحرك قليلاً وقال: عليكم السكينة.

رمي الجمرة الكبرى

ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرجك على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها ضحى بسبع حصيات.

يكبر مع كل حصاة منها، مثل حصى الخذف.

رمى من بطن الوادي وهو على راحلته وهو يقول: لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه.

قال جابر ﷺ ورمى بعد يوم النحر في سائر أيام التشريق إذا زالت الشمس.

ولقيه سراقة وهو يرمي جمرة العقبة، فقال: يا رسول الله، ألنا هذه خاصة؟ قال: لا، بل لأبد.

النحر والحلق

ثم انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثاً وستين بدنه بيده.

ثم أعطى علياً فنحر ما غبر يقول: ما بقي، وأشركه في هديه.

ثم أمر من كل بدنه ببضعة -وهي القطعة من اللحم- فجعلت في قدر فطبخت فأكلا من لحمها، وشربا من مرقها.

(وفي رواية قال: نحر رسول الله ﷺ عن نسائه بقرة).

(وفي أخرى قال: فنحرنا البعير، عن سبعة، والبقرة عن سبعة).

(وفي رواية خامسة عنه قال: فاشتركنا في الجزور سبعة، فقال له رجل: أرأيت البقرة أيشترك؟ فقال: ما هي إلا من البدن).

(وفي رواية: قال جابر: كنا لا نأكل من البدن إلا ثلاث منى، فأرخص لنا رسول الله ﷺ، قال: «كلوا وتزودوا». قال: فأكلنا وتزودنا حتى بلغنا بها المدينة.

رفع الحرج عمن قدم شيئاً من المناسك أو أخر يوم النحر.

(وفي رواية: نحر رسول الله ﷺ فحلق.

وجلس بمنى يوم النحر للناس، فما سئل يومئذ عن شيء قدم قبل شيء إلا قال: «لا حرج، لا حرج».

حتى جاءه رجل فقال: حلقت قبل أن أنحر؟ قال: «لا حرج».

ثم جاء آخر فقال: حلقت قبل أن أرمي؟ قال: «لا حرج».

ثم جاءه آخر فقال: طفت قبل أن أرمي؟ قال: «لا حرج».

قال آخر: طفت قبل أن أذبح، قال: اذبح ولا حرج.

ثم جاءه آخر فقال: إني نحرت قبل أن أرمي؟ قال: ارم.

ثم قال نبي الله ﷺ: قد نحرت ههنا، ومنى كلها منحر وكل فجاج مكة طريق ومنحر فانحروا في رحالكم.

خطبة النحر

وقال جابر ﷺ: خطبنا ﷺ يوم النحر فقال: أي يوم أعظم حرمة؟ فقالوا: يومنا هذا، قال: فأي شهر أعظم حرمة؟ قالوا: شهرنا هذا، أي بلد أعظم

حرمة؟ قالوا بلدنا هذا، قال فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد.

الإفاضة لطواف الصدر:

ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت فطافوا ولم يطوفوا بين الصفا والمروة فصلى بمكة الظهر، فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم فقال: «انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم» فناولوه دلواً فشرب منه[1].

عباد الله! أما الدروس والعظات والعبر التي تؤخذ من حجة الوداع فهي:

أولاً: تحديد مصدر التلقي، ففي حجة الوداع، حدد النبي ﷺ مصدر التلقي الذي يجب على الأمة أن ترجع إليه، وذلك عندما قال لهم: «خذوا عني مناسككم»، وقال لهم: «تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمت به؛ كتاب الله».

عباد الله! وكما قال ﷺ في الحج قال في الوضوء: «من توضأ نحو وضوئي هذا» وقال أيضاً في الصلاة: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

فعلى الأمة أن تأخذ دينها من الكتاب والسنة، حتى لا تضل عن الصراط المستقيم لقوله ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي».

وعلى المسلمين أن يفهموا الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة؛ أصحاب محمد ﷺ ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ

---

(١) «حجة النبي ﷺ كما رواها جابر ﷺ» للشيخ الألباني.

ﭐلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْـهُ﴾.

وقال ﷺ: «وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة، قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: التي تكون على ما أنا عليه وأصحابي».

وقال ﷺ: «إنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ».

ثانياً: قطع الصلة بالجاهلية، والابتعاد عن الذنوب والمعاصي:

وهذا يؤخذ من قوله ﷺ: «ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع؛ دماء الجاهلية موضوعة .. وربا الجاهلية موضوع».

فيجب على الأمة الإسلامية أن تبتعد عن أمور الجاهلية؛ لتعيش في ظل الإسلام كاملاً، والتبرج يا عباد الله من أمور الجاهلية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، والحكم بغير ما أنزل الله من أمور الجاهلية، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ..﴾ والفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم والنياحة من أعمال الجاهلية قال ﷺ: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن؛ الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»[1].

ثالثاً: الوصية بالنساء

---

(١) «صحيح الجامع» (٨٩٦).

وهذا يؤخذ من قوله ﷺ في خطبته: «فاتقوا الله في النساء».

عباد الله! كان النبي ﷺ يوصى دائماً بالنساء فيقول: «استوصوا بالنساء خيراً»، وفي آخر أيامه وهو في فراش الموت يقول: «الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم» والله -عز وجل- وصى بالنساء فقال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾.

فيجب على المسلمين أن يتقوا الله في النساء، لأن النبي ﷺ حذر من الاعتداء على المرأة، فقال ﷺ: «اللهم إني احرج حق الضعيفين؛ المرأة واليتيم»[1].

رابعاً: من مات في الحج محرماً يبعث يوم القيامة ملبياً.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة، إذ وقع عن راحلته فأوقصته، أو قال فأقعصته -أي: قتلته في الحال- فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبين ولا تحنطوه -أي: لا تضعوا عليه من الطيب شيئاً- ولا تخمروا رأسه -أي: لا تغطوا رأسه- فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبياً»[2].

اللهم ارزقنا علماً نافعاً

---

(١) صحيح «رياض الصالحين» (٢٧٥) تحقيق الألباني.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٢٦٥)، ومسلم (رقم ١٢٠٦).

الخطبة الحادية والخمسون

وفاةُ الرسول ﷺ

عباد الله! وموعُدنا في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- مع اللقاء الحادي والخمسين من سيرة حبيبِ ربِّ العالمين محمدٍ ﷺ النبيِّ الأمين، وهذا هو اللقاءُ الأخير، وحديثُنا في هذا اللقاءِ سيكونُ عن وفاة رسول الله ﷺ.

عباد الله! رسولُ الله ﷺ الذي قال الله فيه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾.

والذي أخرجنا الله به من الظلمات إلى النور.

والذي ختم اللهُ به الأنبياءَ والمرسلين، فلا نبي بعده ولا رسول بعده.

والذي قال الله له ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥﴾ أو قال الله له: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ فنشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وجاهدَ في سبيل دينه حتى أتاهُ اليقين، وترك أمته على المحجةِ البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك أو ضالٌ.

عباد الله! رسولُ الله ﷺ الذي قال الله له: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ [الزمر:٣٠]

والذي قال الله له: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ٣٤ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾ [الأنبياء:٣٥].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾.

رسول الله ﷺ الذي قال له جبريل عليه السلام: «يا محمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه»[1].

عباد الله! بعد أن فتح رسولُ الله ﷺ مكة وأرسل إلى ملوك ورؤساء الدول الكبرى يدعوهم إلى الإسلام، وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً؛ أخذ رسول الله ﷺ يشير إلى اقتراب أجله، ويُعرضُ بقرب أجله.

فقبل حجة الوداع، خرج رسول الله ﷺ مع معاذ بن جبل ﷺ يودعه ويوصيه عندما بعثه إلى اليمن، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ ﷺ قال: «يا معاذ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري».

فبكى معاذ جشعاً لفراق رسول الله ﷺ، ثم التفت ﷺ فأقبل بوجهه نحو المدينة، فقال: «إن أولى الناس بي المتقون؛ من كانوا وحيث كانوا»[2].

ووقع ما أشار إليه رسول الله ﷺ، فإن معاذاً أقام باليمن حتى كانت حجة الوداع، ثم كانت وفاة النبي ﷺ بعد حجة الوداع، ومعاذ باليمن.

وكان ﷺ يعتكف كل سنة عشراً في شهر رمضان، فاعتكف في السنة الأخيرة عشرين ليلة، وكان جبريل يعارضه القرآن مرة في شهر رمضان،

---

(١) «الصحيحة» (رقم ٨٣١)

(٢) قال الشيخ الألباني: صحيح رواه أحمد (٥/ ٢٣٥).

فعارضه في السنة الأخيرة مرتين.

قال أبو هريرة ﷺ: كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوماً[(١)].

أخبر النبي ﷺ فاطمة -رضي الله عنها-: «أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة مرة، وإنه قد عارضني به العام مرتين، ولا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري»[(٢)].

عباد الله! وفي حجة الوداع، ودع النبي ﷺ أمته وأصحابه.

في يوم النحر، وعند جمرة العقبة قال ﷺ: «لتأخذوا مناسككم -أي: خذوا عني مناسككم- فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»[(٣)].

وعلى عرفة نزل على رسول الله ﷺ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣].

فلما تلاها ﷺ على أصحابه بكى عمرُ ﷺ فقيل له: ما يبكيك؟ فقال ﷺ إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان[(٤)].

وفي ثاني أيام التشريق نزل على رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [سورة النصر]

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٢٠٣٣)، ومسلم (رقم ١١٧٣).
(٢) رواه البخاري (رقم ٦٢٨٥)، ومسلم (رقم ٢٤٥٠).
(٣) رواه مسلم (رقم ١٢٩٧).
(٤) «تفسير الطبري» (٦/ ٨٠)، «البداية والنهاية» (٥/ ٧٩).

فلما سأل عمر ﷺ ابن عباس -رضي الله عنهما- عن هذه السورة.

قال ابن عباس: هو أجل رسول الله ﷺ أعلم له، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝﴾ وذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝﴾.

فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول[1].

عباد الله! ودعا النبي ﷺ فاطمة -رضي الله عنها- فسارها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارها بشيء فضحكت. فلما سألتها عائشة - رضي الله عنها - قالت: سارّني في الأول فقال لي: «إن جبريل كان يُعارضُني بالقرآن كل سنة مرةً، وقد عارضني في هذا العام مرتين، ولا أرى ذلك إلا اقتراب أجلي، فاتقي الله واصبري، فنعم السلف أنا لك» فبكيت.

ثم سارني فقال: «يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة؟» فضحكت[2].

عباد الله! وخرج ﷺ يوماً إلى أحد فصلى على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض.

وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن

---

(١) رواه البخاري (رقم ٤٩٧٠).

(٢) متفق عليه، مضى قريباً.

تنافسوا فيها»[١].

عباد الله! هكذا أخذ رسول الله ﷺ يشير ويعرض باقتراب أجله، والناس يشعرون أن رسول الله ﷺ يودعهم.

عباد الله! وعاد النبي ﷺ من حجة الوداع إلى المدينة، وهناك في المدينة بدأ النبي ﷺ يشتكى من صداع شديد في رأسه.

تقول عائشة -رضي الله عنها- رجع النبي ﷺ ذات يوم من جنازة من البقيع فوجدني، وأنا أجد صداعا وأنا أقول، وارأساه، فقال: «بل أنا يا عائشة وارأساه».

ثم قال ﷺ لها: «وما ضرك لو مت قبلي فغسلتك وكفنتك، وصليت عليك ودفنتك».

فقالت -رضي الله عنها- له: كأني بك والله لو فعلت ذلك، لرجعت إلى بيتي فعرست فيه ببعض نسائك.

تقول -رضي الله عنها-: «فتبسم رسول الله ﷺ ثم بدئ في وجعه الذي مات فيه»[٢].

عباد الله! «اشتد الوجع برسول الله ﷺ، فطلب من زوجاته أن يمرض في بيت عائشة أم المؤمنين فأذنَّ له، فخرج بين رجلين من أهل بيته حتى دخل بيت عائشة»[٣].

وكان ﷺ يقول: «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر،

---

(١) رواه البخاري (رقم ١٣٤٤).
(٢) صحيح ابن ماجة (١١٩٧).
(٣) رواه البخاري (رقم ٢٥٨٨).

فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري»[١] -من ذلك السم-.

وكان ﷺ يخرج إلى المسجد يصلي بالناس، فلما اشتد به الوجع قال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس».

فقالت عائشة: إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل بالناس.

فقال ﷺ: «مروا أبا بكر فليصل بالناس».

تقول عائشة: فقلت لحفصة: قولي له: إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل بالناس. ففعلت حفصة.

فقال ﷺ: «مه! إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس».

فقالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيراً[٢].

وعاودت عائشة رسول الله ﷺ لئلا يتشاءم الناس بأبيها[٣].

عباد الله! أبو بكر ﷺ يصلي بالناس، وفي يوم وجد النبي ﷺ في نفسه خفة فخرج يهادي بين رجلين، ورجلاه تخطان في الأرض من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخر فأومأ إليه النبي ﷺ أن مكانك، ثم أُتي به حتى جلس إلى جنبه، فكان ﷺ يصلى، وأبو بكر يصلي بصلاته، والناس يصلون بصلاة أبي بكر[٤].

---

(١) رواه البخاري (رقم ٤٤٢٨).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٦٧٩)، ومسلم (رقم ٤١٨).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٤٤٥)، ومسلم (رقم ٤١٨).
(٤) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٩٨)، ومسلم (رقم ٦٦٤).

عباد الله! فلما كان يوم الخميس قبل خمسة أيام من وفاته ﷺ؛ اشتد الوجع برسول الله ﷺ فقال للمسلمين حوله: «ائتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده» فتنازعوا، وما ينبغي عند نبي تنازع.. فقال لهم «دعوني فالذي أنا فيه خير»[١].

ثم أراد النبي ﷺ أن يخرج للخطبة. فقال لأهله: «أهريقوا علي من سبع قرب لم تُحَلُ أوكيتها، لعلي أعهد إلى الناس».

تقول عائشة - رضي الله عنها - «فأجلسناه في مخصب لحفصة، ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب، حتى طفق يشير إلينا بيده» أن قد فعلتن، تقول -رضي الله عنها- ثم خرج إلى الناس فصلى بهم وخطبهم[٢].

يقول أبو سعيد الخدري ﷺ «خطب رسول الله ﷺ الناس فقال: «إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله».

قال أبو سعيد: «فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خير، فكان رسول الله ﷺ هم المُخَيرُ، وكان أبو بكر أعلمنا».

فقال ﷺ: «إن أمنَّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب ألا سد، إلا باب أبي بكر»[٣].

عباد الله! اشتد الوجع برسول الله ﷺ، فأخذ يوصي أمته وأصحابه في

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٤٣٢)، ومسلم (رقم ١٦٣٧).
(٢) رواه البخاري (رقم ١٩٨).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٦٦)، ومسلم (رقم ٢٣٨٢).

الأيام الأخيرة من عمره بما يلي:

أولاً: أوصى أمته بإخراج المشركين في جزيرة العرب، فقال ﷺ قبل موته بخمس: «أوصيكم بثلاث ثم ذكر منها: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»[١].

ثانياً: وأوصى أن تغلق الأبواب المفتوحة على المسجد إلا باب أبي بكر فقال ﷺ: «لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر» وهذه من الإشارات لاستخلافه ﷺ[٢].

ثالثاً: وأوصى ﷺ بالأنصار خيراً.

يقول أنس ﷺ: «مر أبو بكر والعباس - رضي الله عنهما - بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون فقال: ما يُبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ فينا فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك. قال: فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية برد، فصعد المنبر -ولم يصعده بعد ذلك اليوم- فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتي -أي: موضع سري وأمانتي-، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»[٣].

رابعاً: وأوصى ﷺ بتعظيم الرب - عز وجل - في الركوع، والاجتهاد في الدعاء في السجود يقول: ابن عباس -رضي الله عنهما-: كشف رسول الله ﷺ الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر فقال: «أيها الناس، إنه لم يبق

---

(١) رواه البخاري (رقم ٣١٦٨).

(٢) مضى قريباً.

(٣) رواه البخاري (رقم ٣٧٩٩).

من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، ألا وأني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن -أي: حقيق وجدير- أن يستجاب لكم»(١).

خامساً: أوصى ﷺ أمته بالصلاة

يقول علي ﷺ: كان آخر كلام رسول الله ﷺ «الصلاة، الصلاة، واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»(٢).

سادساً: ووصى ﷺ أمته أن تحسن الظن بالله.

يقول جابر ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله -عز وجل-»(٣).

سابعاً: نهى ﷺ أمته عن بناء المساجد على القبور، تقول عائشة وابن عباس -رضي الله عنهم-: إن رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة جعل يلقى على وجهه طرف خميصة، فإذا اغتم كشفها عن وجهه وهو يقول: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

تقول عائشة: «يُحَذِرُ مثل الذي صنعوا»(٤).

عباد الله! اشتد الوجع برسول الله ﷺ، وانقطع عن أصحابه بقية يوم

---

(١) رواه مسلم (رقم ٤٧٩).
(٢) انظر «إرواء الغليل» (رقم ٢١٧٨).
(٣) رواه مسلم (رقم ٢٨٧٧).
(٤) رواه البخاري (رقم ٤٤٤١).

الخميس، والجمعة والسبت والأحد، وبينما هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين، وأبو بكر يصلي بالناس، لم يفجأهم إلا ورسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة؛ فنظر إليهم وهم صفوف في الصلاة ثم ابتسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة.

يقول أنس ﷺ: وهم المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل ﷺ الحجرة وأرخى الستر، ثم مات ﷺ ضحى ذلك اليوم الاثنين(١).

عباد الله! وفي يوم الاثنين اشتد المرض برسول الله ﷺ

تقول عائشة -رضي الله عنها-: لا أكره شدة الموت لأحد أبداً بعد ما رأيت النبي ﷺ(٢).

ويقول ابن مسعود ﷺ: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك، فقلت: يا رسول الله، إنك توعك وعكاً شديداً».

قال ﷺ: أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم.

قلت: ذلك أن لك أجرين؟

قال ﷺ: أجل، ذلك كذلك.

ثم قال ﷺ: «ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها، إلا كفر الله بها

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٦٨٠)، ومسلم (رقم ٤١٩).
(٢) رواه البخاري (رقم ٤٤٤٥).

سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها»[١].

وتقول عائشة -رضي الله عنها- «لما نزل برسول الله ﷺ -أي: وجع الموت- طفق يطرح خميصه له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه، ويقول: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» تقول عائشة -رضي الله عنها-: لولا ذلك لأبرز قبره، خشي أن يتخذ مسجداً[٢].

ويقول أنس ﷺ لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب فقالت فاطمة -رضي الله عنها- «واكرب ابتاه»! قال ﷺ: «ليست على أبيك كرب بعد اليوم»[٣].

وتقول عائشة -رضي الله عنها- «إن من نعم الله علي؛ أن رسول الله ﷺ توفى في بيتي ويومي، وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته.

تقول -رضي الله عنها-: دخل علي عبد الرحمن بن أبي بكر وبيده سواك -وأنا مسندة رسول الله ﷺ- فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم.

فتناوله فاشتد عليه، فقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم. فلينته فأمّره -أي أستاك به- تقول -رضي الله عنها- «وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بها وجهه ويقول: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات»، ثم نصب يده فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى»، حتى قبض

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٥٦٤٧)، ومسلم (رقم ٢٥٧١).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٣٣٠)، ومسلم (رقم ٥٢٩).

(٣) رواه البخاري (رقم ٤٤٦٢).

فمالت يده[1].

يقول أنس ﷺ، لما مات رسول الله ﷺ، قالت فاطمة -رضي الله عنها-:

يا أبتاه! أجاب رباً دعاه.

يا أبتاه! جنة الفردوس مأواه.

يا أبتاه! إلى جبريل ننعاه»[2].

عباد الله! لما مات رسول الله ﷺ وضعت عائشة -رضي الله عنها- رأسه على وسادة، وسجته -أي: غطته- ببردة.

عباد الله! عائشة تبكي، وفاطمة تبكي، والكل يبكي على فراق رسول الله ﷺ، والخبر ينتشر هنا وهناك، فمن المسلمين من يقول: مات رسول الله ﷺ، ومنهم من يقول: لا ما مات رسول الله ﷺ، وهذا الفاروق عمر ﷺ يتوعد من قال مات رسول الله ﷺ بالقتل والقطع.

عباد الله! وصل الخبر إلى أبي بكر ﷺ، فجاء على فرسه، ثم دخل فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله وقال: بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبداً، ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر:٣٠].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٤٥٠)، ومسلم (رقم ٢٤٤٣).
(٢) رواه البخاري (رقم ٤٤٦٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران:١٤٤]

فنشج الناس يبكون، وقال عمر: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرفت أنه الحق، فَعُقِرْتُ حتى ما تُقِلُّني رجلاي، وهويت إلى الأرض، وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول الله ﷺ قد مات»[1].

مات النبي ﷺ وإنها لمصيبة من أعظم المصائب، لأن بموته انقطع الوحي من السماء.

أيها المسلم!

اصبر لكل مصيبة وتجلدِ	واعلم بأن المرء غير مُخلد
أوَما ترى أن المصائبَ جمّة	وترى المنيةَ للعباد بمرصد
مَنْ لم يُصبْ ممن ترى بمصيبة	هذا سبيلٌ لستَ فيه بأوحدِ
فإذا ذكرتَ محمداً ومصابه	فاذكرْ مُصابَكَ بالنبيِّ محمدِ

عباد الله! اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة، وبعد المشاورات والمحاورات تم الاتفاق على أبي بكر ﷺ خليفةً للمسلمين بعد رسول الله ﷺ، وبايعه المسلمون في المسجد على ذلك.

عباد الله! وبدأ المسلمون في تجهيز النبي ﷺ.

أولاً: الغسل:

تقول عائشة - رضي الله عنها -: لما أرادوا غسل النبي ﷺ قالوا: والله لا

(١) رواه البخاري (رقم ٤٤٥٤).

ندري أنجرد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا أم نغسله وعليه ثيابه؟ فلما اختلفوا ألقى الله -تبارك وتعالى- عليهم النومُ حتى ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره.

ثم كلَّمهم مُكَلِّمٌ من ناحية البيت -لا يدرون مَنْ هو-: أن غسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه، يصبون الماء فوق القميص، ويدلكون القميص دون أيديهم وكانت عائشة تقول «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه»[١].

ثانياً: الكفن:

فلما فرغوا من غسله ﷺ كفنوه في ثلاثة أثواب بيض سحولية، ليس فيها قميص ولا عمامة. كما قالت عائشة -رضي الله عنها[٢]-.

ثالثاً: الصلاة عليه:

ثم أخذوا في الصلاة عليه ﷺ فرادى، لم يؤمهم أحد، دخل الرجال، ثم النساء، ثم الصبيان[٣].

رابعاً: الدفن:

فلما أرادوا دفنه ﷺ اختلفوا أين يدفنونه؟

فقال أبو بكر ﷺ: سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً ما نسيته، قال ﷺ: «ما قبض الله نبياً إلا في الموضع الذي يحب أن يدفن فيه فدفنوه، في موضع

---

(١) «صحيح أبي داود» (٢٦٩٣).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ١٢٧٢)، ومسلم (رقم ٩٤١).

(٣) «البداية والنهاية» (٥/ ٢٦٥).

فراشه»[١].

وكان بالمدينة رجل يُلحد، وآخر يضرح.

فقالوا: نستخير ربنا ونبعث إليهما، فأيهما سبق تركناه.

فسبق صاحب اللحد، فلحدوا للنبي ﷺ[٢].

تقول عائشة -رضي الله عنها-: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي في جوف ليلة الأربعاء[٣].

فلما فرغوا من دفنه قالت فاطمة -رضي الله عنها-: «يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب»[٤].

وتقول أم سلمة - رضي الله عنها - بينما نحن مجتمعون نبكي لم ننم، ورسول الله ﷺ في بيوتنا، ونحن نتسلى برؤيته على السرير، إذ سمعنا صوت الكرارين في السحر، فصحنا وصاح أهل المسجد فارتجت المدينة صيحة واحدة، وأذن بلال بالفجر، فلما ذكر رسول الله ﷺ بكى وانتحب فزادنا حزناً[٥].

عباد الله! إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، وإنا على فراقك يا رسول الله لمحزونون، ولا نقول إلا ما يُرضى ربنا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) «صحيح الترمذي» (١٠١٨).
(٢) «صحيح ابن ماجه» (١٢٦٤).
(٣) حسن «الفتح الرباني» (٢١/ ٢٥٦).
(٤) رواه البخاري (رقم ٤٤٦٢).
(٥) «البداية والنهاية» (٥/ ٢٧١).

ويقول أنس ﷺ: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة، أضاء منها كلُّ شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه، أظلم منها كلُّ شيء، وما نفضنا أيدينا عن التراب حتى أنكرنا قلوبنا[١].

عباد الله! وعزاؤنا في رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أراد الله رحمة أمةٍ من عبادة قبض نبيها قبلها، فجعله لها فرطاً وسلفاً بين يديها»[٢].

وتقول عائشة - رضي الله عنها -: «ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا شاةً ولا بعيراً ولا أوصى بشيء»[٣].

«بل لقد مات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعيرٍ أخذها لأهله»[٤].

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير

توفنا على الإسلام وألحقنا بالصالحين

(١) «صحيح الترمذي» (٣٦١٨).
(٢) رواه مسلم (رقم ٢٢٨٨).
(٣) رواه مسلم (رقم ١٦٣٥) من حديث عائشة وأخرجه البخاري (رقم ٤٤٦١) من حديث عمرو بن الحارث.
(٤) متفق عليه، رواه البخاري (رقم ٤٤٦٧)، ومسلم (رقم ١٦٠٣).



الفهرس الموضوعي

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة